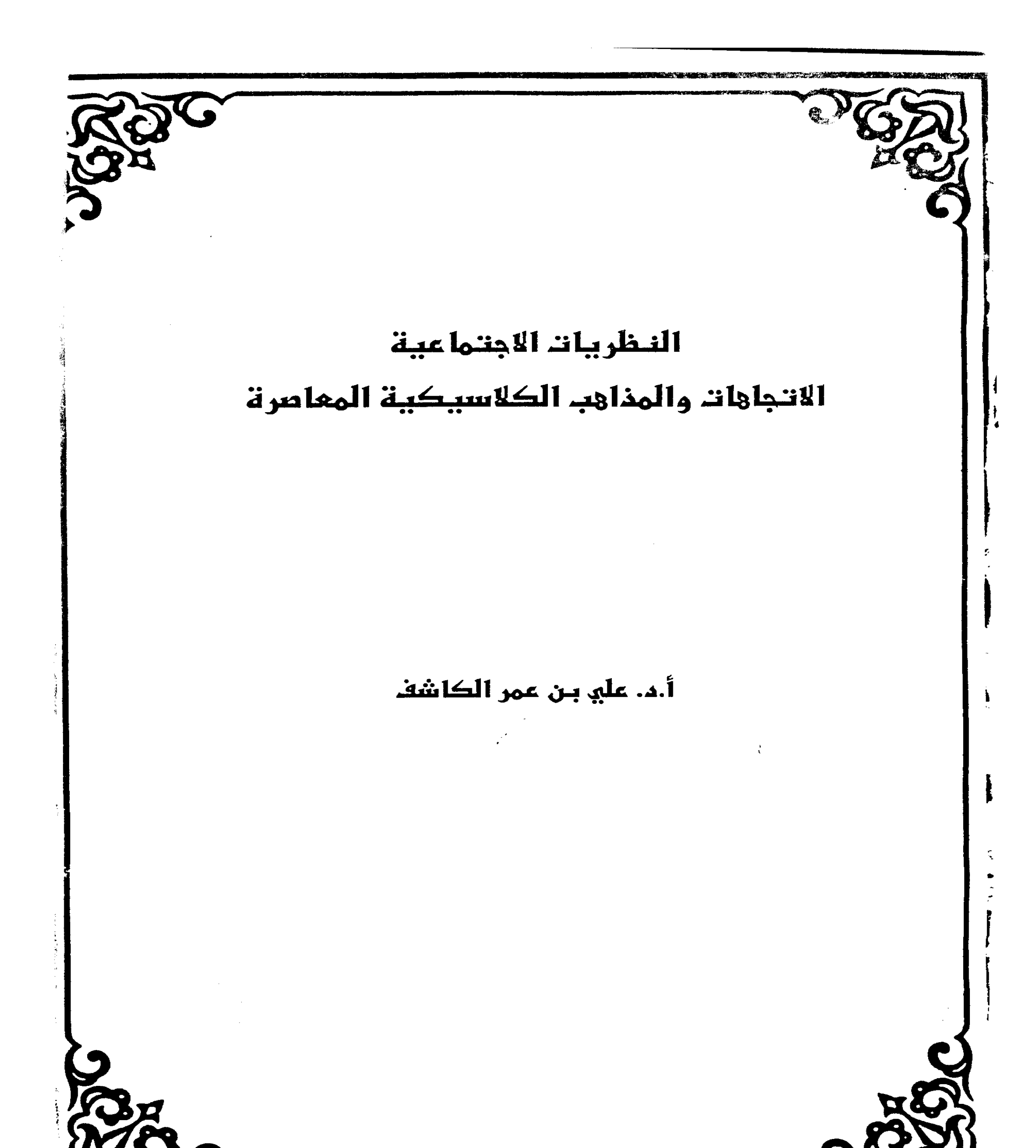


النظريات الاجتماعية
الاتجاهات والمذاهب الكلاسيكية المعاصرة

أ.د. علي بن عمر الكاشف




بسم الله الرحمن الرحيم





الباب الأول

الثوابت النظرية والقواعد المنهجية وأسس نقد النظرية الإجتماعية

الصفحة | المحتويات

الباب الثاني
المذاهب الكلاسيكية للنظرية الإجتماعية

المحتويات — الصفحة

الباب الثالث
الإتجاهات النظرية الإجتماعية المعاصرة
الفصل الأول - الإتجاه الوضعي الحديث

المحتويات الصفحة

مقدمة

إذا كان موضوع النظرية الإجتماعية هدفا مباشرا في هذا المؤلف ، إلا أنه لا يعني أننا نؤرخ للفكر الإجتماعي في حد ذاته ، بقدر ما نعتني بالنظرة التحليلية النقدية للإسهامات المختلفة لجوانب الفكر السوسيولوجي من المرحلة الكلاسيكية إلى المرحلة المعاصرة ، تلك الجوانب الفكرية التي جعلت لعلم الإجتماع موقف نظري أثار الكثير من الجدل وما زال الحوار مستمرا حول مشكلاته المعاصرة وقضاياه النظرية .

وإنطلاقا من هذا الفهم فإننا نعالج النظرية الإجتماعية باستعراض نشأتها وتطورها بالنظر إلى التفاعلات التاريخية التي عاصرت نشأة علم الإجتماع كنسق نظري شامل جردت عنه النظريات الإجتماعية . كذلك فإننا لا نقصد باستعراض النشأة والتطور التاريخي للنظرية الإجتماعية سرد تاريخ النظريات وإنما نقصد التحليل النقدي المنهجي للفكر الإجتماعي كدليل حياة للعلم له دور وكفاءة نظرية ومنهجية في قيادة الفكر السوسيولوجي المعاصر . لذلك نستطيع القول إن نظرتنا التحليلية النقدية لأهم إسهامات المفكرين الإجتماعيين من المرحلة الكلاسيكية إلى الموقف النظري المعاصر تقدم رؤية تكاملية لإتجاهات الفكر الإجتماعي في بناء النظرية الإجتماعية وذلك في إطار :

أولا : الثوابت النظرية والقواعد المنهجية وأسس نقد النظرية الإجتماعية .

ثانيا : تحليل ونقد المذاهب الكلاسيكية للنظريات الإجتماعية .

ثالثا : تحليل ونقد معطيات إتجاهات النظرية الإجتماعية المعاصر .

لذلك تشتمل نظرتنا التحليلية النقدية على ترسيخ المفاهيم والقضايا الأساسية التي هي محور إهتمام السياق النظري الإجتماعي ومدى مطابقتها للكفاءة المنهجية لوظيفة النظرية ودورها في قيادة البحوث الإجتماعية . والكشف عن هل النظرية تجريد لمعطيات الواقع أو هي إطار مرجعي لكشف معطيات الواقع . لذلك يقتصر عرضنا في هذا المؤلف على ثلاثة موضوعات أساسية يعالج الموضوع الأول الثوابت النظرية والقواعد المنهجية وأسس نقد النظرية الإجتماعية ، نهدف به الوقوف على معنى النظرية في علم الإجتماع ووظائف وأسباب قصورها وآثارها على البحث الإجتماعي وذلك من خلال استعرا ضنا لتحليل بناء النظرية الإجتماعية والصور المنطقية للعلاقة بين المتغيرات الإجتماعية مسترشدين بنموذج مثالي لمستويات تطبيق مقولات النظرية في المجال التربوي بالنظر إلى التربية كظاهرة إجتماعية .

وننتقل في هذا الموضوع إلى مناقشة أسس نقد النظرية الإجتماعية من خلال مفهومي الأطر النظرية والإتجاهات المنهجية وتصنيفها والوقوف على الجوانب الأيديولوجية والمعرفية والامبيريقية التي تميزها .

ونعالج في الموضوع الثاني من هذا المؤلف عرض للمذاهب الكلاسيكية النظرية بالوقوف على الأبعاد التاريخية والفكرية التي أثرت في نشأة النظرية الإجتماعية في مرحلة التأسيس الأكاديمي وذلك من خلال استعراض آراء الرواد وأهم أعمالهم وتأثيراتهم وخاصة تلك التي مازالت يتردد صداها في البحوث الإجتماعية المعاصرة .

ونتطرق في الموضوع الثالث بالتحليل مناقشة الإتجاهات النظرية المعاصرة بدءً بالإتجاه الوضعي الحديث الذي هيأ السبيل إليه أعمال الرواد السابقين وأهم تأثيراتهم في أعمال الرواد المعاصرين والوقوف على ملامح النظرية السوسيولوجية المعاصرة . ونتدرج إلى استعراض الإتجاه البنائي الوظيفي بإعتبار أنه الإتجاه السائد الآن في العلوم الإجتماعية والطبيعية والذي يستند إلى منهج التحليلات النسقية وهو ما يضفي معنى الامبيريقية ويقترب به من استخدامات المناهج في العلوم الطبيعية وخاصة المنهج الإحصائي والرياضي والسيبرانطيقا وربط الظواهر الإجتماعية بالتحليلات الكمية وتحليلاتها في علاقاتها بمنظومات متنامية وشديدة التعقيد والتجريد إنطلاقا من محاولات بارسونز وتلاميذه في صوغ النظرية العامة النسقية كنظرية منهجية تضاهي النظريات العلمية الطبيعية . ويقودنا هذا إلى عرض للاستخدام المنهجي للنظرية النسقية الإجتماعية الامبيريقية وأهمية استخداماتها في صوغ الأطر التصورية واستخدام الأنساق المنطقية في تحليل الواقع – وكيف يقود النموذج التصوري البحث الإجتماعي ومستويات تطبيق منهج التحليل النسقي .

ومن خلال هذا الطرح النظري والمعالجة النقدية نصل إلى رؤية تكاملية للنظرية الإجتماعية في أبعادها الثلاثة البعد المعرفي ، والبعد المنهجي ، والبعد الامبيريقي .

وأخيرا أن الموقف النظري في علم الإجتماع أثار الكثير من الجدل وما زال ، وهو على كل حال دليل حياة هذا العلم وأهميته منذ أن سعى رواده نحو تأكيد هويته ، بتطوير صور التفكير حول طبيعة المجتمع والإنسان-والثقافة والتفاعل الإجتماعي والنظم الإجتماعية ، وتطوير منهجيته بالتخلص من الإرتباط بالفلسفة ، ومحاولة تمثل العلوم الطبيعية ، وإرتباطه بالنزعة الامبيريقية لفهم التفاعلات في الواقع الإنساني المتجدد .

وعلى الله قصد السبيل .

و



الفصل الأول : الثوابت النظرية

ماهي النظرية الإجتماعية ؟

* أبعاد النظرية العلمية ووظائفها .
* وظائف النظرية في العلم .
* وظيفة الوقائع في العلم .
* الإتجاهات النظرية والواقع الإجتماعي .
* أسباب تصور النظرية السوسيولوجية المعاصرة .
* أثر النظرية على البحث .
* الامبيريقية والنظرية الإجتماعية .

تمهيـد :

نعالج في هذا الباب الثوابت النظرية والقواعد المنهجية وأسس نقد النظريـــة الإجتماعية . وذلك بتحليل تفسيري للقضايا الأساسية التـــي تـدور حولـــها النظرية الإجتماعية في أبعادها النظرية والمنهجيـــة ووظائفـــها فـــي علـــم الإجتمـــاع . كذلك نتجه ابداءً في الفصل الأول بترسيخ الجوانب المنهجيـــة التي نعالج بها تحليل الأبعاد النظرية والمفاهيم والقضايا الأساسية التي نحتاج إليها في الأبواب اللاحقة ، كما نركز في الفصل الثاني من هذا الباب علـــى القواعد المنهجية لصوغ النظرية والتي تشتمل على بناؤها وصورها المنطقية والأساليب المنهجية لصوغها ومستويات تطبيقاتها ومتطلباتها الثابتـــة . ثـــم نتطرق في الفصل الثالث إلى أسس نقد النظرية الإجتماعية من خلال مفهومي الأطر النظرية والإتجاهات المنهجية ، وصولا إلى تحديد أسس نقد النظريـــة الإجتماعية والمبادئ التي تستند إليـــها ايديولوجيتـــها وقضاياهـــا الأساســـية ومسلماتها وفروضها ومدى كفاءتها الامبيريقية وصلاحيتها في معالجة الواقع والقيم والمعايير التي تدعو إليها .

ماهي النظرية الإجتماعية

هي نسق من المعرفة المعممة التـــي تفســر الجوانــب المختلفــة للواقــع الإجتماعي ، والنظرية الإجتماعية تخضع للتحقق من صدقها عــن طريــق الملاحظة الامبريقية ، وتمثل النظرية أعلى درجة من درجـــات التجربــة والتعميم ، وتفسر النظرية الأحكام والقضايا والفروض والقوانين تمــــاما تحت ملاحظاتها كواقع توحد العلاقة بينهما . كما أنها تساعد العلمـــاء فــي نفس الوقت على اكتشاف قوانين جديدة أو وضع فروض لاختبار صدقــها . أو الكشف عن أدلة غامضة للمشكلات الإجتماعية .

أبعاد النظرية العلمية ووظائفها :

وللنظرية العلمية أبعاد ثلاثة :

أ. بناء منطقي (شكل) مجموعة من القضايا من المفـــاهيم ذات علاقـــات منطقية .

. تعميمات (مضمون) متعلقة بطبيعة الظواهر التي تدرسها مستنطبة مــن القضايا المنطقية .

أ. فروض متعلقة بالمنهج الخاصة بالعلم بأساليب في جمع الوقائع وطرق البحث القياسي وطبيعة المادة التي يدرسها العلم .

وظائف النظرية في علم الاجتماع:

١. تحدد الإتجاه الأساسي للعلم عن طريق تحديد نوع الوقائع التي يجـــب جمعها عن الظواهر المدروسة .

٢. تقدم إطار تصوري يقود البحث العلمي ويســاعد العــالم علــى إدراك الوقائع والظواهر المدروسة .

٣. تلخص الوقائع والعلاقات فيما بينها : فكل قانون أو فرض أو مفـــهوم تتضمنه النظرية لاتخرج عن كونه تلخيصا أو تكثيفا هائلا لعدد لا نهاية له من الملاحظات التي قام العلماء بإجرائها وأدركتها الحواس وقبلـــها المنطق العقلي .

فمفهوم التغير الإجتماعي أو التغير الثقافي يلخص في كلمة واحدة ملاحظات عديدة أجريت على صور التغير الإنساني إجتماعيا ونظاميا والقوانين تلخص العلاقات المتعددة بين ظواهر التغير الإجتماعي أو ظواهر التعبير الثقافي والنظرية تلخص العلاقات بين القوانين . وبدون عمليات التلخيص – وتنظيم هذه سيتعذر الإلمام بمكتشفات العلم أو استنتاج أي شيء منها .

٤. **التنبؤ بالواقع :**

ويمكن للنظرية أيضا أن تتنبأ بما سيحدث في المستقبل في الظواهر الإجتماعية فمثلا زيادة السكان في مساحة معينة من الأرض تعطي مؤشرات لكثافة السكان وتوزعهم وتخلخلهم عن ذات الساحة وأيضا يمكن التنبؤ وفق قانون المنفعة بتوزيع الإنتاج والدخول وحساب متوسطات الأعمار في السنوات القادمة وحساب متطلبات الرعاية الإجتماعية ، الخدمات التعليمية والصحية ... الخ حين نضع خطة للتنمية الإجتماعية مثلا .

٥. **تحديد أوجه النقص في معرفتنا :**

أننا لا نستطيع أن نعرف ما ينقصنا في أي مجال إلا إذا عرفنا أولا كم نوع متوفر لدينا فإذا كانت النظرية تلخص وتنظم المعرفة المكتسبة فإنها تساعدنا على التعرف على ما ينقصنا من معرفة وترشدنا إلى الجوانب التي يجب أن نركز بحثنا عليها.

٦. **النظرية تقوم بمهمة ترشيد التطبيق :**

أن العلاقة بين النظرية والتطبيق علاقة متبادلة وكل صدق النظرية هو مدى نجاحها في تطبيقات عملية فإذا كان اكتشاف قانون الطفو في الطبيعة ساعد على بناء السفن ونظرية الجاذبية ساعدت على بناء الطائرات فإن قوانين التغير الإجتماعي تساعد على التحكم في الأفعال الإجتماعية إعادة بناء المجتمع والتخطيط للتنمية . والتقدم الإجتماعي ، وإكتشاف قوانين ديناميية السلوك الإنساني يساعد على ضبط إتجاهات الشباب وترشيد التنشئة الإجتماعية والتربية ... الخ .

وظيفة الوقائع في العلم :

أشرنا إلى أن النظرية هي أعلى مراحل الجانب العقلي من المعرفة العلمية وأن الوقائع هي التي يمثل وصفها وملاحظة الجانب الحسي من

المعرفة العلمية. وقلنا أن كلاهما (الجانب العقلي والجانب الحسي) يمثلان وحدة عضوية ولا وجود لأحدهما دون الآخر. ويمكن أن يكشف لنا ذلك عن ثلاث نطاق أساسية للوقائع:

الوظيفة الأولى :

الوظيفة الأولى أن الوقائع تساعد على تكوين النظرية فمن خلال الملاحظة الحسية للظواهر تلبية تكوين المفهومات، فالفروض ثم إجراء التجربة للتحقق من صدقها ثم استنتاج القوانين فالنظريات. كما يجب ألا ننسى أننا في جمعنا للوقائع نسترشد دائماً بما سبق .

الوظيفية الثانية :

إعادة صياغة النظرية أو تعديلها ذلك أن عملية البحث العلمي دائمة ومستمرة واكتشاف وقائع جيدة يؤدي إلى تعديل النظرية أو إعادة صياغتها كي تتلاءم مع الوقائع الجديدة التي تم اكتشافها.

الوظيفة الثالثة :

أولا: أن الوقائع توضح النظرية واثبات صدقها كلما توصل العلماء إلى اكتشاف وقائع جيدة. أدى ذلك إلى إثبات صحة النظرية.

ثانيا : إخضاع المبادئ أو المسلمات للفحص الدقيق ومناقشة مدى صدقها والتساؤل عن الأدلة التي تؤكدها أو تنفيها .

ثالثا : التعرف على الجوانب الأيديولوجية والسياسية التي تتضمنها النظرية .

رابعا : الوقوف على ما تشير إليه النظرية من إجراءات عملية منهجية للتطبيق أو الممارسة العملية .

وإذا أخذنا النظرية العنصرية التي حاول ترويجها علماء الألمان النازيين – كمثال تطبيقي نخضعها لأسس التقييم الأربعة المشار إليها نجد :

أولا : استندت النظرية العنصرية على المسلمات الأساسية الآتية :

١. أن الجنس الآري متفوق عن غيره من الأجناس البشرية .
٢. أن هناك خصائص سوسيولوجية موروثة لدى كل جنس بشري تحدد لشكل أيدى تفوقه أو تخلفه الحضاري ولا سبيل إلى تغيرها .

ثانيا : بإخضاع هذه المبادئ أو المسلمات للفحص العلمي الدقيق ومناقشة مصداقيتنا والتساؤل عن الأدلة التي تسوقها ، أثبت علماء البيولوجيا أن :

١. لا يوجد هناك أي مورثات ترتبط بالتحضر أو التخلف فإن المورثات (الجينات) تحتوي على برنامج يحدد التطور الفيزيقي (الشكل – اللون – الحجم – فصائل الدم المعروفة ... الخ ولم يثبت وجود (جينة) تحدد الذكاء أو العبقرية .

٢. أثبتت الدراسات التاريخية والحضارية المقارنة أن كثير من الأجناس التي اعتبرتها النظرية العنصرية مختلفة لها حضارات أرقى بكثير من حضارة الجنس الآري فكانت الحضارة الفرعونية في مصر دليلا على زيف هذه الادعاءات . كذلك الحضارة الإسلامية أقامت حضارة راقية ما زالت حتى الآن مصدرا لحضارات العالم وكانت أوربا تحيا حياة بدائية . وهكذا اتضح أن المسلمة الأساسية التي استندت إليها النظرية العنصرية تنقصها الأدلة الامبيريقية العلمية والأدلة التاريخ الإجتماعية .

ثالثا : وإذا حللنا هذه النظرية من ناحية مضمونها الأيديولوجي لوجدنا أنها :

١. ذات مضمون استقلالي ، فهي تبرر الاستعمار بالتستر وراء العلم . وقبول الشعوب المستعمرة وخضوعها للسيطرة بوصفه قضاء وقدر لا مفر منه ولا سبيل إلى تغييره لأنه واقع بيولوجي .

٢. كانت هذه النظرية بالإضافة إلى نظريات أخرى (الصراع) والنظريات التي تبرر (التخلف) الحضاري والسيكولوجي والاجتماعي التي زيفها علماء ألمانيا النازية كانت أحد الأسباب في قيام الحرب العالمية الثانية .

رابعا : أثبتت النظرية فشلا فيما تشير إليه من انتقادها للإجراءات العملية القابلة للتصفية أو الممارسة .

تحليل أسس تقويم النظرية الإجتماعية

يقودنا التحليل المنهجي للنظرية الاجتماعية إلى التعرف على جوانب أسس التقويم السابق تحديدها وتحليلها على النحو التالي :

أولا : تحليل الفروض أو المسلمات الأساسية التي تدور حولها النظرية :

١. وهي المحاور الأساسية التي تدور حولها النظرية لإثبات صدقها أو نفيها وتدور حولها المناقشات وتساعد إليها الأدلة .
٢. وقد تكون هذه الأفكار (الفرضية) واضحة في مفاهيمها ومضمونها ، وقد تكون غامضة غائمة كامنة وتحتاج إلى بذل جهد لاستنتاجها .
٣. عادة ما تعكس هذه الأفكار الأيديولوجيا أو الإنجازات الاجتماعية أو السياسية .

وقد صنف جوبيرج الفروض الأساسية Basic Assumptions إلى خمس فئات رئيسية :

١. الفروض الخاصة بطبيعة الواقع الاجتماعي Social Reality
٢. الفروض الخاصة بطبيعة الإنسان وقدراته Man and his Potentiality
٣. الفروض الخاصة بعلاقة الباحث بالظواهر التي يدرسها
٤. الفروض الخاصة بمستوى النظرية Level of Theory
٥. الفروض الخاصة بالتغيرات السببية أو التفسيرية Causal or Explanatory Variables .

وتتناول كل فئة بالتحليل على النحو التالي :

أولا – الفروض الخاصة بطبيعة الواقع الإجتماعي :

وتعتبر من أهم موجهات النظرية الإجتماعية ويمكن أن يتم على أحد الأبعاد الآتية :

أ. بعد التغير أو الثبات .
ب. بعد التكامل أو الصراع .

ج. بعد المادية أو المثالية .

د. بعد وحدة الملاحظة والتحليل الأساسية (الفرد أو الجماعة)

ونتناول بالتحليل كل واحد من هذه الأبعاد على النحو التالي :

أ- التغير والثبات :

ويرتبط بهذا البعد افتراضات متعارضة فيما يتعلق بقدرة الإنسان على سيطرته على بيئته . لذلك يفترض أصحاب إتجاه الثبات أن الإنسان لا يفعل أكثر من أن يستجيب لبيئته للنظام القائم (يتكيف أو يتلاءم معه) أما أصحاب إتجاه التغير فيسلمون أن في وسع الإنسان أن يغير دائما من بيئته .

ب- التكامل والصراع :

ويرتبط بهذا البعد إفتراضات متعارضة مما يتعلق بفكرة الصراع الدائم في الحياة أو الإنسان والتعاون وتجنب الثورات الإجتماعية ويتبع أصحاب الإتجاه الصراعي المنهجي الجدلي وأصحاب الإتجاه التعامل التكامل منهج التحليل السوسيولوجي الذي بني على فكرة التوازن وتذويب الصراعات وشتى فروضهم على هذا الأساس .

ج- المادية والمثالية :

بعض علماء الإجتماع في مجال الأيكولوجيا البشرية يعتبرون الأساس المادي هو التكنولوجيا والبيئة والسكان بينما يسلم المثاليون على القيم والمعايير والسلوك والفعل الإجتماعي (نسق المفهومات) وهناك فريق ثالث يبني فكرة الثنائية أي المثالية والمادية (الظاهراتية) .

د- الإفتراضات الخاصة بالوحدة الأساسية للدراسة (الفرد - الجماعة)

1. فبينما يرفض البعض فكرة النسق العام كوحدة أساسية للتحليل وعلى أساس أن النسق ليس أكثر من مجرد مجموع أجزاء)

2. نجد من يؤيد هذه الفكرة ويبني تحليلاته على أساسها

ثانيا : الفروض الخاصة بطبيعة الإنسان وقدراته :

وترتبط هذه الفروض بالفروض الخاصة بطبيعة الواقع الإجتماعي والإنسان ابن البيئة .

ثالثا : الفروض الخاصة بعلاقات العالم أو الباحث بالظاهرة المدروسة أو مجتمع البحث . وهي تتشكل من الدراسة الوصفية التي يجريها لمجتمعه والمنهج التاريخي الذي استند إليه في الوقوف على تطور الظاهرة .

رابعا : الفروض الخاصة بمستوى النظرية :

وما إذا كانت النظرية المتبناة نابعة من أي إتجاه نظري Grand theory أو Middle range theory أو استندت إلى أحد النظريات العاملية Factors (إقتصادية تكنولوجية - ثقافية ... الخ) . في تفسير الواقع الإجتماعي أو الظواهر المدروسة .

خامسا : فروض السببية والتفسير:

وهي التي تستند إلى المتغيرات التاريخية أو الإقتصادية أو التكنولوجية أو القيم الثقافية أو القوة الإجتماعية باعتبارها متغيرات مستقلة أو تابعة في عمليات التغير الإجتماعي أو الظاهرة المدروسة .

.جاهات النظرية والواقع الإجتماعي :

1. يستهدف عالم الإجتماع تفهم الواقع الإجتماعي وتفسيره من خلال نظرية سوسيولوجية تعتمد في بنائها على نتائج الدراسة

الأمبيريقية لهذا الواقع الذي يشمل كل ما أنتجه فكر الإنسان من قواعد للتنظيم ، وثقافة تعكس صورة ذلك الواقع في مخيلته وموقفه منه ، ويرى رايت ميلز أن الخيال السوسيولوجي أكثر أشكال إدراك الذات خصوبة لأنه يعبر عن قدرة الفرد على إدراك موقعه ووضعه في السياق التاريخي في الفترة الزمنية التي يعيشها ، وهو إدراك أعمق وأوسع من مجرد إدراك الشخص لوجوده أو لواقعه الإجتماعي .

٢. إن الجهود السوسيولوجية قد اتجهت حتى الآن اتجاهات ثلاثة هي :

أ. الإتجاه نحو بناء نظرية تتناول تاريخ الإنسان مثل بداية علم الإجتماع من خلال كتابات كونت وماركس وسبنسر وماكس فيبر كنوع من المعرفة التي تستهدف دراسة الحياة الإجتماعية للإنسان دراسة كلية وهذا الإتجاه يتميز بمنهجيته وبموقفه التاريخي حيث ينشد التوصل إلى تحديد مراحل تطور الإنسان وحياته الإجتماعية اعتمادا على البيانات التاريخية .

ب. الإتجاه نحو نظرية منهجية لطبيعة الإنسان والمجتمع الذي يبدو واضحاً في كتابات زيمل وفون فيزي وتقوم نظرية هذا الإتجاه على تصوّر مجرد وثابت لمكونات البناء الإجتماعي ، ولكنها غالت في محاولة الوقوف في وجه الإتجاه السابق :

ج. الإتجاه نحو دراسة الوقائع والمشاكل الإجتماعية المعاصرة دراسة إمبيريقية من خلال النظر إلى الإجتماع على أنه دراسة لقطاعات معينة من المجتمع وقد أجريت بالفعل دراسات تناولت الأسرة والمدن والجماعات الصغيرة ولكن هذا الإتجاه يتدهور هو الآخر في بعض الأحيان إلى الحد الذي يصبح فيه نوعاً من تجميع الوقائع التي لا تصلها أية صلة .

٣. عالج بارسونز في كتب ومقالات عديدة موقف النظرية في علم الإجتماع فتناول إتجاهها وبرنامج تطورها المتوقع للسنوات القادمة ، ومن أجل هذا وضع بارسونز مجموعة من القضايا تمثل في رأيه الأساسي لأي تناول منهجي للنظرية ، فالنظرية ذات أهمية جوهرية لأي علم والنسق النظري في علم الإجتماع ينبغي أن يكون أوسع منه في أي علم من العلوم الإجتماعية .

ومع أن تصور علم الإجتماع على أنه المعرفة الانسيكلوبيدية للسلوك الإجتماعي لم يعد مقبولا ، إلا أن الضرورة ملحة في قيام إطار نظري يربط علم الإجتماع بالعلوم الأخرى ، كما أن النظرية في علم الإجتماع ينبغي أن تكون بنائية وظيفية وذلك بالرغم من أن النسق النظري الأمثل في هذا المجال هو الديناميكي التحليلي ، ولكن تحقيقه أمر غير ميسور حاليا سواء في شكل نسق نظري أو في شكل أداة مفيدة في التحليلات الإمبيريقية على النطاق الواسع ومن أهم ميزات النظرية البنائية الوظيفية أنها تجعل من الممكن تبسيط المشاكل الديناميكية وهنا يتعين صياغة النظرية في إطار ما يمكن تسميته « الفعل » باعتباره إطارا مرجعيا ، إذ يمكن للنظرية أن تكون سلوكية بمعنى فتستبعد الرجوع إلى وجهة نظر الفرد ذاته ، وتلك المسلمة مهمة لربط النظرية بمقولات الدافعية السائدة في علم النفس الحديث التي تتعلق بالمشاعر والإتجاهات والأهداف ، كما ينبغي للنظرية أن تتضمن مقولات تسمح باستنتاج القيمة الإمبيريقية للمتغيرات من إجراءات الملاحظة مباشرة بمعنى أن تخدم المقولات النظرية البحث الإمبيريقي ، وألا يكون الجانب النظري منعزلا عن الجانب العلمي في الدراسة السوسيولوجية ، وبناء على ما تقدم قسم بارسونز النظرية السوسيولوجية إلى خمسة أقسام :

١-دراسة التمايز البنائي وتكامل الأشكال النظامية دراسة منهجية على أساس مقارن وهذا لا يعني الدراسة المورفولوجية أو الصورية لها فحسب وإنما يتضمن في نفس الوقت التحليل النظري لعلاقة البناء والمتغيرات البنائية بالمتطلبات الوظيفية .

٢-نظرية العلاقة الدينامية بين النظم والثقافة ، وهـــذه نقطـــة الإلتقاء بين علم الإجتماع والأنثروبولوجيا .

٣-نظرية تحليل السلوك النظامي ، وهي التي ترتكز على مفـــهوم الدور كما تعني بعمليـــة التطبيـــع ومـــا يســـمى بالشـــخصية الأساسية .

٤-نظرية تحليل السلوك المنحرف والضبط الإجتمـــاعي وتعنـــي بدراسة مصادر تبرير السلوك المنحـــرف وعلاقتـــه بالنظـــام الإجتماعي .

٥-النظرية الدينامية لتغيير النظم ، أي أن هـــذه النظريـــة تمثـــل مركبا مكونا من سائر الفروع الأخرى للنسق النظري بأكمله .

وهكذا تقدم النظرية السوسيولوجية – فـــي رأي بارســـونز – إطارا تصوريا للعلوم الإجتماعية يمكن من خلاله فهم علاقـــة علم الإجتماع بهذه العلوم – وجدير بالملاحظـــة أن بارســـونز يقرر أنه لم يهدف مما كتب تقديم نسق نظري وإنمـــا حـــاول تقديم برنامج لتطور النظرية كما يتصوره هو .

أسباب قصور النظرية السوسيولوجية المعاصرة :

١- إن التاريخ بالنسبة لعلماء الإجتماع الغربيين هو تاريخ ذاتي أو سير ذاتيـة ومع أن الإنسان العادي قد يستطيع من خلال حسه البسيط إدراك العلاقـة التاريخية بين الأحداث السياسية فإن عالم الإجتمـاع لا يسـتخدم خيالـه السوسيولوجي للربط بين الوقائع التاريخية ببساطة لأنه يحرص على منح مهمته السوسيولوجية طابعا فنيا دقيقا متخصصا مما يخلـق بينـه وبيـن المثقفين الآخرين حاجز قويا ، وقد يكون من المفيد الاستشـهاد بـالتراث السوسيولوجي في مجال الطبقة الإجتماعية ، إذ نجد معظـم الدراسـات السوسيولوجية التي تتناول التدرج الإجتماعي تنطلق من تلك المسـلمات التي تتضمنها النظرية البنائية الوظيفية ، ولقد ترتب على أغفـال البعـد التاريخ في النظرية السوســيولوجية أن تقـع فـي أخطـاء التفسـيرات السيكولوجية التي تدرس أفراد المجتمع في علاقتهم بالبيئـة أكـثر مـن علاقتهم بالنسق الإجتماعي .

٢- إن معظم الدراسات والبحوث التي تجـــري فـــي علـــم الإجتمـــاع الأمريكي تمولها روابط رجال الأعمال مما يترتب عليه توظيـــف علـــم الإجتماع لخدمة أغراض خاصة وعلى الرغم من أن نتائج البحث تكـــون متاحة للجميع من الناحية النظرية إلا أنها من الناحية العملية تصبح متاحة للهيئة الخاصة التي لديها إمكانيات مالية أكـــثر ، أي أن علـــم الإجتمـــاع والنظرية الإجتماعية أصبحت تخدم أهداف الصفوة مما أدى بدوره إلـــى تحول واضح في موضوع الدراسة إذ أن كثير من مجالات البحث في هذا العلم كالنظرية السوسيولوجية وتاريخ علم الإجتماع وعلم الإجتماع الديني وعلم إجتماع المعرفة أخذت تحظى بإهتمام ضئيل جدا .

٣- أغفلت الدراسات الإجتماعية الغربية القيم الإجتماعيـــة التـــي تســـتعصي بطبيعتها على الدراسة الكمية وأزاء هذا الموقف اضطر بعـــض علمـــاء الإجتماع الغربيين إلى تجاهل موضوع القيـــم الإجتماعيـــة وهنـــا يبـــدو المجتمع في نظرهم وكأنه وحده واحدة يؤمـــن أفرادهـــا بقيـــم مشـــتركة وأهداف عامة واحدة ولقد وصل الأمر بالبعض أمثال « لندبـرج » إلـى حد القول بأن « اختلاف آراء أفراد المجتمع حول القيم يمثل هوة اجتماعية لا مبرر لوجودها ذلك أن تقدم أساليب البحث الإجتماعي سوف يساعد الناس على تحقيق القيم والأهداف التي يومنون بها بشكل فعال » ولقد ظهر إتجاه عام للفصل بين الواقع والقيمة في الثلاثينات وتطور هذا الإتجاه حتى أصبح قانونـا صريحـا يقـــرر أن العلـم متحـــرر مـن القيمـــة ومحـايد مـن الناحيـة السياسية .

٤- إن أحد النتائج المترتبة على ضيق نطاق التحليلات السوسيولوجية الغربية المعاصرة تجاهل المشكلات والقضايا العامـــة التـــي تواجـــه مجتمعاتنـــا المعاصرة ، فلم يستطيع علماء الإجتماع المحدثين فهم تخلف دول العـــالم الثالث بنفس النجاح الذي حققه علماء الإجتماع في القرن التاســـع عشـــر عندما حاولوا فهم أسباب النمو الرأسمالي الغربي ومثال علـــى ذلـــك أن أشهر الدوريات السوسيولوجية المتخصصة تكـــاد تخلـــو مـــن التنميـــة الإقتصادية والإجتماعية في دول العالم الثالث والمذاهب الفكرية الجديـــدة وتأثير النمو الصناعي على البناء الإجتماعي وقضية الصـــراع الدولـــي فدراسة مثل هذه المشكلات هي من صميم مهمة عالم الإجتماع المعـــاصر الذي يجب أن يتجه نحو صياغة نظرية إجتماعية قادرة على توليد حلـــول إجتماعية للمشكلات الإنسانية ومن الضروري أن تعتمد هذه الدراسة على منظور تاريخي بنائي يأخذ في إعتبار الظروف التاريخية .

٥- أن علماء الإجتماع المعاصرين لا يبدون إهتماما يذكر بأهم التطورات التي شهدها العالم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية كالاستقلال السياسي لدول العالم الثالث والحروب الإقليمية والحركات الإجتماعية والسياسية والإنقلابات العسكرية وسباق التسلح بين الدول المتقدمة والنامية على السواء ومثال على ذلك نجد أن نظرية الصراع في علم الإجتماع الغربي لا تأخذ في اعتبارها الثورات القومية والحروب الاقليمية والصراعات الطائفية المنتشرة في مناطق مختلفة من العالم .

وبهذا نستخلص مما سبق أن علم الإجتماع الغربي المعاصر لا يخلو من نزعة عنصرية واضحة وذلك أن نظرياته ومفاهيمه تكاد تعبر فقط عن خبرة المجتمعات الغربية وحدها ومعنى هذا أن النظريات والمفاهيم لا تتمتع بالصدق إذا ما حاولنا تطبيقها على مجتمعات وثقافات غير غربية .

أثر النظرية على البحث :

تؤثر النظرية السوسيولوجية في البحث من عدة وجوه ، إذ تعمل النظرية على توجيه

دوائر البحث نحو الموضوعات المثمرة ، وتضفي المغزى والدلالة على النتائج ، كما تساعد توجيهاتها وتعميماتها ومفاهيمها على تنمية وتطوير البحث من ناحية أخرى .

١. توجيه النظرية للبحث نحو الموضوعات المثمرة :

تحدد النظرية مسار وإتجاه البحث وتوجهه نحو تناول الموضوعات التي يحتمل أن تكون أكثر ثمارا ، والمثال البارز في تراث علم الإجتماع الذي يوضح هذه الوظيفة الأساسية للنظرية بالنسبة لبحث يمكن أن نستمده من نظرية (كوهن) (١٩٥٥) التي قدمها لتفسير تكوين الثقافة الفرعية الإنحرافية في بعض قطاعات المجتمع الأمريكي ، تلك النظرية التي أقامها على نتائج البحوث السابقة حول السلوك الإنحرافي وعلى خبراته الخاصة بسلوك العصابات والجانحين .

٢. **تضفي النظرية على نتائج البحث دلالة ومغزى :**

تعمل النظرية على تسهيل إدراك النتائج التي يصل إليها البحث بإعتبارها جزء من قضية بالغة التجريد ، أكثر منها أجزاء منعزلة ، فإذا كانت البحوث الإحصائية توصلنا إلى نتيجة مؤداها أن عصابات الجانحين تشيع بنسبة أكبر بين أحياء الطبقة العاملة عنه بين أحياء الطبقة المتوسطة فإن هذه النتيجة في حد ذاتها لا تضيف الكثير إلى فهمنا للسلوك الإنحرافي غير أن النظر إلى العصابات بإعتبارها تمثل ميلا عاما لمجموعة من الأفراد تواجه مشكلات مشتركة وتحاول التوصل إلى حلول مشتركة لها ، يساعد على إدراك مغزى الإرتباط بين عصابات الجانحين واحياء الطبقة العاملة ، ويضفي على هذه النتيجة دلالة واضحة كما أن ربط هذه النتيجة بمفهوم أكثر عمومية مثل هذا يمدنا بأساس آخر يساعدنا على التنبؤ بحدوث هذه الظاهرة أو تغيرها في المستقبل إلى حد نطمئن إليه أكثر من مجرد الإعتماد على النتائج في حد ذاتها .

٣. **تنطوي النظرية على توجيهات عامة تمدنا بالسياق الذي يجري البحث في نطاقه:**

إذ تشتمل مثل هذه التوجيهات على المسلمات المتعلقة بنماذج المتغيرات التي يجب أن تأخذ في الإعتبار ، أكثر مما تشير إلى العلاقات القائمة بين هذه المتغيرات ، ومن أمثلة هذه التوجيهات ما ذهب إليه دوركايم قائلا : أنه يجب البحث عن سبب الحقيقة الإجتماعية بين الحقائق الإجتماعية الأخرى التي تسبقها ، وأن المعايير المغروسة هي العامل الإجتماعي الذي يوجه السلوك ، وكذلك التوجيه الذي أوضحه (زنانيكي وسوروكين) وغيرهما ، والذي ينظران فيه إلى المجتمع بإعتباره نسقا متكاملا يتكون من أجزاء متساوية وظيفيا ومترابطة فيما بينها ، ومن أبرز الأمثلة على دور التوجيهات النظرية في توفير سياق للبحث ، محاول (مالينوفسكي) في إعادة إختبار الفرض الفرويدي المتعلق بعقدة أوديب وذلك في ضوء التوجيه السوسيولوجي الذي يعتبر أن تكوين العاطفة أمرا يتأثر بالبناء الإجتماعي ، ولقد ساعده هذا التوجيه على الكشف عن حقيقة هذه العقدة السيكولوجية في علاقاتها بنسق علاقات المكانة في مجتمع بدائي يختلف في بنائه عن ذلك المجتمع الأوروبي الغربي وذلك من خلال الإفادة من مجموعة من الفروض غير الناجحة عن هذا التوجيه وإن كانت كلها تتفق معه ، حيث يسهل هذا التوجيه عملية تدفق الفروض الواحد تلو الآخر في تعاقب مستمر والتي أثمر اختبارها في البحث عن حقائق سوسيولوجية .

٤ . توجه مفاهيم النظرية وتصوراتها عملية جمع وتحليل معطيات البحث:

هناك إعتقاد خاطئ بأن النظرية تتكون من مجموعة مفاهيم ، غير أن عملية صياغة المفاهيم والتحليل التصوري ليست إلا جانبا جوهريا في أي عمل نظري إذن ليست مجموعة مفاهيم المكانة والدور والمجتمع المحلي والتفاعل الإجتماعي والمسافة الإجتماعية والأنومي ، إلا جزءا في بناء نسق النظرية ، يضاف إلى الأوصاف التي يجب ملاحظتها والمتغيرات التي ينبغي أن يتناولها البحث والقضايا المرتبطة منطقيا فيما بينها ، وعند هذا الحد تبدوا النظرية قد استكملت بناؤها ، ويعتبر اختيار المفاهيم بطريقة تساعد على التوصل إلى العلاقات وتحديدها بوضوح أمرا حاسما بالنسبة للبحث ، لأنها توجه عملية جمع وتحليل المعطيات بدقة وإحكام ومن ثم تقلل من إحتمالات خطأ النتائج الامبيريقية التي تتجمع في ضوء هذه المفاهيم – وتعتبر محاولة (سذرلاند) لإعادة النظر في المفهوم الدارج للجريمة مثالا بناء على الكيفية التي يحدث بها لتوضيح المفهوم .

فعندما أخذ (سذرلاند) يجري عملية مراجعة لنظريات علم الإجرام التي تشير إلى وجود معدل عال للجريمة بين الطبقات الدنيا يفوق نظيره بين الطبقات العليا ، والتي توصلت إلى هذه الحقيقة استنادا إلى بيانات الجريمة الرسمية التي تم جمعها في ضوء مفهوم إجرامي معين للجريمة والتي أدت إلى سلسلة من الفروض التي تعتبر حالة الفقر وظروف التخلف والضعف العقلي وغيرها من السمات ذات الإرتباط العالي بالمكانة الطبقية الدنيا ، تعتبر من بين العوامل الهامة للسلوك الإجرامي ، استطاع عندئذ أن يكشف عن الغموض والخطأ الذي تنطوي عليه هذه النظريات ولقد بدأ مراجعته لهذه النظريات من مفهوم الجريمة نفسه الذي حاول توسيع نطاقه ليشمل مخالفات القانون الجنائي التي تظهر بين ذوي الياقات البيضاء ورجال الأعمال والإدارة ، تلك المخالفات التي تختفي من الإحصائيات الجنائية الرسمية بمقارنتها بغيرها من مخالفات أعضاء الطبقة الدنيا ، وفي ضوء هذا المفهوم الجديد يتوقع إختفاء الإرتباط العالي بين الجريمة والمكانة الإجتماعية الدنيا لأن (سذرلاند) عندما أجرى توضيحا تصوريا جديدا لمفهوم الجريمة ، حاول إعادة بناء البيانات عن طريق الإشارة إلى ما تنطوي عليه وما تستبعده ، بوساطة الشك في المسلمات التي يستند إليها التحديد الإمبيريقي للجريمة والتي مفادها أنه يتم تسجيل مخالفات القانون الجنائي التي يرتكبها أعضاء الطبقات الإجتماعية العديدة بطريقة واحدة في الإحصائيات الجنائية وهكذا تؤثر مفاهيم النظرية وتصوراتها من ناحية

أخرى في حل التناقضات الملاحظة بين النتائج وذلك عن طريق أن هذه التناقضات مظهرية أكثر منها تناقضات حقيقية لأن المفاهيم التي لاتصاغ بوضوح كاف والتي تشتمل على عناصر متباينة للغاية ، توصلنا إلى بيانات تختلف جزئيا فيما بينها ، ومن ثم يظهر التناقض بحدة إلى درجة لا يمكن التقليل من شأنها إلا عن طريق إعادة توضيح المفاهيم بشكل مناسب ، وهذا طالما أن المفاهيم هي التي توجه فكر الباحث وسلوكه وإدراكاته ، كما تحدد الموقف الذي يستجيب له وعموما يساعد التحليل التصوري الصريح على معرفة إلى أي شيئ يستجيب وأي العناصر يتجاهلها .

الامبيريقية والنظرية الإجتماعية :

إن الامبيريقية ، أيدولوجية إجتماعية ، وليست مجرد منهج للبحث في علم الإجتماع ، فلقد وجهت الدراسات العليا والبحوث في جامعات أمريكا وجهة خاصة تؤكد الإتجاه الامبيريقي ، حيث يسيطر الأساتذة سيطرة كاملة ومباشرة على الخريجين ، ويلقن طلاب الدراسات العليا طريقة معينة في التفكير تؤكد لهم أن الأصالة هي وضع مشكلة أو القدرة على إكتشاف جانب معين منها ، وأن الكفاءة هي في جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات الجديدة والموثقة حولها وأن الصلاحية تتحقق بالعمل في فريق بحث متكامل ، كما يتعين على الباحث أن يبذل جهدا مرضيا في فحص الأدلة وإستكمال البحث والحصول على معرفة منظمة بالمشكلة ، وعليه أيضا أن ينمي احترامه للواقعية والإهتمام بالمناقشات والقضايا التي تنحصر داخل حدود واضحة المعالم ، أي أن هذا الإتجاه يتلخص في عملية حشد الطاقات ، من أجل العمل في مجالات تتوافر عنها المعلومات ، وبالتالي يتجنب البحث في مشاكل وموضوعات تعوزها الأدلة ، وتفتقر إلى معلومات مؤكدة في معظم الأحيان .

وقد تفسر نشأة الامبيريقية في علم الإجتماع الأمريكي من خلال توضيح مخاطر الإنزلاق في فهم علم الإجتماع ونظريته بطريقة أخرى غيرها ، لذلك يتحدث أصحاب هذا الإتجاه عن الأمبيريقية كرد فعل للمذهب التاريخي ، كما أن البعض يقدمون تفسيرا يستند إلى ما يسود العلوم الإجتماعية بوجه عام من إتجاه علماني واهتمام بمسائل علمانية ، وقد يعرض البعض الأخر وجهة نظر خاطئة مؤداها أن الإمبيريقية السوسيولوجية تتوافق مع روح العصر ومع طابعه التحليلي ، وأخيرا يؤكد البعض أن الأمبيريقية هي أفضل الطرق للحصول على نتائج واقعية مستقلة عن الدعاوي الأيديولوجية والإعتبارات القيمية .

ويرى رايت ميلز أن أزمة علم الإجتماع الغربي ترجع إلى التصورات الخاطئة للمفهوم السوسيولوجي ، إن هذا المفهوم لا بد وأن يكون فكرة ذات مضمون إمبيريقي ، فإذا كان المضمون أكبر من الفكرة يتردى علم الإجتماع في التيار الأمبيريقي ، وإذا كانت الفكرة أوسع من المضمون فإن علم الإجتماع يقع في شرك النظريات الكبرى التي تحلق في عالم المجردات وميلز هنا ينتقد كلا الإتجاهين لتجريد الأمبيريقي من ناحية والإتجاهات النظريات الكبرى على تراكم النتائج المستنبطة من الدراسة الواقعية أجزاء النسق الإجتماعي أو دراسة الظاهرة الإجتماعية على أساس قصور المجتمع كنسق مترابط يضاف إلى ذلك أنه لا ينطلق من أي نظرية وإنما يبدأ بالاستقراء الدقيق للواقع ليتوصل في النهاية إلى صياغة بناء نظري وهذا أمر لا يتحقق لهذا الإتجاه خاصة وأنه لا يملك أي مبادئ نظرية يتم على أساسها إختيار موضوعات بحثه ، فهذا الإتجاه أصبح أداة لتبرير الأمر الواقع وسوف أوضح ذلك في الورقات القادمة .

ويرى ميلز أن أصحاب النظريات الكبرى يبتعدون عن الواقع تماما ويبحثون في أمور مجردة وعامة بدلا من البحث في المشكلات الإجتماعية داخل سياقها البنائي والتاريخ وقد غاب عن ذهن الكثير منهم أن الغرض من تعريف للمفهوم السوسيولوجي هو إكتشاف جوانب الواقع وليس وضع المفاهيم في قوالب بعيدة عن الواقع أو بعبارة أخرى ربط النظرية بالواقع بحيث تثري النظرية وأن أصحاب هذا الإتجاه لا يتجهون إلى دراسة البناء الإجتماعي دراسة واقعية بل يعملون على صياغة نماذج مثالية ولعل أوضح مثال ساقه ميلز إلينا هو موقف بارسونز من دراسة البناء الإجتماعي ، فبارسونز كما يقول قد أقام بصورة لعناصر البناء الإجتماعي على أنها تعمل تلقائيا من أجل تحقيق توازن البناء وذلك عن طريق أساليب التنشئة الإجتماعية والضبط الإجتماعي ، وهو هنا ينطلق من فكرة أشبه بفكرة النظام الطبيعي التي سادت في القرن الثامن عشر وسيطرت على الفكر الإجتماعي ، فلقد طور بارسونز نظريته الكبرى وحاول صياغة نسق من القيم المجردة التي تبرر الأمر الواقع طالما أنه لا يدرس النظم الإجتماعية ذاتها بل يسعى إلى إضفاء صفة المشروعية عليها ، ومن ثم عجز بارسونز عن أن يقدم نظرية كبرى تنطبق على كافة المجتمعات نظرا لإختلاف الظروف التاريخية والقوانين الإجتماعية التي تحكم حركة المجتمع وبهذا أصبحت محاولة هذا الإتجاه للتجريد وللتعميم ضربا من الخيال .

فإن ميلز يرى أن الإتجاه الامبيريقي يغرق في التفصيلات ويحاول إخضاع الحقيقة الإجتماعية للمعالجة المعملية والإحصائية ويجرد المشاكل

الإجتماعية عن صفتها السوسيولوجية ويفسرها بعوامل سيكولوجية بعيدا عن الأبعاد البنائية والتاريخية ، كما أن النظريات الكبرى تغفل جانب هام وهو البعد التاريخي فتعجز عن فهم حركة التاريخ مما يخلق أفكار مجردة لا تتمكن من دراسة المجتمع .

ويرى ميرتون أن مجال النظرية ومجال البحث الامبيريقي ليسا منفصلين فقد أيقن عالم النظرية والباحث الامبيريقي بضرورة التعاون بينهما ولكن الملاحظ أن معظم الكتابات تتجه إلى إبراز ما يجنيه البحث الامبيريقي من النظرية ، وربما كان ذلك ما دعا ميرتون إلى أن يكرس بعض الجهد لدراسة البحث الامبيريقي في تطوير النظرية السوسيولوجية .

تدور المناقشات عامة حول وظيفة واحدة معترف بها للبحث الأمبيريقي وهي إختبار صحة الفروض ولكن هذا ليس سوى تصور نظري يعجز عن وصف ما يحدث بالفعل إبان عملية البحث الامبيريقي كما أن للبحث الامبيريقي وظائف أخرى إيجابية غير تلك الوظيفة السلبية فهو يمثل نقطة انبثاق النظرية كما يعاون على إعادة صياغتها وتعديلها وتوضيحها ، ويتمتع البحث الامبيريقي بناحية معينة وهي إتاحة الفرصة لإجراء ملاحظات عديدة تتم بصورة عفوية مما يهدي العالم إلى إكتشاف علمي جديد هدفه أثناء بحثه يبعد كثيرا عن ميدان الإكتشاف الجديد ، وتمارس هذه الخصائص ضغطا على الباحث يدفعه إلى البحث عن نظرية جديدة تفسر الملاحظة أو تعديل النظرية القائمة ويرتبط عنصر الأهمية الإستراتيجية بقدرة الباحث على إكتشاف ما هو عام من خلال ما هو خاص ويتمثل هذا في إدراك فرويد لأهمية زلات اللسان والأخطاء الكتابية مما دعاه إلى صياغة نظرية ثورية تفسر في إطار تلك الأخطاء .

ولا تغفل الأثر الذي يتركه البحث الامبيريقي على النظرية وتغييره له بحيث تضغط المعطيات الجديدة من أجل إعادة صياغة الإطار التصوري وليس من الضروري أن تكون الملاحظات التي يجمعها الباحث غير سوية أو متعارضة مع النظرية السائدة لتمارس هذا الضغط ، بل قد تكون عبارة عن وقائع أغفلت أهميتها ، ومثال على ذلك يستمده ميرتون من نظرية مالينوفسكي أن عمليات الصيد غير المحفوفة بالمخاطر والتي تتم في البحار القريبة لم تكن تصاحبها أي طقوس سحرية بينما كان الصيد في أعالي البحار محاط بالشعائر والطقوس السحرية مما دعاه إلى إدخال تلك الملاحظة البسيطة في إعتباره عند صياغة نظريته حيث يرى أن للسحر وظيفة سيكولوجية تتمثل في تخفيف القلق والتوتر لدى الإنسان ومعاونته على جعل الأساليب العملية أكثر فعالية ومن الواضح أن ملاحظة

مالينوفسكي لم تكن تتعارض مع أي من النظريات السابقة ، وكل مـــا في الأمر أن إطاراتها التصورية كانت تغفل ما لتلك الملاحظة من أهميـــة ينبغي أخذها في الاعتبار ، وهناك وظيفة ثالثة لها أثر على توجيه النظرية نحو مراكز جديدة جديرة بإهتمامها بمعنى أن للبحث الامبـــيريقي دور لا ينكر في تطوير النظرية فالبحث الامبيريقي هو الذي يدفع بالنظرية إلــــى وجهة دون أخرى ومركز إهتمام دون آخر ومثال على ذلك نظرية تكويـــن الشخصية وكيف أن تطورها إرتبط بتطور الأساليب الإسقاطية مثل اختبار روشـــاخ واختبار تفهم الموضوع وإستخدام اللعب كوسيلة مـــن وســـائل التحليل ، كما ترتب على تطور الأســـاليب الإحصائيـــة وإعتمـــاد عـــالم الإجتماع على بيانات جمعت لأغراض ليست سوسيولوجية خالصة مثل أن اتجاه إهتمام النظرية إلى دراسة العلاقات القائمة بين الأشخاص وربما كان أبرز أثر لتطور أساليب البحث الامبيريقي هو توفر إحصاءات تم جمعـــها بتوجيه من مقولات علم الاجتماع الوثيقة الصلة بالنظرية السوســـيولوجية بالضرورة مما كان يجعلها لا تسهم الإسهام الكامل في خلق النسق النظري ، ولكـــن ذلـــك لا يعني أن عملية تجميع البيـــانات الإحصائيـــة في حد ذاتها تدفـــع بالنظرية الى الأمـــام وإنمـــا ذلـــك يعنـــي أن إهتمـــام النظريـــة عـــادة ما يتجـــه نحـــو القطـــاعات التـــي تتـــوفـــر بشـــأنها البيـــانات الإحصـــائيـــة ، أما الوظيفة الرابعة للإمبيريقية تتمثـــل في توضيح المفاهيم والمعروف أن جانب كبير من العمل الذي يســـتهدف صياغة النظرية يظهر في عملية توضيح المفاهيم ذلك لأن دراسة العلاقـــة بين متغيرين أو أكثر دون الوقوف على طبيعة المتغيرين إنما تثري أساليب البحث دون النظرية ، وفي النهاية يقرر ميرتون أنه لم يعرض سوى أربع وظائف للبحث الامبيريقي وإنما كان الهدف مـــن محاولتـــه توضيـــح أن النظرية ليست بالضرورة الضوء الكاشف الموجه للبحث الإمبيريقي .

القواعد المنهجية لصوغ النظرية :

بعد أن تناولنا صور الإستخدام المنهجي للنظرية ، مستندين في ذلك إلى معنى النظرية من وجهة نظر بنائية وظيفية ، تتناول القواعد المنهجية لصوغ النظرية . وذلك من خلال الفروض التابعة من الإطار التصوري للتحليل المنهجي لمعاني النظرية ونطاقها ومستوى التعميم فيها ، ومقدار التكامل المنطقي بها .

والنظرية تعني صوغا صريحا لعلاقات تصورية بين مجموعة من المتغيرات ، يتم في ضوئها تفسير فئة من الإطرادات التي يمكن تحديدها تحديدا تجريبيا كما أشار كابلن .

Kaplan, A. the conduct of inquiry ١٩٦٤.

P.P. ٢٩٨. ٢٠٢.

أشار إيرنست نيجيل Nagel في مقاله الشهير مشكلات المفاهيم وصوغ النظرية في العلوم الإجتماعية

Problems of concepts and theory formation
in the social sciences in Natanson, M.
philosophy of the social sciences, ١٩٦٣.

p. ١٩٢.

والواقع أن تحديد القواعد المنهجية لصوغ النظرية في علم الإجتماع بكل ما تحويه النظرية من معان وما يتضمنه تفاوت معانيها من أسس عديدة ، أمر يصعب تحقيقه من غير أن تقنن القواعد المنهجية لبناء النظرية وصوغها .

ولهذا ينحصر تناولنا للقواعد المنهجية لصوغ النظرية علـــى هــذا المعنـــى ويشمل نطاق هذا التناول ، بناء النظرية – الصــور المنطقيــة للعلاقــات – والإتجاهات المختلفة نحو صياغتها .

أولا – <u>بناء النظرية :</u>

تتألف النظرية من مفهومات ، ومن قضايا أساسية تربــط بيــن هــذه المفهومات ومن النتــائج التي يمكن استخلاصها مــن هــذه القضايــا بواسطة الإستدلال المنطقي (١٤) .

والمفهومات حدود ، تشمل المقولات والأنماط التصورية وغير ذلـــك من البناءات التصورية التي تحدد موضوع النظريـــة أي أنـــها تحــدد الظواهر التي تتناولها النظرية ويبدو هذا التحديـــد الــذي تقــوم بــه المفهومات في مسلكين : المسلك ألأول تقوم فيه المفـــهومات بتحديــد المشاهدة بالنسبة للظواهر التي تتناولها النظرية ، والمسلك الثاني تقــوم فيه المفهومات بتحديد نظام تصنيفي يصور الخواص الرئيســية التــي تسمى وحدة المشاهدة .

ويطلق على المفهومات التي تستخدم في تنصيف وحــدات المشــاهدة استنادا إلى خواص هذه الوحدات اســم المتغــيرات وبعــد أن تحــدد المتغيرات ، تحدد العلاقات المنطقية التي يمكن أن تقوم بيـــن فئــات المتغيرات التي تحويها لغة النظرية ، ويصدق على التصنيف بمقتضى مفهومات النظرية ما يصدق على التصنيف العلمي بعامة ، إذ ينبغـــي أن يكون التصنيف جامعا بحيث تندرج تحته كل فئة يعبر عنها بمفهوم معين في النظرية وكل وحدات المشاهدة التي تحمل صفات الفئة ، وأن يكون التصنيف مانعا لا يسمح بإدراج وحـــدة بعينـــها مــن وحــدات المشاهدة في أكثر من فئة واحــدة . وعندما يتحقق ذلك الشرط ، فإن

في ذلك ما يتيح مشاهدة الظاهرة التي تتناولها النظرية مشاهدة منتظمة حيث تتحدد مسالك المشاهدة في ضوء مفهومات النظرية .

ثانيا : **الصور المنطقية للعلاقة بين المتغيرات** : (١٥)

وتحمل الصورة المنطقية للعلاقة بين المتغير المستقل والمتغير التابع في النظرية علاقة تبادلية في إتجاهها وهي متعددة الأشكال على النحو التالي :

- العلاقات المتبادلة في إتجاهها أو التي تسير في إتجاه واحد .
- العلاقات الحتمية أو العلاقات الإحتمالية .
- العلاقات المتزامنة أو المتتابعة تتابعا زمنيا .
- العلاقات الكافية وعلاقات التوافق .
- العلاقات الضرورية والعلاقات البديلة .
- العلاقات المتساندة التي تضم عددا من الصور المنطقية السابقة .

ثالثا : الأساليب المنهجية لصوغ النظرية :

تختلف الآراء في تحديد الأساليب المنهجية لصوغ النظرية ويستند هذا التفاوت في الرأي إلى تباين النظرة إلى الوضع المنطقي لكل من معطيات المشاهدة والمفهومات والإفتراضات في عملية صوغ النظرية ، ويتجاذب طرفي النزاع في الرأي أيضا الإتجاه الإستقرائي من ناحية وأنصار الإتجاه الإستنباطي من ناحية أخرى .

يميل أنصار الإتجاه الإستقرائي إلى الفلسفة الوضعية وفي ضوء هذه الفلسفة يتحدد الوضع المنطقي لكل من معطيات المشاهدة التجريبية ، والمفهومات ، والإفتراضات النظرية .

وبهذا الترتيب المنطقي تبدأ عملية صوغ النظرية بمشاهدة المعطيات عن الظاهرة التي تتناولها ، ثم تصنف هذه المعطيات بعد ذلك في مقولات وفئات مناسبة ، ثم تقاس الإرتباطات التجريبية بين هذه الفئات وهنا تعني النظرية الإستقرائية حكما يشير إلى إطرادات تجريبية بين المتغيرات المشاهدة ، كما تتألف في مضمونها من مجموعة من الحقائق الوصفية ومجموعة أخرى من التعميمات التي تربط هذه الحقائق الوصفية في صور منتظمة .

أما أنصار الإتجاه الاستنباطي ، فالنظرية عندهم مجموعة من القوانين المترابطة استنباطيا لتشكل نسقا . ووحدة هذا النسق النظري المفهومات العامة المتساندة منطقيا . وهنا يصبح النسق النظري إطارا تصوريا يحوي مجموعة من المفهومات المترابطة في معناها ، فالنظرية هنا من خلف التصور ، واستخدامها استخدام استرشادي بمعنى أنها تقدم أمام الباحث إطارا عاما من المقولات التي تحدد مسلك المشاهدة في البحث التجريبي ، والتي تجعل لنتائجها معنى .

والواقع أن الأساس الذي استند إليه الإتجاهان السابقان في تحديدهما للإجراءات المنهجية لصوغ النظرية جمع بين مادة الإدراك الحسي ومادة التفكير العقلي ، وجمعا بين البحث التجريبي والتفكير النظري رغم الثنائية التي تفصل بينهما إلا أن قيام التساند الوظيفي بينهما يفيدنا في صوغ النظرية .

الفصل الثاني

القواعد المنهجية لصوغ النظرية

أولا : بناء النظرية

ثانيا : الصور المنطقية للعلاقة بين المتغيرات

ثالثا : الأساليب المنهجية لصوغ النظرية

رابعا: مستويات تطبيق مقولات النظرية

خامسا: المتطلبات البنائية للنظرية



ولا يستدل على التساند الوظيفي بين مادة الإدراك الحسي والتصـــور العقلي من ذلك فحسب ، بل أن كلا من القضايا الوصفيـــة والقضايـــا التفسيرية ، تعكسان هذا التآزر ، لأن كليهما إنتاج التساند الوظيفي بين الأداء المنهجي للمشاهدات التجريبية والتصورات .

من هذا نصل إلى أن الكفاءة الوظيفية للنظريـــة تتمثـل فـــي الـــدور المنهجي الذي تقوم به هذه النظرية في عمليـــة البحـــث الإجتمـــاعي التربوي في مراحلها المتتابعة والمتساندة ، فهي أساس لمرحلة التصور وهي الموجهة للمشاهدات في مرحلة التحقيق التجريبي ، وهي الإطـــار الذي ينظم النتائج التجريبية ويسبغ معناها في المرحلة التفسيرية فـــهي تقوم بوضع صورة تنظيمية للواقع الإجتماعي بعامة أو بظاهرة نوعيـــة من ظواهره ، وهي تشكل الإطـــار التصـــوري للمشـــاهدة الموجهـــة وللوصف الثـــابت للظواهر الإجتماعية ، وهي العون في الوصول إلى التفسيرات .

بيد أن تحقق الكفاءة الوظيفية للنظرية رهين بمبـــدأ التكامل الوظيفـــي للإجراءات المنهجية ، حتى أن أي خروج على هـــذا المبـــدأ يســـلب النظرية كفائتها الوظيفية . فهناك ضرورة لقيـــام التفكـــير النظـــري التصوري ، وما يشير إليه هذا التفكير من خطوات استدلالية تتدخل في المراحل المختلفة لعملية البحث .

فالتصورات النظرية لها وظيفتها ، ولكن نجاحها فـــي أداء وظيفتـــها رهين بتساندها في الأداء الوظيفي مع المشاهدات التجريبية .

فإذا كانت هذه التصورات توجه المشاهدة الحسية إلى السير في مسالك محددة ، وتنظم نتائجها في مفهومات ومقولات ، وتفسر حصادها لتدرأ عنه التشتت وتسبغ عليه النظام وتكسبه دلالـــة ومعنـــى ، فـــإن هـــذه

التصورات في حاجة ماسة إلى رجعة للواقع للكشف عن مدى إتفـــاق هذه التصورات مع ذلك الواقع ، ومدى احتوائها أو إغفالـــها لأبعـــاده الهامة . ولهذا فإن فصل مادة التفكير النظـــري عـــن مـــادة الإدراك الحســـي كان في ذلك مصدر ما تعانيه النظريات من قصور وخواء .

رابعا : **مستويات تطبيق مقولات النظرية (كمثال) في مجال التربية :**

١- تبحث التربية دائما عن إعداد الفرد وتأهيلـــه وتنظيمـــه عقليـــا ونفسيا وصحيا لكي يمارس دوره في الحياة الإجتماعية كذلـــك تسهم في التنمية الإجتماعية في تغيير النظام الإجتماعي المعوق للتفاعل الإجتماعي وذلك من خلال :

أ/ أما خلق وظائف جديدة للأفراد تساعدهم على دفع حركـة التنمية الإجتماعية وتحقيق أغراضها المستهدفة . وذلـك ما فعلته الصين مثلا في النظامين التربوي والثقافي .

ب/ تعديل الوظائف في النظام الـــتربوي لتحقيـق أهـداف المجتمع المتغير .

٢- الإعتماد على نماذج مستقاة من الواقع الإجتماعي المستمد مـــن فعاليات البيئة الطبيعية والإجتماعية ، فـــي صـــوغ القضايـــا الرئيسية المواجهة للتحديات ومشكلات الأفراد والجماعات .

٣- مواجهة التنمية البشرية لمطالب التنمية الإجتماعية والإقتصادية في كافة الأنساق الإجتماعية والبيئات (الريفية – الحضريـــة – الصحراوية – السواحلية) .

٤ - نظراً لصعوبة تحديد الحجم الأمثل للطاقة البشرية فإن تحديد نوعية هذه الطاقة لابد أن تمثل الأهمية الكبرى في النظرية التربوية العربية على كافة المستويات (المستوى الصحي - المستوى الجسمي والنفسي - المستوى السلوكي) لأفراد المجتمع وذلك من خلال ثلاث عناصر أساسية :

أ/ توظيف الموارد البشرية بتحويل أكبر حجم منها إلى قوة عاملة فعالة تؤدي وظيفتها في البناءات الإقتصادية والإجتماعية بالتحديد العلمي استثمار الموارد وتقدير القيم المجهولة بالقيم المعلومة لمضمونات التنمية .

ب/ الإتساق التربوي مع أهداف التنمية الإقتصادية والإجتماعية في مواجهة البطالة والآثار المترتبة عليها .

ج/ ربط النظام التعليمي والوضع الصحي بهيكل العمالة .

الفصل الثالث

أسس نقد النظرية الإجتماعية

يواجه الدارس للنظريات الإجتماعية موقف حتمي يتعين عليه فيه أن يقارن بين النظريات المتعددة التي يقدم كل منها تصويرا للواقع قد يخالف ذلك الذي يقدمه غيرها ... بالتالي سيجد تفسيرات مختلفة لنفس الظاهرة الإجتماعية الواحدة . إلا أن عملية المقارنة هذه تتطلب بالضرورة تقييما لكل منها على حدة . ويمكن إجمال أسس نقد للنظريات الإجتماعية في :

- الإهتمام بالأيديولوجية والمبادئ العامة التي تتركز عليها النظرية واستخلاص المسلمات والإفتراضات التي تدور حولها .

نقد الأطر النظرية والإتجاهات المنهجية

كان الشائع أن النظرية السوسيولوجية في مراحلها الكلاسيكية عبارة عن كل ماله صلة وثيقة بالتأمل والنظر، وأن ما هو نظري هو أمر غير واقعي، وهو من قبيل التصور، ذلك لأن نظريات العلم في مراحله المبكرة كانت في الغالب نتيجة للتأمل والنظر المكتبي ، والتي قد لا تجد تأكيدا لها في الوقائع الإمبيريقية . إلا أن النظرية المعاصرة مع نمو العلم والتطور أصبحت أكثر إرتباطا بالوقائع والملاحظات الإمبيريقية ، حيث أخذ الإتجاه الغالب الآن في مناهج البحث يعلق أهمية على صفة الإمبيريقية، ويجعل منها خاصية أساسية من الخصائص التي تميز النظرية العلمية، وذلك بناء على أن النظرية العلمية وما تثيره من قضايا وفروض لا بد أن تجد لها تأييدا من جانب الوقائع الإمبيريقية . فضلا عن ذلك فإن هناك خاصية أخرى ينبغي أن نذكرها للنظرية، هي أنها ليست صياغة استاتيكية أو نهائية، فإذا كانت النظرية تعتبر فيما مضى تفسيرا نهائيا، إلا أنها تعتبر اليوم قابلة للتغير مهما كانت كمية النتائج المترتبة والمتسقة معها، وبالرغم من أنها تعد من أكثر الأمور كفاية وإحتمالا في تفسير هذه النتائج على ضوء المعرفة الحاضرة بمعنى أن النظرية تمثل حالة مؤقتة قابلة للمراجعة باستمرار .

مفهوم الأطر النظرية :

الإطار النظري هو بناء عقلي يتكون من مجموعة من المفاهيم والمصطلحات المستخدمة إجرائيا في صياغة منطقية عن "التفكير" و"العقلانية" لقضايا ومسائل ذات علاقات موجبة أو سالبة ومتفقة أو متعارضة وتحمل في متضمناتها جانب السببية وجانب الوظيفية للحقيقة المجردة .

والإطار النظري طبقا لهذا الفهم هو ترتيب الأفكار والحقائق المتصلة بموضوع ما في عملية تأصيلية تستند إلى أعمال العقل والتفكير المنطقي في القياس والموازنة الموائمة بين الأسباب والوظائف للحقائق والظواهر والتقريرات والقوانين العلمية .

وقد شاع استخدام مفهوم الأطر النظرية في العلوم الإجتماعية كعملية أساسية تأصيلية يحدد بها الباحث طريقة تفكيره اعتمادا على الحقائق العلمية المجردة في موضوعية تخلو من الظن والتخمين الذي قد يثير الشك في النتائج .

لذلك فإن صوغ المفاهيم والأطر النظرية أساليب لا غنى عنها لأي باحث في تحديد مسارات وإتجاهات دراسته حيث أنها ذات أهمية عظمى في قيادة البحث، فالأصالة العلمية والقدرة المنهجية صفتان لا غنى عنهما لتوفير المنطقية والموضوعية في التقديرات اللازمة لحل المشكلات أو رسم السياسات أو تخطيط البرامج أو الوقوف على قضايا معينة . (٣ / ١٤١ – ١٤٢)

مفهوم الإتجاهات المنهجية :

كانت الإتجاهات المنهجية صاحبة الفضل الأكبر في خلق الحركة العلمية بين العلوم المختلفة وبين العلم والمجتمع .

والإتجاهات المنهجية من هذا المنطلق هي موجهات العمل العلمي، فإذا كانت الأطر النظرية – كما سبقت الإشارة – هي الأصالة العلمية لقضية ما، فإن الإتجاه المنهجي هو وسيلة التأصيل والتقنين والتفكير العلمي المنظم ، لذلك فإن الأصالة العلمية والإتجاه المنهجي صفتان لا غنى لأحدهما عن الآخر كما أن كلاهما ضرورتان لإسباغ صفة "العلمية" في البحوث والدراسات كذلك فإن الإتجاه المنهجي أعم وأشمل في البحوث

الإنسانية من مفهوم الطرق المنهجية. حيث أن الطريقة المنهجية لا تعدو عن كونها إجراءات جمع المادة العلمية والبيانات اللازمة حول الظاهرة المدروسة وإخضاعها وفق منهج مناسب كالمنهج الوصفي أو المنهج التاريخي أو المنهج التجريبي أو المنهج المقارن، بينما توظيف هذه البيانات والمعلومات لا يتم إلا في إطار إتجاه منهجي معين لا يخرج عن ثلاثة إتجاهات بحثية أساسية: إتجاه بحوث المدخلات إتجاه بحوث المخرجات، وإتجاه بحث العمليات . وهي متطلبات رئيسية لتخطيط البحث العلمي .

تصنيف الإتجاهات والأطر النظرية :

ويمكن تصنيف الكتابات التي تعرضت لماهية النظرية الإجتماعية في ثلاثة إتجاهات :

الإتجاه الأول : أهتم أصحابه ببين طبيعة النظرية في علم الإجتماع وتطورها .

الإتجاه الثاني : عالج أصحابه معنى النظرية في موضوع مناهج البحث في العلوم الإجتماعية والإستخدام المنهجي للنظرية .

الإتجاه الثالث : وقد عني أصحابه بتحديد المصطلحات والمفاهيم التي تلقي الضوء على معنى النظرية في الكتابات التي سادت في المدارس الفكرية المختلفة .

ومن أبرز أصحاب الإتجاه الأول "نيقولا تيماشيف" من مؤلفه الشهير "نظرية علم الإجتماع، طبيعتها وتطورها" [٢] إذ يوضح معنى النظرية من خلال عرضه المختصر لبناء أي علم أمبيريقي بغض النظر عن موضوع الدراسة الخاص به . والذي يذهب فيه إلى أنه إذا كانت الملاحظة هي أساس كل علم أمبيريقي ، وإنه يتم التعبير عن نتيجة الملاحظة الفردية في صورة قضية واحدة مؤداها أن هذه الظاهرة المحدودة موضوع الملاحظة قد حدثت في زمان معين ومكان معين وكانت مثل هذه القضية تعتبر بمثابة مطلبا ضروريا لأي علم ، إلا أن هذا النوع من القضايا ليس كافيا في حد ذاته لبناء نظرية العلم ، لأنه ينبغي أن تنظم الملاحظات الفردية ، وهناك أشكال عديدة ومتنوعة لتنظيم الملاحظات ، فقد تقارن الملاحظات الفردية من أجل التوصل إلى جوانب الشبه والإختلاف فيما بينها . أو قد تصنف هذه الملاحظات بمعنى أن تحدد أنماط تضم كل منها عددا من الملاحظات المتشابهة .. وقد تخضع الملاحظات الفردية للمعالجات

الإحصائية ، مثل التوزيع التكراري والتسلسل الزمني ومعاملات التوافق والإرتباط وغيرها . أو قد ترتب هذه الملاحظات في سياق نشوئي يوضح النمو التدريجي لعمليات معينة مع مقارنة كل هذه السياقات بالآخر من أجل الكشف عن أوجه الشبه والإختلاف فيما بينها .. ويضيف تيماشيف أنه يترتب على تنظيم الملاحظات بإستخدام واحد من أساليب التنظيم أو أشكاله السابقة ، ما يعرف بالتعميم الذي يوضع في شكل قوانين طبيعية أو إجتماعية حسب مجال الدراسة ، تمكن من التنبؤ بنتيجة محددة عندما تتوافر شروط معينة . ويوضح تيماشيف أن هناك إجراءات مطولة تساعد على صياغة مثل هذه القوانين . فالتعميم إذن لا يشير إلى واقعة في حد ذاتها وإنما يقوم بناء على وقائع كثيرة . بحيث تعتبر التعميمات في النهاية نتائج متعلقة بمجموعة من الظواهر ، وتنتمي المعرفة التي تعبر عنها التعميمات إلى مستوى أرقى من ذلك المستوى الذي تنتمي إليه المعرفة التي تعبر عنها قضايا فردية ، غير أن المعرفة المرتبطة بالتعميمات لا تمثل أرقى وأرفع ما يمكن أن يصل إليه العلم الإمبيريقي ، برغم ما تثيره التعميمات من ملاحظات أبعد مدى . لأن هناك ما يعرف "بالنظرية" التي تمثل أرفع هذه المستويات جميعا . ويخلص تيماشيف إلى أنه تنتهي الجهود المتراكمة والمتجمعة لرجال العلم الذين يتخصصون في فرع واحد من فروع المعرفة إلى صياغة مجموعة كبيرة من التعميمات التي تنتمي إلى نماذج متعددة ومختلفة ، وعند هذا الحد تظهر الحاجة إلى تجميع شتات النتائج المبعثرة وتوحيدها ولا تتحقق هذه الحاجة إلا "ببناء النظرية" .

وتمثل النظرية مجموعة من القضايا التي تتوافر فيها الشروط التالية :

أولا :ينبغي أن تكون المفهومات التي تعبر عنها القضايا محددة بدقة .

ثانيا : يجب أن تتسق القضايا بعضها مع البعض الآخر .

ثالثا : لا بد أن توضع القضايا في شكل يجعل من الممكن اشتقاق التعميمات اشتقاقا استنباطيا .

رابعا : ينبغي أن تكون هذه القضايا من النوع الخصيب والمثمر الذي يستكشف الطريق نحو ملاحظات أبعد مدى وتعميمات كطور من مجال المعرفة القائمة .

ولا يمكن أن نستقي النظرية من الملاحظات والتعميمات عن طريق استخدام وسائل الإستقراء المضبوطة والدقيقة فقط ، لأن بناء النظرية يعتبر عملا خلاقا ، وتحتاج إلى قفزة فيما وراء الأدلة وإحساس خفي خلاق لصياغتها ، غير أن النظرية مهما كان مصدرها لا بد وأن تخضع للتحقق وهي تعد صادقة ومحققة مبدئيا في حالة عدم وجود وقائع معروفة أو تعميم قائم يناقضها ، وإذا كان هناك ما يناقضها ، فالأمر يتطلب رفضها أو تعديلها على الأقل ، ويعتبر هذا النوع الأخير من الإختبار مجرد تحقيق مبدئي . إلا أنه قد توجد هناك أحيانا نظريتان أو أكثر تقومان بتفسير الوقائع أو التعميمات المعروفة الأمر الذي يجعلنا نلجأ في هذه الحالة إلى استخدام إجراء آخر يعرف بالتجربة الحاسمة أو الملاحظة الحاسمة .. بحيث يمكننا هذا الإجراء من تقرير أي النظريات تتطابق مع الواقع وتتفق معه . غير أن التحقق عن طريق الإجراء الأخير ليس نهائيا أيضا لأنه قد تكتشف فيما بعد وقائع أخرى ، أو قد تشتق تعميمات جديدة لا تتفق مع النظريات القائمة أو المعترف بها . ومعنى هذا كله أن النظرية في أي علم أمبيريقي ليست نهائية على الإطلاق .

وقد اهتم أصحاب الإتجاه الثاني بتحديد معنى النظرية في كتاباتهم عن مفاهيم البحث من العلوم الإجتماعية ومن أبرزهم كلير سيلتز Selltize التي أقتبست تعريف براثويت Braithwaite الذي يرى أن النظرية تشتمل على مجموعة من الفروض التي تكون نسقا استنباطيا .

والنظرية بهذا المعنى تعكس فكرة الإطار المرجعي الذي يتألف من عنصرين منسجمين ، عنصر يعكس نموذجا تصويريا لمجتمع يأتلف في نطاقه مجموعة من الإفتراضات التي تشير إلى طبيعة المجتمع ، وأبعاد الأساسية وعمليات ومسار حركته ، وعنصر يتناول القواعد المنهجية التي يسلم استخدمها إلى ما يكشف عن الإفتراضات التصويرية السابقة ، بحيث يتحقق نوع من التآلف بينهما (الإفتراضات التصويرية وبين القدرة الوظيفية لهذه القواعد المنهجية) على دراسة هذه الإفتراضات [٣] أي أن تخضع بمقتضاها كل الإتجاهات والقوى والنظم وأساليب الفكر وقواعد الأخلاق وكل نشاط والعوامل الأيديولوجية والأدوار والنظم والجماعات . والنظرية يجب بهذا أن تكون منهجية لا تقف عند مجرد صوغ نموذج تصوري للمجتمع يضم الإفتراضات التي أشرنا إليها بل لا بد أن تسير مستندة إلى هذه التصورات لتحدد لها منهجا في البحث

يستند إلى منطلق معين ، وإلى مقولات وإجراءات منهجية مجددة . تتـــلاءم مـــع هـــذه التصورات ، لتسير القواعد المنهجية لهذه النظرية مسيرا يواكـــب تصوراتـــها للواقـــع الإجتماعي .

أما أصحاب الإتجاه الثالث الذين اهتموا بتمرير المصطلحات والمفاهيم التي تلقى الضوء على معنى النظرية ، ومن أبرزهم العالمان روزنتال Rosenthal ويـــادين Yudin حيـــث ذهبا إلى أن النظرية تعتبر بمثابة نسق من المعرفة التعميمية وتفسير للجوانب المختلفـــة للواقع . وأنها ترتبط بأشياء ومصطلحات أخرى مع أنها تختلف عنـــها فـــي بعـــض الجوانب والوظائف ، فهي تختلف عن التطبيق والممارسة لأن جوهرها يـــهتم بإعـــادة صوغ الواقع صوغا عقليا ، وإذا كانت كل نظرية نسقا أو إطار فكريا فهي نسق معقد . إذا يمكن لنا أن نميز في النظريات الفيزيائية بين جزئين أو جـــانبين مكونـــان لـــها . الحسابات الصورية كالرياضيات والرموز المنطقية والقواعد ... الـــخ وبيـــن التفســير الأساسي الجوهري كالمقولات والفئات والقوانين وما إليها .

أسس تحليل النظرية الإجتماعية

تتفق النظريات الإجتماعية مع غيرها من النظريات العلمية من حيث بنائها ووظائفها في العلم . ذلك أنها تهدف إلى تقديم تفسيرات وتصورات هامة للحياة الإجتماعية من حيث نشأتها وتطورها وعلاقتها بالحياة الانسانية .

وعلى الرغم من إختلاف علماء الإجتماع حول معنى النظريـــة الإجتماعيـــة وأهدافـــها وحدودها إلا أن تحليل النظريات الإجتماعية يدور حول عدة تساؤلات هامة وأساســـية أهمها تساؤلات تيماشيف :

- ما المجتمع وما الثقافة ؟
- ما الوحدات الأساسية التي ينبغي أن تحلل المجتمع والثقافة إليها ؟
- ما طبيعة العلاقة بين المجتمع والثقافة ؟
- ما العوامل التي تحدد حالة المجتمع والثقافة ولغيرهما ؟

ـــ المجتمع ومن منهجه الملائمة ؟

ويحدد رايت ميلز ثلاثة أسئلة رئيسية يجب أن تحاول النظرية الإجتماعية الإجابة عليها :

١- ما طبيعة البناء الإجتماعي للمجتمع الكلي ؟ وما هي مكوناته الأساسية ؟ وكيف ترتبط هذه المكونات بعضها ببعض . وكيف يختلف هذا البناء عن غيره من الأبنية ؟ وما الدور الذي يلعبه أي عنصر داخل هذا البناء ذاته بالنسبة لبقاءه وبالنسبة لتغيره ؟

٢- ما موضوع هذا المجتمع في التاريخ الإنساني ؟ وما هي آليات تغييره ؟ وما موضع هذا المجتمع في تطور الإنسانية ككل وما الدور الذي يلعبه في ذلك ؟ وكيف يؤثر أي عنصر تدرسه على الفترة التاريخ التي يتحرك فيها وكيف يتأثر بها . وما هي الخصائص الجوهرية لهذه الفترة ؟ وكيف تختلف عن غيرها من الفترات ؟ وما هي خصائصها المميزة في العملية التاريخية ؟

٣- ماهي النوعيات التي في سبيلها إلى السيادة ؟ كيف يتم إختيارهم وتكوينهم وتحريرهم أو قمعهم ؟ وكيف يزداد وعيهم أو كيف يتم تزييف هذا الوعي أيصابون بالتبلد بدلا من الحساسية ؟

وما أشكال الطبيعة الإنسانية التي يفصح عنها السلوك الذي نلاحظه في هذا المجتمع وفي هذه الفترة وما مغزى كل عنصر تقوم بدراسته في المجتمع بالنسبة القيمة الإنسانية ؟

ويرى رايت ميلز أن هذه الأسئلة هي التي اهتم بها أفضل علماء الإجتماع عن معالجتهم لأي مسألة إجتماعية . فهي تمثل المحاور الأساسية لدراسة الإنسان والمجتمع ، ذلك أن الوظيفة الأساسية للنظرية الإجتماعية المبدعة هي الإنتقال من منظور إلى آخر ، أي من المنظور السياسي إلى التطور السيكولوجي ومن دراسة أسرة واحدة إلى دراسة الميزانيات القومية في بلدان العالم ومن المدرسة إلى الجيش ومن صناعة البترول إلى الشعر المعاصر . أن صاحب النظرية يجب أن

يتمتع بالقدرة على أن يربط بين أكثر المسائل عمومية وبيـــن أكثرهـــا شـــخصية وفردية وأن يكتشف العلاقة بين الإثنين .

ومن ذلك نرى الوظيفة الأساسية للنظرية الإجتماعية هي التصوير الموضوعـــي المستند إلى الأدلة للعلاقات المتبادلة بين النشاط الإنساني والتكوينات الإجتماعيـــة وكشف القوانين التي تحكمها .



الباب الثاني

المذاهب الكلاسيكية للنظرية الإجتماعية

الفصل الأول : الأبعاد التاريخية والمراحل الفكرية

الفصل الثاني : مرحلة التأسيس الأكاديمي للنظرية الإجتماعية

الفصل الثالث : إتجاه نظرية الصراع الإجتماعي من الكلاسيكية إلى المعاصرة



تمهيد :

نتناول في هذا الباب المذاهب الكلاسيكية للنظرية الإجتماعية معالجة ثلاثة أطر أساسية ، في ثلاث فصول متلاحقة تجمعها وحدة فكرية واحدة حيث يتناول الفصل الأول تحليل الأبعاد التاريخية والمراحل الفكرية التي مرت بها النظرية الإجتماعية منذ نشأة علم الإجتماع بدأ بالمرحلة التمهيدية قبل ظهور العلم وهي الظروف التي مهدت لظهور علم الإجتماع والأحوال الفكرية التي شكلها الواقع الإجتماعي والإرهاصات الفكرية التي ارتكزت إليها النظرية الإجتماعية في مرحلة التأسيس الأكاديمي المستمدة من النظريات السياسية وفلسفة التاريخ وفلسفات الإصلاح الإجتماعي ويمتد التناول في مرحلة التأسيس الأكاديمي إلى أعمال كل من أوجيست كونت ودوكايم وسبنسر ولوبلاي وبراون ومالينوفسكي وباريتو وفيبرو وتونيز وكولي وميد . ونهتم بإبراز الخط الفكري الذي يميز كل منهم وإهتماماته النظرية في معالجة قضايا الإنسان والثقافة والمجتمع . ويتضمن العرض النقدي لهذه الإهتمامات التقيد المنهجي بأسس التقويم التي عرضنا لها في الباب الأول .



الفصل الأول

الأبعاد التاريخية والإتجاهات الفكرية لتطور النظرية الإجتماعية

المحور الأول - الظروف التاريخية التي أفرزت علم الإجتماع

١. إنهيار الكنيسة الكاثوليكية

٢. قيام الثورة الفرنسية

٣. ظهور الرأسمالية والثورة الصناعية الأولى

٤. ظهور التنظيمات والبيروقراطية

* الإتجاهات الفكرية التي شكلها الواقع الإجتماعي

١. مرحلة التأسيس الأكاديمي

٢. المرحلة النقدية

٣. المراجعة النظرية

٤. بارسونز والنظرية العامة

٥. مرحلة إعادة تأسيس النظرية الإجتماعية

٦. المرحلة الراديكالية

المحور الثاني : الإتجاهات الفكرية التي شكلت النظرية الإجتماعية

- المرحلة **الفكرية** السابقة لعلم الإجتماع

أولا – النظريات السياسية

ثانيا – فلسفة التاريخ

ثالثا – فلسفات الإصلاح الإجتماعي

* العوامل المباشرة التي أدت إلى ظهور علم الإجتماع في أوروبا .

الفصل الأول

الأبعاد التاريخية والإتجاهات الفكرية

لتطور النظرية الإجتماعية

يتطلب الوقوف على تطور النظرية الإجتماعية الأخذ في الإعتبار تحليل المحورين التاليين :

المحور الأول تحليل الظروف التي أفرزت نشأة علم الإجتماع والتي ساعدت على نموها وامتدادها. وهي التفاعلات والأحداث التي عاصرت ظهور النظرية وبناؤها والتي تتبدى في مفهوماتها وقضاياها ومقولاتها وموقفها النظري من هذه الظروف .

المحور الثاني تحليل الإتجاهات الفكرية التي استندت إليها النظرية وذلك بالنظر إلى الأبعاد التاريخية والمعاصرة التي شكلها الواقع الإجتماعي المعاش .

وبالنظر إلى المحور الأول نجد أن النسق الفكري لعلم الإجتماع ظهر انعكاسا طبيعيا للأحداث والمعطيات التاريخية التي كانت بمثابة حركة سلمية علمية لفهم الوجود وجل مشكلات النظام الإجتماعي وذلك منذ أن نادى أوجيست كونت في بداية القرن التاسع عشر ١٨٣٩م . وفي هذا يمكننا تحليل أربعة معطيات تاريخية هامة كان لها الأثر الأكبر في تهيئة الظروف لقيام هذا النسق الفكري الجديد لعلم الإجتماع .

المحور الأول :

الظروف التاريخية التي أفرزت علم الإجتماع :

١ – **إنهيار الكنيسة الكاثولوكية :**

تمثلت في إنتصار التمحور البروتستانتي على الكنيسة الكاثوليكية التي فقدت قيمتها الدينية نتيجة للمعتقدات الخاطئة والممارسات السلوكية الغير أخلاقية التي مارسها رجال الدين المسيحيين الكاثوليك . وكان هذا نذيرا لسيادة نظريات العقد الإجتماعي (جان جاك روسو – هوبز ولوك)

إضافة إلى الإتجاهات الفلسفية العامة التي سبق صياغتها فلاسفة التنوير (فلتير وترجو وفيكو وكندرسيه) الذين قدموا نوع من المعرفة الإجتماعية وهي تبحث على حد تعبير دوركايم في تحديد الإتجـــاه العام للتطور الإنسانية وإيجاد قانون لحركة الحياة البشرية ومحاولة رسم مراحل التقدم المتعاقبة لحياة الناس في التاريخ ، وإنتقالها في عهود متباينة كل منـــها يمثل لونا معينا من الحياة ونوعا خاصا من النزعات العامة في التفكير والتطبيق . فالتاريخ لا يسير اعتباطا ، وإنما حسب حـــدود مرســومة وهي المنطق الذي يربط حوادث التاريخ وينظمها .. وهذا المنطق هـــو فروض عامة أي فلسفة عامة تصبغ تموجات التاريخ بصبغتها .

٢ - **قيام الثورة الفرنسية :**

قيام الثورة الفرنسية هيا الظروف بشـــكل كبـير لظـــهور النظريـــات الإجتماعية بشكل أكثر دقة وتحريرها من الفلسفة بعدما ترسخت أفكـــار الفلاسفة الأوائل وخلق الجو الملائم لنمو أفكارهم الإجتماعية عن الحريـــة والاخاء والمساواة .. ومشكلات النظام الإجتمـــاعي وأســباب تدهـــوره وانهياره واكثر الآراء حجة في إعادة بناءه .. وتأكدت في هذه المرحلـــة هوية علم الإجتماع وأهميته وموضوعه . وأفكاره عن المنهج العلمي في دراسة الإنسان والمجتمع .

٣ - **ظهور الرأسمالية والثورة الصناعية :**

الظروف التي صاحبت الثورة الصناعية التي دفعـــت ظـــهور النظـــام الرأسمالي وانهيار بورجوازية القرون الوســـطى وانـــهيار التنظيمـــات الإجتماعية المصاحبة لها . وتأسس نســـق مـــن التفكـــير الإجتمـــاعي الإقتصادي السياسي وعلم الفكر الإجتماعي الذي أكد أكثر هويـــة علـــم الإجتماع ووسع من مجالاته لإعادة تنظيم الواقع الإجتماعي .

٤ - **ظهور التنظيمات البيروقراطية :**

أدى انتشار الصناعة إلى بروز التنظيمات البيروقراطية المرتبطة بها فـــي مختلف جوانب الواقع الإجتماعي ، وتأكد سيطرة النســـق الإجتمـــاعي وسلب التفاعل الإجتماعي حقوق الإنسان في المشاركة وظـــهرت لذلـــك الإتجاهات الراديكالية في محاولة رد الحقوق المســـلوبة للإنســـان فـــي مواجهة النسق الإجتماعي .

وكما سبقت الإشارة فإن الظروف التاريخية السابقة وأحداثـــها الكـــبرى (انهيار الكنيسة وفصل الدين عن الدولة وقيام الثورة الفرنسية وظـــهور مبادئ الحرية والإخاء والمساواة وحقوق الإنسان والثـــورة الصناعيـــة ومصاحبتها بانهيار البورجوازية وظهور النظام الرأسمالي في أوروبـــا ونشأة التنظيمات الصناعية الكبرى وإتساع النسق الإجتمـــاعي وهيمنـــة الدولة الصناعية والبيروقراطية) .

<u>المحور الثاني :</u>

<u>التطورات الفكرية التي شكلت الواقع الاجتماعي :-</u>

كل هذه الأحداث والحركات التاريخية واكبها تطور فكري في كل مراحلـــها يمكن أن نتبينه في المراحل التالية :

<u>المرحلة الأولى – مرحلة التأسيس الأكاديمي:</u>

وقد نمت في هذه المرحلة أربعة نماذج للتنظير اشتقت تعميماتها من أصـــول فلسفية وقد حاول أصحابها التعامل مع الواقع بالنظر إلى هذه التعميمات :

<u>النموذج الأول :</u>

قدم أصحابه صورة شاملة للواقع الإجتماعي من حيث عناصره وعملياتـــه . وقد عكس هذا النموذج رؤية المنظر وقناعاته الفلسفية ويمكن أن نجد في هذا النموذج أعمال كل من :

١- أوجست كونت　　　٢- أميل دوركايم

٣- ماكس فيبر　　　٤- فلفريدو باريتو

<u>النموذج الثاني :</u>

قدم أصحابه نظريات العوامل التي ربطت الواقع الإجتماعي بعوامل اقتصادية أو جغرافيـــة أو ســـلالية ... الـــخ . فـــأصبح الواقـــع الإجتمـــاعي مستقل .

<u>النموذج الثالث :</u>

وهم أصحاب الصياغات الحديثة للمسلمات القديمة التي أسستها الإتجاهات البنائية الوظيفية والظاهراتية والسلوكية والراديكالية .

النموذج الرابع :

وقدمه أصحاب النزعة الامبيريقية التي تميزت بناحيتين أساسيتين :

الخاصية الأولى :

تميز بإمتلاك الأنساق النظرية لقصور شامل للواقع الإجتماعي من حيث عناصره وعملياته وعلاقاته وإتباعها الأسلوب الإنتقائي في البرهنة .

الخاصية الثانية :

سيطرة الأيديولوجيا على التنظيرات مما أثر على توجيه البحوث العلمية أيدلوجيا دونما النظر إلى متغيرات الواقع .

المرحلة الثانية – المرحلة النقدية :

حيث اتجه التفكير الإجتماعي إلى تحليل ونقد التنظيرات الإجتماعية على مختلف مدارسها بهدف قيام نظرية سوسيولوجية عامة تمتلك مقومات النظرية العلمية من حيث إمكانيات كفاءتها التحليلية إلى ثلاث نماذج أساسية :

النموذج الأول :

النقد الأكاديمي الذي قدمه كل من بتريم سوروكين ١٩٢٨ في مؤلفه النظريات الإجتماعية المعاصرة ودون مارتنانتدال في مؤلفه طبيعة ونماذج النظرية السوسيولوجية ١٩٦١ وذلك بتقييم الأنساق النظرية الكلاسيكية بالنظر إلى محطات أكاديمية .

النموذج الثاني – النقد الأيديولوجي

الذي قدمه كل من أرفنج زايتلن ١٩٦٩ في مؤلفه "الأيديولوجيا ونشأة النظرية الإجتماعية" وكذلك "إعادة التفكير في علم الإجتماع ١٩٧٣" وذلك لتقييم الأعمال النظرية بالنظر إلى محتوياتها الأيديولوجية .

النموذج الثالث – النقد بالنظر إلى السياق:

الذي قدمه الفن جولدنر ١٩٧١ في مؤلفه الأزمة القادمة لعلم الإجتماع الغربي وذلك بتحليل الأعمال النظرية باعتبارها إنعكاس مباشر للواقع الإجتماعي الذي ظهرت في إطاره وجردت عن تفاعلاته.

أما المرحلة الثالثة : فهي مرحلة المراجعة النظرية حيث تأسست في إطارها مجموعة من الجهود النظرية التي حاولت الإستفادة من منجزات المرحلة الأولى والثانية بهدف تأسيس مجموعة من التعميمات التي تشكل مواقع إتفاقية بين مختلف نماذج النظرية السوسيولوجية بحيث تصبح هذه التعميمات أساسا لنشأة النظرية العامة في علم الإجتماع . ويمكن أن نميز في هذه المرحلة أربعة إنجازات :

الإنجاز الأول : محاولات كل من فاندنبرج وجوندر فرانك ودي ميرات – للتوفيق بين الإتجاهات النظرية الحديثة ١٩٦١ ودراسة انتوني جايدنز الرأسمالية ونشأة النظرية الإجتماعية ١٩٧١ . وهي محاولة إعادة صياغة الأنساق النظرية من حيث تصوراتها فيما يتعلق بجوانب محدودة للبناء الإجتماعي سواء كانت ذات طابع استقراري أو دينامي .

المرحلة الرابعة : محاولات بارسونز في إخراج نظرية عامة طورها في سلسلة مؤلفاته (النسق الإجتماعي ١٩٥١) نحو نظرية عامة في الفعل الإجتماعي .

ومحاولات ايزنش دات (في مؤلفه معنى مصطلح إجتماعي في علم الإجتماع ٧٩ ومؤلف ريتشارد بيج برنشتين إعادة تأسيس النظرية الإجتماعية والسياسة ١٩٧٩ . والتي هدفت إلى إعادة صياغة تعميمات مختلفة المواقف النظرية فيما يتعلق بمفاهيم محددة لها متغيراتها الواقعية .

أما المرحلة الخامسة : المرحلة الراديكالية الرافضة لكل منجزات الأنساق النظرية السابقة وترى أنها أنساق قاصرة عن تقديم فهم تفاعلات الواقع الإنساني المتجدد .

حيث يتمثل هدفها في تحديد المقولات التي طرحتها مختلف الأنساق النظرية فيما يتعلق بالفعل الإجتماعي كمفهوم أساسي سواء تلك الخاصة بالجوانب المنهجية أو تلك المتعلقة بالجوانب العينية . *

المحور الثاني :

الإتجاهات الفكرية التي شكلت النظرية الإجتماعية :

رأينا أنه على الرغم من قدم الفكر الإجتماعي حيث شغل الإنسان منذ القدم بالتفكير في المجتمع ونشأته وما يجب أن يكون عليه غير أن الفكر الإجتماعي القديم كان في جوهره فكرا علميا غائبا حيث ظهر إما للتخلص من مشكلات قائمة فعلا وإما لرسم صورة مجتمع مثالي . وقد تأثر علم الإجتماع بهذه النزعة حتى اليوم .والتي تبدت في ظهور عدة نظريات يمكن أن تعتبر المرحلة الفكرية السابقة لعلم الإجتماع يمكن إيجازها فيما يلي :

أولا : النظريات السياسية :

وهي التي صاحبت التحولات السياسية والإجتماعية والإقتصادية داخل دول أوروبا . فقد كان المفكر الإنجليزي « تماس هوبز T. Hobbes » مؤيد للملكية المستمدة من أسرة ستيورات في إنجلترا في مواجهة ما يعترضها من تحديات شعبية فأصدر كتاب بعنوان « التنين » قسم خلاله حياة الإنسان إلى مرحلتين :

الأولى : هي الحالة الطبيعية قبل التجمع أي قبل أن يدخل الإنسان إلى المجتمع ويندمج في علاقات مع غيره من الناس .

الثانية : هي حالة التجمع بين البشر الناتج عن دخول الناس في عقد مع الحاكم من أجل تكوين مجتمع وقد صور « هوبز Hobbes » صورة الحالة الطبيعية على أنها حالة صراع بين الناس حيث كان السائد هو قانون الغاب وكان الإنسان ذئبا لأخيه الإنسان ، ولهذا فقد تنازل الناس عن حرياتهم وعن حقوقهم للحاكم الذي أختاروه مقابل حمايتهم من قسوة الحالة الطبيعية .

والعكس من ذلك فإننا نجد « جون لوك » المفكر الإنجليزي يستخدم فكرة العقد الإجتماعي للدفاع عن حق الشعب وحرية الأفراد في مواجهة الحاكم المستبد ، فقد تصور الحالة الطبيعية التي تحدث عنها « توماس هوبز» أنها حالة مريحة إلا أن كثرة الأعباء على الناس وعدم وجود تعاون بينهم استلزم دخول الإنسان في عقد من أجل تكوين المجتمع .

وأكد لوك G. Loock على أمرين أساسيين هما :

الأول : أن الإنسان دخل إلى المجتمع حاملا معه مجموعة من الحقوق التي كان يتمتع بها أثناء الحالة الطبيعية السابقة عن التجمع مثل حق الملكية والعمل والتنقل وليس من حق المجتمع أن يسلب منه هذه الحقوق .

الثاني : أن العقد ليس من طرف واحد كما ذكر « هوبز » وإنما له طرفان يجب على كل منهم الإلتزام به الأولى وهو الشعب والثاني هو الحاكم وعلى الحاكم الحفاظ على حريات الناس وحقوقهم .

ثانيا : فلسفة التاريخ :

وهي المرحلة التي حاولت تفسير التاريخ الإنساني وتتبع مسيرته عبر خطوط معينة أو بيان المراحل الحضارية التطورية التي يمر بها تاريخ المجتمعات ، وقد حاول المفكرون الإجتماعيون تحت تأثير إكتشاف القوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعية في علوم الطبيعة والكيمياء والفلك أن يكتشفوا القوانين التي تخضع لها المجتمعات الإنسانية في تطورها وتفسيرها ، وهنا انطلق الباحثون في رسم المراحل التي يمر بها المجتمع – أي مجتمع – في تطوره ووضعه في شكل قانوني حتمي .

وعلى الرغم من أهمية هذا التيار في التمهيد لظهور علم الإجتماع حيث أنه نبه إلى أهمية دراسة التغير الإجتماعي واجراء مقارنات بين تاريخ المجتمعات ومهد السبيل أمام الدراسات الوضعية إلا أنه لم يقم على أساس ودراسات علمية مقارنة وإنما قام على أساس التأمل الفلسفي والتخمين . يضاف إلى هذا أن فلاسفة التاريخ حاولوا إطلاق تعميمات تتخطى ما هو متاح من معلومات ومثال هذا ما ذهب إليه « فيكو Vico » الباحث الإيطالي في كتاب له بعنوان « العالم الجديد » من أن كل المجتمعات تسير في ثلاث مراحل تطويرية وهي مرحلة الآلهة – وعصر الأبطال – ومرحلة الإنسانية ، ويؤكد أن المجتمع يصل إلى المرحلة الثالثة ثم يعود مرة أخرى إلى المرحلة الأولى والثانية فالثالثة وهكذا يكون التطور الإجتماعي في شكل دائري معاود .

ثالثا : فلسفات الإصلاح الإجتماعي :

وهي تحاول رسم صورة لمجتمع صالح يخلو من العيوب والمشكلات والصراع وهي تمتد من أفلاطون الذي حاول رسم نموذج لمجتمع مثالي في جمهوريته .

وهذه التصورات الإصلاحية كانت إنعكاسا أو رد فعل لما يعانيه مجتمع المفكر من مشكلات وصراعات وفساد أراد الباحث أن يتجاوزها وصولا إلى مجتمع مثالي من وجهة نظره الذاتية البحتة .

من أبرز هذه الفلسفات ما نشره « توماس مور T. Moore » بعنوان « أرض الأحلام » وعرض عنها صور الفساد في مجتمع أوروبا في عصره ورأى معالجة المشكلات والبؤس والإستغلال وسوء التوزيع والبطالة وضرورة إلغاء الملكية .

العوامل المباشرة التي أدت إلى ظهور علم الإجتماع في أوروبا :

ويمكن القول أن ظهور علم الإجتماع كعلم يحاول فهم وتفسير الظواهر التي تنشأ عن التجمع الإنساني كاللغة والدين والأسرة والقانوني والسياسة والإقتصاد ، كما يحاول تطبيق المنهج العلمي من أجل فهم مجتمع الإنسان في حالة ثباته وتغيره وكان استجابة لمجموعة من العوامل المتداخلة نوجز أهمها فيما يلي :

أولا : ظهور مجتمعات الدول بعد تحقيق الوحدة القومية بين الإمارات الإقطاعية التي مزقت مجتمعات الدول خلال القرون الوسطى . وقد تحقق هذا بعد ظهور الكشوف الجغرافية وبروز طبقة من التجار وظهور المدن والتجارة التي تتطلب حرية الحركة بين أجزاء المجتمع دون عوائق من جانب أمراء الإقطاع .

ثانيا : ظهور طبقة إجتماعية وليدة بعد الكشوف الجغرافية وظهور المدن وهي طبقة البرجوازيين التي حاولت أحداث تغيرات، في النظم الإقتصادية والسياسية التي سادت القرون الوسطى وسعت إلى إنتزاع السلطة من يد الإقطاعيين وكانت في حاجة إلى دعم فكري يبرر هدم الإقطاع وسيادة حرية العمل والتنقل وتحقيق الوحدة القومية .

من الفهم العلمي . وتأكد للمفكرين أن التقدم الإقتصادي لا يعني بالضرورة تقدما إنسانيا بل أن هذا التقدم في ظل الرأسمالية يحدث على حساب الحرية والعقل وبذلك طلب « سيسموندي » من الدولة أن تمارس سلطتها من أجل حماية الجماهير المضطهدة .

رابعا : قيام الثورة البرجوازية في فرنسا حيث عاشت فرنسا في إطار هذه الواقعة عدة سنوات أعقبها عصر من الرعب في أحداثه ونتائجه ، حيث تكشف دراسة الثورة الفرنسية أنها فرضت خطا فاصلا عبر التاريخ العقلي والسياسي لأوروبا فقد فُرض العنف والرعب بالإضافة إلى الهجوم الإمبريالي على القوميات الصغيرة رد فعل مضاد لها حتى في عقول هؤلاء البشر الذين كانوا منذ البداية متحمسين لحقوق الإنسان ومن ثم فقد كان منطقيا طرح قيم جديدة على التقاليد القومية والعواطف المعتادة تلك التي عصف بها الثوريون ، وضرورة قيام عالم قادر على تشخيص أسباب هذه المشاكل ورسم خطة العلاج والمواجهة .

خامسا: فلسفة عصر التنوير التي أكدت ضرورة إخضاع كل الظواهر بما فيها ظواهر المجتمع للتفكير العقلي .

سادسا :يذهب نقاد علم الإجتماع إلى أن أغلب النظريات الكبرى في علم الإجتماع – مثل نظريات « دوركايم » و« فيبر» و« باريتو» وغيرهم ظهرت لمواجهة الأفكار التي انطوت عليها النظرية الماركسية التي تدعو إلى هدم النظام الرأسمالي وقيام المجتمع الشيوعي وسقوط طبقة الرأسماليين . وقد كانت هذه الأفكار تمثل تهديدا وتحديا للمجتمع الأوروبي وهو الأمر الذي أثار كتاب الغرب – ومنهم أغلب كبار علماء الإجتماع للرد عليها وتفنيدها .



الفصل الثاني

مرحلة التأسيس الأكاديمي للنظرية الإجتماعية

١. اوجيست كونت والإصلاح الإجتماعي
٢. أميل دوركايم البنائية الوظيفية في المرحلة الكلاسيكية
٣. هربرت سبنسر والاستاتيكا الإجتماعية
٤. فريدريك لوبلاي والمعرفة الامبيريقية
٥. رادكليف براون البناء والوظيفة في المجتمع البدائي
٦. مالينيوفيسكي والنظرية العلمية الثقافية
٧. باريتو ومنهج جديد للبحث في علم الإجتماع
٨. ماكس فيبر وإسهاماته المثالية للتنظيم الإجتماعي والإقتصادي
٩. تونيز حادثة فريدة في دراسة النظرية في علم الإجتماع
١٠. جورفيتش وعلم إجتماع الجماعات الكبيرة والجماعات الصغيرة
١١. كولي وميد والتفاعلية الرمزية ، المدرسة السلوكية الإجتماعية .



تمهيد

تعتبر مرحلة التأسيس الأكاديمية للنظرية الإجتماعية منذ بداية ظهور علم الإجتماع وتخلص الفكر الإجتماعي من الميتافيزيقيا والمثولوجيا والثيولوجيا وبداية بزوغ الفكر الوضعي وتطبيق قواعد المنهج العلمي في معالجة الظواهر الإجتماعية .

ونستعرض في هذا المقام إلى أهم الإنجازات الفكرية التي صاحبت مرحلة التأسيس الأكاديمي للنظرية الإجتماعية وخاصة أن المرحلة الكلاسيكية هذه مليئة بالإتجاهات والمذاهب والأيديولوجيات ، ولذلك فإن العرض يشتمل على نماذج من هذه الصراعات الفكرية والإسهامات الكبرى التي ما زالت حتى عصرنا هذا موضع مناقشة وجدل فكري في ميادين علم الإجتماع كما أنها تعتبر بحق منطلقات لأي باحث في مجالات علم الإجتماع المختلفة يستند إليها في تأصيل جوانب بحثه النظرية ويشتق منها مقولاته ويبني عليها فروضه ومسلماته ويقيس مدى امبيريقيتها وصلاحيتها في قيادة البحوث الإجتماعية .

١) أوجيست كونت « Auguste Komte ١٧٩٨ - ١٨٥٧»

مقـــــدمة :

انتقد كونت الأسلوب الذي أنتهجه مفكرو عصره للإصلاح الاجتماعي في أعقاب الثورة الفرنسية ، ودعا لان تتم إعادة تنظيم المجتمع على أسس مثالية بعيدا عن الاضطراب في التفكير الذي كان راجعا لتشيع المفكرين بين أسلوبين متناقضين تماما ، أحدهما .. وضعي يستخدم عند التفكير والبحث في الظواهر الكونية والبيولوجية والطبيعية ، وثانيهما .. ميتافيزيقي .. ديني .. ينتهجه المفكرون عند دراسة الظواهر التي تتعلق بالمجتمع والإنسان ، علاوة على ما استتبع ذلك الاضطراب في التفكير من فوضى عقلية وما تجره بالتالي تلك الفوضى على المجتمع من فساد سواء في الأخلاق أو السلوك .

وتصور كونت أن الحل المثالي لهذه الفوضى لابد أن يرتكز على ثلاثة أسس رئيسية هي :

١- ضرورة إيجاد صورة يتم من خلالها التوفيق والمزج بين أسلوبي التفكير السائدين ، وهما .. الوضعي والميتافيزيقي .

٢- ضرورة تعميم استخدام ذلك المزيج الذي أطلق عليه كونت .. المنهج التيولوجي الميتافيزيقي ، حتى يكون منهجا عاما تستخدمه جميع العقول وتخضع له جميع العلوم ، مع الدعوة لصرف النظر عن تلك الحقائق العلمية التي تم التوصل إليها عن طريق التفكير الوضعي وحده .

٣- ضرورة أن يسود مبدأ «وحدة المعرفة العضوية » وذلك من خلال تعميم المنهج الوضعي وجعله منهاجا كليا وأساسا وحيدا لدراسة مختلف الظواهر الكونية .

إلا أن كونت سرعان ما تيقن أن تصوره ذلك قد جانبه الكثير من الصواب عندما واجهته عند التطبيق صعاب عديدة ومشاق .. إذ كيف يتم المزج بين النقيضين خصوصا وأن وجود أحدهما يعني فناء .. من الوجهة النظرية على الأقل .. للآخر ؟! ..

ثم كيف نعمم استخدام ذلك المزيج المعروف باسم « المنهج التيولوجي الميتافيزيقي » خصوصا وأن ذلك المزج صار مستحيلا علاوة على ما صاحبته من دعوة كونت لغض النظر عما أمكن التوصل إليه من

حقائق علمية – على حد تعبير كونت – ولا شك أن هذه الحقائق أثرت بطريقة أو بأخرى في حياة الناس والمجتمعات ومن ثم تكون النتيجة المنطقية لإلغائها أو إهمالها .. هي وقوع مزيد من الخلل والاضطراب الذي سعى كونت أصلا لإيجاد حل له ..!!

وأخيرا فان الأساس الثالث والمطالب بأن يكون التفكير الوضعي منهجا كليا وأساسيا عند التصدي لدراسة ظاهرة كونية ، وما يستلزمه ذلك من القضاء نهائيا على شتى مظاهر التفكير الميتافيزيقي .. هذا الأساس ممكن التطبيق لكن بشرطين :

أ) أن تفهم ظواهر المجتمع على أساس علمي وضعي ، وهذا الفهم لن يتحقق إلا إذا خضعت تلك الظواهر في مسيرتها لقوانين ، وبحث تصبح مهمة المنهج الوضعي هنا .. هي الكشف عن تلك القوانين التي تسير تلك الظواهر الإجتماعية والإنسانية .

ب) أن تتاح فرصة التعرف على تلك القوانين حتى يتاح بالتالي فهم أعمق لمختلف الظواهر الإنسانية والاجتماعية وهي تسير وفق الحدود والأوضاع التي اختطتها تلك القوانين .

ولكن كيف تتاح الفرصة سواء للتعرف على القوانين المسيرة للظواهر الاجتماعية أو لذلك الفهم الأعمق لها .. إلا إذا بذل المتخصصون جهدا أكبر في سبيل تحقيق ذلك ، وإلا إذا توافر عليه علم جديد تكون مهمته القضاء على تلك الفوضى العقلية التي نشأت عن تضارب أساليب التفكير وما استتبعها من فوضى اجتماعية وأخلاقية ؟ ! ..

والنمطان الفوضويان يشكلان معا العقبة الكأداء في سبيل الإصلاح على الأسس المثالية التي ينشدها كونت ويدعو إليها .

إذن فقد وجد المهندس كونت الحل الذي ينشده .. متمثلا في « علم الطبيعة الإجتماعية » الذي وضعه كونت على قمة العلوم الوضعية وجعله زعيما لها .. ولم يأت تزعم « علم الطبيعة الاجتماعية » أو « علم الاجتماع » كما سماه كونت فيما بعد ، لغيره من العلوم – طبيعية كانت أو إنسانية – اعتباطا ، ولكن لخصائص كامنة في ذلك العلم على الرغم من حداثته ، ولعل

من أبرز تلك الخصائص في رأي كونت أن موضوع علم الاجتماع – وهو المجتمع – هو أكثر الموضوعات تعقيدا أو تركيبا على الإطلاق ، زد على ذلك أن العلوم الطبيعية في رأي كونت .. أن هي إلا مقدمات تفسح الطريق لعلم الاجتماع وتمهد المجال لبحوثه .

ويوضح كونت سر ذلك التعقيد والتركيب الذي يتميز به موضوع علم الاجتماع دون سواه واستحق لأجله أن يكون قمة العلوم جميعا ، ذلك السر الذي يكمن في المجتمع الذي تتسم ظواهره الاجتماعية بتفاعل عناصرها وتداخلها وشدة تأثرها بالنشاطات والتدخلات الإنسانية ، ومن هنا اكتسبت تلك الظاهرة التي تتسع لتضم الإنسانية كلها – التي هي موضوع علم الإجتماع في رأي كونت – سمة التعقيد والتركيب والغموض الذي يجعل من العبث التعرف عليها أو تحديدها بشكل دقيق وحاسم .

• الإسهامات السوسيولوجية لكونت :

تصور كونت من خلال فلسفته الوضعية أن هناك مسارات ثلاث للتقدم التاريخي لم يسلك الكائن الاجتماعي ، والذي يتكون في رأي كونت من عناصر متساندة ومتمايزة تعمل معا لتحقيق هدف واحد مشترك ، تصور كونت أن ذلك الكائن الاجتماعي لم يسلك غير تلك المراحل خلال تطوره وتقدمه .

وهذه المراحل التي أطلق عليها كونت قانون المراحل الثلاث هي :

أ) المرحلة اللاهوتية أو الدينية :

وهذه المرحلة مرت بها الإنسانية في طفولتها المبكرة ، واللاهوتية لا تعني هنا دراسة الإلهيات أو العقائد ، وإنما تعني في مفهوم كونت منهجا أو طريقة لتفسير الظواهر الاجتماعية عن طريق

إرجاعها إلى أسباب طبيعية خارقة أو قوى خفية فوق طاقة البشر ، أو يردها إلى إرادة الآلهة التي كانت تعبد من قبل مجتمعات مرحلة الطفولة الإنسانية المبكرة .

والإنسان خلال هذه المرحلة كثيرا ما وقف حائرا أمام ما يراه من ظواهر وخوارق لم يستطع عقله في ذلك الوقت أن يجد تبريرا مناسبا لها ، وبالتالي لم يجد أمامه من تفسير مقنع إلا

أن يردها أما إلى تلك القوى الخفية التي تسيطر على العالم من حوله أو تهيئ له قناعته بآلهته أنها الوحيدة المسئولة عما يحدث حوله .

ويقول كونت أن الإنسان خلال تلك المرحلة أضفى على آلهته الكثير من الخصائص الإنسانية من فرح وغضب وتنازع على البقاء ، وعلى هذا الأساس .. أعطى إنسان تلك المرحلة بعض السمات الرمزية لما يراه حوله من ظواهر طبيعية ، فعندما تهب العاصفة فان الآلهة تتصارع ، وعندما يثور بركان أو يفيض نهر أو يعصف ريح أو يشب حريق أو يقع زلزال .. فهذا معناه أن الآلهة غضبى .. وهكذا .

ويرى كونت أن تلك التفسيرات كانت ترضي إنسان ذلك العصر وتروي ظمأه لمعرفة ما يدور حوله من ظواهر ، مع ملاحظة أن مرحلة التفكير اللاهوتي تلك قد مرت هي الأخرى بأطوار ثلاثة .. ابتداءا من الطوطمية .. ومرورا بتعدد الآلهة ، وصولا إلى وحدانية الإله .

ب) المرحلة الفلسفية أو الميتافيزيقية :

مفهوم الميتافيزيقية هنا .. لا يعني البحث في اصل الوجود أو في غير ذلك من القضايا الفلسفية المتعلقة بأصل الأنواع وما إليها ، ولكن .. قصد بها كونت طريقة التفكير المرتكزة على الفروض المجردة لتفسير مختلف الظواهر .

واعتبرت هذه المرحلة .. مرحلة إنتقالية تمكن الإنسان خلالها من أن يتخيل أو يتصور تفسيرا جديدا للظواهر من حوله .. فبدلا من أنه كان يرجع ذلك لأسباب وقوى غيبية خارجة عن نطاقه ونطاق الظواهر المحسوسة من حوله ، بدلا من ذلك راح يفسر ما يراه ويرجعه لأسباب تعود لتلك الظواهر نفسها ، أو بمعنى آخر .. فإن عله ما يحدث من تغيرات مجتمعية

تحيط بذلك الإنسان إنما تعود إلى طبيعة الأشياء وليس لأسباب أو قوى خارجية .. وهكذا حلت « الطبيعة » محل « الإلـــه » في تفسير وتعليل الظواهر المحيطة بالإنسان .

ج) **المرحلة الوضعية أو العلمية :**

وهي مرحلة بلغت الكمال في العلم وفي التفكـير الإنســاني ، وأدرك خلالها العقل البشري حقيقتين هامتين ، أولاهمـــا ، أن إنتظام الظواهر لا يمكن أن تـــبرره المعجـــزات أو تفســره رغبات الآلهة ، وبالتالي لا يمكن تفسيرها استنادا على كلمات الفلاسفة أو ادعاءات الكهان ، أما الحقيقة الثانية أنه ليس فـــي مقدور الإنسان أن يصل إلى تفسيرات مطلقة خلال بحثه عــن أصل الأشياء وغاياتها .

وبناء على ذلك فإن الإنسان – خلال هــذه المرحلـــة – قنـــع بالسعي لاكتشاف القوانين التي تسير مختلف الظواهر حولـــه في تعاقبها المستمر وتوافقها الدائم ، وكانت ركيزته في ذلـــك عقلا واعيا وملاحظة مقننة ومنهجا في التفكير الوضعـــي لا يفتش عن سبب حدوث تلك الظواهر من حوله بقدر اهتمامـــه عن كيفية حدوث تلك الظواهر ، وكانت هذه الخطوة – فـــي رأي كونت – هي الحاسمة في سبيل تطور الاتجـــاه العلمـــي وتقدمه .

كما تميـــزت هذه المرحلــــة بانحســـار التـــأملات الفلســـفية والشطحات الفكرية .. لتحل محلها ملاحظة حسية مدعومـــــة بالتجربة العلمية التي تقود الإنسان إلى نتـــائج يقينيـــة فـــوق مستوى الحدس أو التخمين .

هذا ولم يكتف كونت بعرض قانون المراحل الثلاث الســـابق الإشارة إليه فقط ، بل أقام مجموعة من الارتباطات بين تلـــك المراحل وبين مراحل تقدم ونمو الحياة الماديـــة للإنســـان .. واعتبر كونت الحالات الثلاث المشار إليها قبلا .. أن هـــي إلا حالات عقلية وقابل بينها وبين أشكال الوحـــدات الاجتماعيـــة السائدة خلال كل مرحلة ، وبينها كذلك وبين كل من أنمــــاط النظم الاجتماعية فضلا عن المشاعر الإنسانية السائدة ، فنجـد كونت مثلا قد ربط بين اللاهوتية كحالة عقلية وبيـــن شـــيوع النمط العسكري ، وسيادة الأسرة كوحدة اجتماعية مع وضوح مشاعر المحبة والتعاون ، أما الميتافيزيقية فقد ارتبطت فـــي مفهوم كونت بالمرحلة التشريعية وظهور الدولة كنظام جمعي

مع سيادة مشاعر الاحترام والتبجيل ، أما الوضعيـــة كحالـ عقلية فقد ارتبطت بظهور المجتمع الصناعي وبروز الإنسان في ظل نظام عالمي مؤمن بالإحسان والخير .

هذا ولم تكن تلك المراحل عند كونت مجرد مبدأ بل صـــار عنده قانونا يحكم تقدم المعرفة وينطبـــق ليـــس فقـــط علـــ المجتمعات الإنسانية إنما ينسحب بالضرورة على الأفراد فـــي تطورهم وتعليمهم كذلك .

- **ركائز النظرية السوسيولوجية عند كونت :**

أولا : يعتبر قانون المراحل الثلاث المشار إليـــه قبـــلا الركـــيزة الأولى للنظرية السوسيولوجية عند كونت ، أمـــا الركـــيزة الثانية فتتمثل في النظام المتسلسل للعلوم الذي وضعه كونت في نسق مترابط قاعدته الرياضيات ويشكل علم الاجتمـــاع قمته المتطورة والذي اعتبره كونت اكثر العلـــوم تعقيـــدا ، وذلك شيء طبيعي في رأي كونت لان كل علم داخل ذلـــك النسق التسلسلي الذي تصوره للعوم ، يمهد بالضرورة للعلم الذي يليه في السلسلة والذي لا بد وأن يكـــون أكـــثر منـــه تعقيدا ، فالرياضة تأتي أولا وعند قاعدة النسق ، وبعدهـــا الميكانيكا ثم الفيزياء فالكيمياء فالبيولوجيا ، حتى يحتل قمـة ذلك النسق علم وليد – في رأي كونـــت – هـــو الفيزيـــاء الاجتماعية أو علم الاجتماع .

ثانيا : وضع كونت أول تعريف لعلم الاجتماع وقال :

((انه الدراسة الواقعية المنظمة للظواهر الاجتماعية)) و ((هو العلم النظري المجرد للظواهر الاجتماعية ..)) ، ولا يقلـــل من قيمة تعريف كونت لعلم الاجتماع أنه لم يعد معترف به كلية الآن ، كما قدم كونت تصورا ممتازا للثقافة باعتبارهـــا المحصلة الكلية لإنجازات العقول الإنسانية المتفاعلة .

رابعا : قسم كونت موضوعات علم الاجتماع إلى قسمين رئيسيين ، أولهما ما يعرف بعلم الاجتماع الاستاتيكي ، وثانيـــهما مـــا يعرف بعلم الاجتماع الديناميكي ، كما حدد اهتمام الاستاتيكا بدراسة شروط وجود المجتمع أو بما يعـــرف الآن بالبنـــاء الاجتماعي ، بينما تهتم الديناميكا بدراسة الحركة المســتمرة للمجتمع أو بما يعرف الآن بدراسة التغير الاجتماعي .

ويقول نيقولا تيماشيف ، أن النظام هو الحقيقة الرئيسية في الاستاتيكا كما أن التقدم هو الحقيقة الكبرى في الديناميكا عند كونت وبتعبير آخر فان الاستاتيكا هي نظرية النظام الذي يشير إلى الانسجام والتوازن بين ظروف وجود الإنسان في المجتمع ، بينما تعد الديناميكا نظرية في التقدم الاجتماعي تهتم بدراسة النمو الأساسي في المجتمع وتطوره .

خامسا : أكد كونت من خلال قناعته بأن المناهج يجب ألا تنفصل عن الظواهر التي تستخدم في بحثها ، أكد أنه يجب على علم الاجتماع أن يأخذ بالمنهج الوضعي .

صحيح أن كونت لم يشرح منهجه الوضعي بشكل دقيق وكاف ، إلا أنه أكد أن منهجه الوضعي يتطلب تبعية المفهومات للواقع من جهة ، وقبول الفكرة التي تقول أن الظواهر الاجتماعية إن هي إلا موضوع للقوانين العامة منن جهة أخرى .

كما أنكر كونت إمكانية التطابق بين منهجه الوضعي وبين استخدام كل من الإحصاء والرياضيات ، بينما أكد أنه يمكن تحصيل المعرفة الوضعية عن طريق الملاحظة ، التجربة المقارنة ، المنهج التاريخي ، كما أكد كونت أن الملاحظة لا يمكن أن تستخدم أو تؤدي دورها بنجاح إلا إذا كانت موجهة أو مدعمة بنظرية ، وحذر من اعتماد الملاحظة ((استخدام الحواس الفيزيائية)) على الاستنباطات إلا بأقل قدر مستطاع .

وعلى كل فان كونت يعتبر مؤسسا للإتجاه الوضعي في علم الإجتماع وان لم تتسق أفكاره مع أفكار الوضعية المحدثة التي تسعى إلى البحث عن نظرة موحدة لعالم الظواهر طبيعية كانت أو اجتماعية من خلال تطبيق المناهج والنتائج التي تصل إليها العلوم الطبيعية .

سادسا : يرى انكلز خلال كتابه ((ما هو علم الاجتماع)) الذي صدر عام ١٩٦٤ ، أن كونت على الرغم من أنه أعطى علم الاجتماع اسمه ، إلا انه اهتم بتأكيد دعاواه وآماله نحو هذا العلم الوليد أكثر من اهتمامه بتحديد موضوع ذلك العلم .

ويضيف انكلز أن كونت لم يكن متحمسا لفصل علم الإجتماع عن دائرة العلوم الاجتماعية لأن ذلك الفصل لم يكن في رأي كونت عمليا ولا مرغوبا فيه في الوقت الحاضر ((عصر كونت)) وأن تلك هي مهمة المستقبل البعيد ، أما في عصر كونت فإنه من المستحيل التعجل بهذا التقسيم الرئيسي على حد تعبير كونت نفسه .

ولكن ليس معنى رفض كونت للتحديد الدقيق المفصل لفروع علم الإجتماع أنه غفل تماما عن هذه النقطة ، فقد قسم علمه الوليد إلى قسمين رئيسيين أولهما : الاستاتيكا الاجتماعية Social Statics ، وثانيهما الديناميكا الاجتماعية Social Dynamics ، وحدد كونت طبيعة عمل الجانب الاستاتيكي لعلم الاجتماع من خلال قوله ((أن الجانب الاستاتيكي لعلم الاجتماع يتمثل في دراسة قوانين الفعل ورد الفعل التي تخضع لها مختلف أجزاء النسق الاجتماعي)) أما عن الجانب الديناميكي لعلم الاجتماع فإنه يجب أن تتركز الدراسة خلاله على مجتمعات كاملة وبحيث يعتبر المجتمع ككل هو وحده التحليل السوسيولوجي بهدف إيضاح كيف تطورت وتغيرت تلك المجتمعات على مر العصور وذلك لأن ((قوانين الديناميكا الإجتماعية تبدو أكثر وضوحا عندما ينظر إليها في ضوء مجتمعات كبيرة ..)) وذلك بعكس الاستاتيكا الاجتماعية التي تعد النظم الأساسية للمجتمع كالإقتصاد والأسرة والسياسة هي وحدات التحليل السوسيولوجي الرئيسية بالنسبة لها ، وينصب جهد علم الاجتماع في هذه الحالة على دراسة العلاقات المتبادلة بين تلك النظم .

سابعا : قدم كونت تصنيفا للمجتمعات ، طبقا لقانون الحالات الثلاث والمرتكز على نوعية المعرفة في أي من المجتمعات . وقد قسم كونت المجتمعات إلى ثلاثة أنماط رئيسية هي :

أ) المجتمع العسكري : هو ذلك المجتمع الذي تفسر خلاله الأحداث والظواهر المختلفة بالرجوع إلى قوى غير طبيعية ، وهو لذلك مجتمع متحكم ومتسلط ، يعتمد على الزراعة ، وللأسرة فيه مكانة ممتازة حيث تعتبر هي الخلية الأولى أو الرئيسية ، وهي ذلك الوحدة الإقتصادية ومن خلالها تنتقل الملكية والسلطة .

ب) مجتمع الفقهاء : ويتميز ذلك المجتمع بوضوح السلطة الروحية عن السلطة الدينية وتكون السيادة فيه لأفكار أخرى غير فكرة الدين ، ومنها أفكار الوطن والدولة ، وربما كان ذلك راجعا إلى أن النوازع الدينية في مجتمع الفقهاء كما أوضحه كونت صارت موضع شك وجدل ، وهذا المجتمع وإن كان معروفا عنه أنه مجتمع التفكك والأزمات والثورات إلا أنه ضروري – في رأي كونت – للتمهيد لظهور المجتمعات الصناعية .

ج) المجتمع الصناعي : وهو ذلك المجتمع الذي يخضع فيه تفسير الأحداث والأشياء والظواهر إلى قوانين وضعية ، ويرى كونت أن ذلك النمط هو قدر الإنسانية جمعاء التي لابد لها أن تصله يوما ما .

ثامنا : واجهت أفكار كونت سواء في حياته أو بعد مماته العديد من الإنتقادات التي نوجزها فيما يلي :

١- ما ادعاه كونت من أن جميع الناس في عصره كانوا يفهمون الظواهر الطبيعية ويفسرونها بطريقة وضعية علمية ، ادعاء غير صحيح ، لأنه يجافي المنطق على اعتبار أن المنهجية العلمية شيء غير متاح لعامة الناس ، بل يكاد يتاح لخاصة الخاصة منهم بالكاد ، ومن هنا .. اعتبر كثيرون أن ادعاءات كونت في هذا المجال إن هي إلا محض خيال ومن ثم تصبح الأسباب التي دعته إلى تأسيس علم الإجتماع أسباب لا محل لها من الصحة .

٢- كونت متهم بأنه يقول غير ما يفعل .. أو يفعل غير ما يقول .. بمعنى أنه أسهب في ضرورات التزام قواعد منهجية ذات سمة علمية .. غير أنه عند التطبيق لم يلتزم بما نادي به .. بل ووقع في المحظورات عندما توصل – في غياب منهجيته – إلى قوانين فلسفية ذاتية بعيدة كل البعد عن طبائع الظواهر التي درسها أو تعرض لها .. ولعل أوضح مثال على ذلك هو قانونه المسمى بقانون المراحل أو الأدوار الثلاث ، ونفس الشيء يمكن أن يقال عن دراسة كونت للإستاتيكا لأنه انتهى خلالها إلى نهاية فلسفية نتيجة لتشبيهه للمجتمع بجسم الإنسان في نطاق قانون التضامن الذي دعا إليه .

٣- انطلق كونت في دراسته للإنسانية – خلال سعيه للتوصل لقانون المراحل الثلاث المشار إليه قبلا – انطلق وفي ذهنه تصور خاطئ عن أن الإنسانية – التي هي اهتمام علم الإجتماع لديه – كل لا يتجزأ ، ونتج عن ذلك ما نادى به كونت من أن العقل الإنساني قد سلك في سعيه لفهم وتفسير الظاهر الإنسانية ثلاثة مسارات حتمية ، وهذا المنطلق وما استتبعه من نتائج متهم بالفساد ومجافاة الواقع والتعارض مع الحقائق العلمية التي أكدت فيما بعد أن المجتمعات الإنسانية تختلف وتتباين من حيث الزمان والمكان بفعل العديد من الظروف .. وأنها لم تسر يوما على وتيرة واحدة لأن ذلك مجاف لطبيعة الأشياء .

٤- أرجع كونت التطور الذي يعتري الظواهر الإجتماعية ، إلى التفكير وربط بينهما ربطا عضويا .. بمعنى أنه كلما تطور الفكر الإنساني .. كلما تطورت ظواهر المجتمع ، والثابت أنه لا يمكن أن نرجع التطور الحادث للظواهر لعامل واحد فقط ، هذا إلى جانب أن الفكر الإنساني هو الذي يتأثر بتطور الظواهر الإجتماعية وليس العكس .

٥- بشر كونت بدين وضعي جديد خلاصته إحياء ذكرى الرجال العظام والفلاسفة جزاءا لما قدموه من أعمال جليلة للإنسانية جمعاء ، وهذا الدين الكونتي على الرغم من غرابته واتجاهه لتأليه فريق من البشر ، لا يمكن قبوله ، لأن الدين كنظام أو كظاهرة لا يمكن أن يكون مصدره اتفاق بين مجموعة من الأفراد لوضعه ثم اعتناقه ، وإنما ينشأ الدين عن مصدرين :

أ) كرد فعل للحياة الإجتماعية ووفقا لرغبات العقل الجمعي في حالات الديانات البدائية وغير السماوية .

ب) عن طريق الرسل الذين يختارهم الله سبحانه وتعالى لتبليغ رسالة محددة لطائفة من الناس في مكان أو زمان معين أو محدود كدعوة لوط وهود والأسباط ، وأحيانا لمجال مكاني وزماني أوسع

مثل الديانة اليهودية ورسولها موسى والمسيحية ورسولها عيسى عليهما السلام ، وأحيانا أخرى لكل زمان ومكان كرسالة الإسلام ورسولها محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى الأنبياء والرسل أجمعين .

تاسعا : أنه على الرغم من أن الأفكار التي اعتنقها كونت أفكار قديمة أو أنها لم تقدم نظرية إجتماعية متكاملة ، إلا أن جهد كونت مقدر حتى وان لم تتجاوز محصلته النهائية مجرد تجميع تلك الآراء والأفكار وإعادة ترتيبها ، لأن ذلك التجميع والترتيب قد أديا بغير شك إلى نمو المعرفة الاجتماعية خصوصا ما تعلق منها بالبناء الاجتماعي والتغير والثقافة والجماعات الاجتماعية والعلاقات الشخصية .

عاشرا : لا زالت كتابات وأفكار كثيرة لكونت على أصالتها حتى اليوم ، بل أن الكثير منها يعتبر أفكارا عصرية ، كتصوره عن الثقافة باعتبارها الحصيلة الكلية لإنجازات العقول الإنسانية المتفاعلة ، إلي جانب إدراكه السليم للتأثير المتبادل بين الفرد والمجتمع ، كما أن كونت قد تعرض في كتابه للكثير من المسائل والموضوعات التي تعد أساسا للإتجاهات الحديثة في علم الاجتماع المعاصر .

النظرية الاجتماعية عند أوجيست كونت : (Auguste Comte) :

تكاد تجمع الكتابات التي أهتمت بتاريخ علم الاجتماع على أن ((كونت)) هو الذي أوجد هذا العلم وأعطاه الاسم الذي أشتهر به منذ ذلك التاريخ حتى اليوم .

ويعتبر ((كونت)) زعيم المدرسة الوضعية ، ونرى من الضروري الإشارة إلى أهم أفكار ((كونت)) وأسباب نشأة علم الاجتماع عنده وموقفه الأيديولوجي ، فهو يرى أن المجتمع الإنساني في عصره يشمله الفساد في مختلف فروع حياته وأن السبب في الفساد يرجع إلى فساد الأخلاق ، إضافة إلى أن الناس في عصره كانوا يسلكون منهجين متناقضين كل التناقض في فهم الأشياء حيث يتبعون الطريقة الوضعية في فهم الظواهر الطبيعية على حين يسلكون منهج آخر وهم يريدون فهم ظاهرة من ظواهر الاجتماع الإنساني يسميها ((كونت))

الطريقة الميتافيزيقية وكانت هاتان الطريقتان متناقضتان كما هو واضح ، ورأي ((كونت)) أن أهم الوسائل التي تؤدي إلى القضاء على مثل هذه الفوضى هي التخلي عن الطريقة الدينية في فهم الأشياء وجعل الناس يفهمون جميع الظاهرات على الطريقة الوضعية .

وإن إهتمام ((كونت)) بالنظرية الاجتماعية نبع من دوافع سياسية أكثر منها علمية أو فكرة بحتة وفي ذلك يقول نيقولا تيماشيف لقد روع ((كونت)) بالآثار الهدامة للثورة الفرنسية ، شأنه في ذلك شأن كثير من فلاسفة هذه المرحلة ، وبخاصة الفلاسفة الاجتماعيين أمثال ((بوتال)) و ((دي ميستر)) كما روعته الفوضى التي ترتبت على تقويض الجماعات الاجتماعية الوسيطة بين الأسرة والدولة بالقوة ، ولذلك كان إصلاح المجتمع هو شغل ((كونت)) الشاغل منذ البداية ، وكان ذلك هو الهدف الرئيسي في حياته ، ولما كان العلم الجديد بذلك غير متاح وغير قائم ، فقد كرس جهوده لخلقه .

ولقد كان لـــ ((كونت)) دور كبير في نمو النظرية السوسيولوجية وتطورها على الرغم من أن إسهاماته الأصيلة محددة وقليلة ، وقد أتضح أنه كان مهتما بتفصيل برنامج لعلم الاجتماع لا بإقامة نظرية سوسيولوجية ، حتى الرغم من أنه قدم ثروة هائلة من الأفكار التي سبقت معظم التيارات الملحوظة في تاريخ علم الإجتماع حتى الوقت الحاضر ، فلقد مهد كونت الطريق أمام التعريف الحديث لعلم الاجتماع وأقسامه الأساسية ومن المؤكد أن هذا العلم قد أنحرف تحت تأثير ((هربرت سبنسر)) عن التصور الذي صاغه كونت وأصبح علما أصيلا ملموسا يصف عملية فريدة متمثلة في تطور المجتمع الإنساني .

ولقد رفض ((كونت)) أن ترتبط النظرية الاجتماعية بأي فلسفة نقدية أو سلبية ، كما رفض أن يولي أي إهتمام للإقتصاد السياسي كأساس لفهم المجتمع ، ورأى أن أي معارضة للحقائق الاجتماعية الواقعة يجب أن تمحي من المناقشة الفلسفية ، وقد خالف ((كونت)) فلاسفة عصر التنوير الفرنسيين الذين كانوا يقيسون العمل الإنساني أو الفاعلية الإنسانية بمقياس حقيقة تعلو على النظام الاجتماعي القائم أي بتنظيم اجتماعي لا يوجد بوصفه واقعا بل يوجد بوصفه هدفا والذين رأوا أن الناس يمكنهم تغيير أشكال الحياة الحالية التي يعيشون عليها ، وبدلا من ذلك رأى ((كونت)) أن النظام الاجتماعي القائم هو وحده الذي يمثل الحقيقة ، وأن وظيفة علمه الجديد هي مجرد تسجيل حقائق هذا النظام وبذلك كانت نظرية ((كونت)) الوضعية منذ نشأتها دفاعا أيديولوجيا

عن مجتمع الطبقية الوسطى كما كانت تحمل بـــذور تـــبرير فلســـفي للنزعة التسلطية وعودة لإلغاء العقل والتشهير بـــه وأكـــد ((كونـــت)) بفلسفته الوضعية فكرة عجز الإنسان عن تغيير عالمـــه الاجتمـــاعي وذلك بسلب ملكة النقد عنده وجعله أسير الواقع الذي يعيشه وإصـــراره على حرمانه من أعمال عقله وتصور واقع آخر مستقبلي يقيس عليـــه واقعه الحاضر ، ولقد روج ((كونت)) في فلســـفته الوضعيـــة لفكـــرة القوانين الثابتة التي تحكم الظاهرات الاجتماعية تماما مثلمـــا تحكـــم الظـــاهرات الطبيعية والبيولوجية ، وفـــي ذلـــك يقـــول ((هربـــرت ماركيوز)) .

أن علم الاجتماع عند كونت هو في أساسه دراسة ســـكونية للمجتمـــع وذلك نتيجة لسيادة تصور النظام ، ولكنه أيضـــا دراســـة حركيـــة أو ديناميكية لمجتمع بفضل وجود تصور التقدم ، وقد شـــــرح ((كونـــت)) العلاقة بين التصورين الأساسيين مرات كثيرة ، فالنظام هو الشـــــرط الأساسي للتقدم وكل تقدم يتجه آخر الأمر إلى دعم النظام .. إن التقدم في حد ذاته نظام ، يعني أنه ليس ثورة بل تطور .

الخلاصة :

يرى الكثير أن ((كونت)) من أصحاب العامل الأساسي أو المسيطر في التغير الاجتماعي ، وتتمثل هذا العامل في رأيه فـــي نمـــو الأفكـــار وتطورها ، فهو إذن يعتبر واحدا من الحتميـــين الفكريـــين ، ويـــرى البعض أن نظريته السوسيولوجية قفزة غير ناضجة أو أنها لم تصـــل مرحلة النضج من مستوى الملاحظة والشواهد المبنيـــة عليـــها إلـــى مستوى النظرية ، ولكن أهمية ((كونت)) لنا فـــي دراســـتنا للنظريـــة الإجتماعية لا ترجع إلى الناحية التاريخية مـــن إهتمامنـــا فـــي هـــذه الدراسة بقدر ما ترجع إلى حقيقة أن أفكاره وافتراضاته الأساسية مـــا زالت تمثل المنبع الرئيسي لمعظم تيارات علم الاجتماع المعاصر على الرغم من أن كثيرا من علماء الاجتماع المعاصرين يقللون من أهميته الآن ومن أن منهم من لا يشير إليـــه بـــل ويعتـــبر أن ((دوركـــايم)) Durkheim هو المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع وليس ((كونت)) ويرجـــع ذلك إلى أن الارتباط بين مبادئ ((كونت)) المنهجية والنظرية من جهـــة وبين مبادئه الأيديولوجية كان سافرا ومفضوحا بدرجة كبيرة جعلـــت المحافظين المحدثين ينفرون منه ويستبدلون نظريته بـــأخرى يختفـــي فيها هذا الارتباط ، كما أن طبيعة تطور المجتمع الغربي منـــذ أيـــام كونت قد تطلب هذا التعديل في التعبير عن افتراضاته الأساسية بحيث

توضع في صيغة يمكن أن تكون أكثر تقبلا من الناس تماما مثلما اضطر الاستعمار إلى إجراء تعديلات في صورته التقليدية ((الاستعمار العسكري)) واستبدل بها صورا أخرى أكثر خفاء وأكثر تقبلا (السيطرة الإقتصادية والسياسية والفكرية) .

٢) أميل دوركايم Emile Durkheim (١٨٥٨ – ١٩١٧) :

مقدمة :

هناك ما يشبه الإجماع بين علماء الاجتماع على أن أميل دوركايم يمثل اتجاها متميزا ومؤثرا في النظرية السوسيولوجية ، ليس في فرنسا فقط وإنما على امتداد العالم كله الأمر الذي يجعل محاولتنا لإلقاء الضوء على إسهامات دوركايم السوسيولوجية أمرا بالغ الصعوبة والتعقيد ، ولعل منشأ ذلك التعقيد وتلك الصعوبة لا يعود إلى قلة ما كتب أميل دوركايم أو ما كتب عنه ، ولكنه يعود بالدرجة الأولى إلى الكثرة .. سواء فيما كتب دوركايم نفسه أو فيما كتب عنه وعن إسهاماته وبالعديد من اللغات الفرنسية والإنجليزية والعربية وغيرها .

- وعلى كل حال فإننا سنحاول إبراز أهم إسهامات دوركايم السوسيولوجية من خلال النقاط الآتية :

أولا : عارض دوركايم النزعة الذاتية في التفسير التي كانت سائدة في عصره ، عندما قرر أن أي تفسير للظواهر الاجتماعية لا يجب أن يتم على ضوء رغبات الباحث وحالاته الشعورية والنفسية ، وإنما يجب أن نفسر هذه الظواهر على اعتبار أن لها طبيعة موضوعية ، أو على حد تعبير دوركايم نفسه ((إننا يجب أن نعالج الظواهر الاجتماعية على اعتبار أنها أشياء)) .

ولا يقلل من قيمة ما قرره دوركايم بضرورة تحديد مفهوم دقيق لمعنى الظواهر الاجتماعية ، ويرى دوركايم أن ذلك التحديد ضروري لأنه يحقق هدفين :

أ) تحديد موضوع علم الاجتماع وتمييزه عن غيره من العلوم .

ب) تحديد موضوع علم الاجتماع وتمييزه عن غيره من العلوم . ويقول دوركايم بهذا الخصوص ((انه يجب علينا أن نعلم قبل البدء في البحث عن الطريقة التي تتناسب مع دراسة الظواهر الاجتماعية – يجب علينا أن نعلم – حقيقة تلك الظاهر التي يطلق عليها الناس هذا الاسم)) .

ويضيف دوركايم ((كما أن تمييز علم الاجتماع وتحديد موضوعه يتوقف على تحديد معنى الظواهر)) .

ثالثا : حدد دوركايم خصائص الظواهر الاجتماعية من خلال كتابه ((قواعد المنهج في علم الاجتماع)) على اعتبار أنها ((ظاهر عامة تميز مجتمعا بأسره ، وتتميز من جهة أخرى بممارستها لقوة القهر على الأفراد ، وبعموميتها في الجماعة)) .

رابعا : عرف دوركايم الظاهرة الاجتماعية بناء على خصائصها المشار إليها قبلا وقال أنها ((كل ضرب من السلوك ثابتا كان أم غير ثابت ، يمكن أن يباشر نوعا من القهر الخارجي على الأفراد)) أو ((هي كل سلوك يعم المجتمع بأسره ، وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصورة التي يتشكل بها في الحالات الفردية)) .

خامسا : ميز دوركايم بين خصائص الظاهرة الاجتماعية أو الحقيقة الاجتماعية كما كان يحب أن يسميها ، وبين غيرها من الحقائق من خلال أن الظاهرة الاجتماعية :

أ) **تلقائية** ، بمعنى أن الظواهر الاجتماعية لا تدين بوجودها لفرد لأنها موجودة قبل أن يوجد الأفراد .

ب) **جبرية** ، بمنى أنها ملزمة للأفراد والجماعات على السواء ، وعلى كل من يحاول الخروج على طبيعة الحياة في المجتمع بما فيه من نظم أو ظاهر عامة عليه – فردا كان أو جماعة – أن يتحمل الجزاء الذي وضعه المجتمع لكل من يخرج على نظمه وقيمه .

ج) **عامة** ، بمعنى أن الظواهر الاجتماعية لا تتواجد في مكان دون الآخر ، وآلا فقدت خاصيتها كحقيقة عامة وخرجت عن نطاق اهتمامات علم الاجتماع .

د) **خارجية** ، بمعنى أنها مستقلة – خواصها السابقة – عن الأفراد ، بحيث يمكن ملاحظتها ((كأشياء)) منفصلة عن الحياة الفردية ، وبالتالي يمكن دراستها دراسة موضوعية إذا ما اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الإحصائي .

كما حدد دوركايم وظيفة النظم على اعتبار أنها – أي النظم – تقوم ((بإشباع حاجات الكائن الاجتماعي)) .

سادسا: تعرض دوركايم لموضوع التضامن الاجتماعي من خلال كتابه ((تقسم العمل الاجتماعي)) الذي ظهر عام ١٨٩٣ ، حيث لاحظ عندما قارن بين المجتمعات القديمة والمجتمعات الأكثر تطورا ، أن الأولى تتميز بوجود نوع من التضامن الآلي Mechanical ، أما الثانية فيسود فيها التضامن العضوي Organic ، ويعتمد التضامن الآلي على التماثل بين أعضاء المجتمع ، بينما يستمد التضامن العضوي أسسه من التباين .

ومن هنا – كما يقول دوركايم – كان الأفراد في المجتمع البدائي يتجانسون لان تقسيم العمل هناك يأخذ شكلا بسيطا ، والذي كان من نتيجته أن ساد هذه المجتمعات البدائية تضامنا آليا يخضع خلاله جميع أفراد المجتمع لما تفرضه التقاليد والرأي العام ، كما تتسم المسئولية فيها بأنها جمعية هذا علاوة على أن المكانة تورث ولا تكتسب .

وهذا على العكس من المجتمعات الإنسانية الأكثر تحضرا التي نما فيها تقسيم العمل وتطور حيث يسود فيها التضامن العضوي ، أي ذلك التضامن الناشئ عن حاجة كل واحد في المجتمع إلى خدمات الآخر ، ومن هنا كانت سيادة الفردية شيئا طبيعيا سواء من حيث المسئولية أو الجزاء ، كما تميزت المكانة الاجتماعية بأنها تكتسب ولا تورث ، كما يخضع الناس للقانون العام .

سابعا : تحدث دوركايم عن الضمير الجمعي عندما لاحظ أنه إذا ما ساد التضامن الآلي في المجتمع فان الضمير الجمعي يتميز بالضرورة بقوة ملحوظة ، ويعرف دوركايم الضمير الجمعي بأنه ((المجموع الكلي للمعتقدات والعواطف العامة بين معظم أعضاء المجتمع)) وتلك المعتقدات والعواطف العامة تشكل نسقا له طابع متميز ، ويكتسب هذا الضمير الجمعي أو العام واقعا ملموسا ، فهو يتمتع بالدوام والاستمرار ويعمل على تدعيم الروابط بين الأجيال .

ويؤكد دوركايم على أن الضمير الجمعي يعيش بين الأفـــراد ويتخلل حياتهم ، إلا أنه يكتسب مزيدا من القـــوة والتـــأثير والاستقلال حينما يتحقق نوع من التماثل الواضح بين أفـــراد المجتمع ، ذلك لان الضمير الجمعي ما هو إلا نتـــاج لذلــك التماثل الإنساني العام ، ويرى تيماشيف أن هذا هو الموقــف السائد في المجتمعات التقليدية التي تتميز بالتضامن الآلـــي . حيث يسيطر هذا الضمير – الضمير الجمعي أو العام – على عقول الأفراد وأخلاقياتهم .

ثامنا : عاد دوركايم وقدم تصورا جديدا للضمير الجمعـــي – كمـــا يقول تيماشيف – خلال كتابه ((قواعـــد المنـــهج فـــي علـــم الاجتماع The Rules of Sociology)) المشار إليه قبلا ، عندمـــا أكد دوركايم أن الضمير الجمعي يتكون عندما ينشـــأ عـــن تجمع عقول الأفراد والتحامها ، نوع من الوحدة السيكولوجية المتميزة عن الأفراد ذاتهم ، وهذا النتاج الجمعي ليـــس هـــو مجموع الأجزاء ، ذلك لان الجماعة تمـــارس أنماطـــا مـــن التفكير والشعور والسلوك مختلفا تماما عن الأفـــراد الذيـــن يكونونها ، وهذا هو الذي يجعل من الضروري – كما يقـــول تيماشيف – أن يبدأ تحليل سلوك الجماعة بدراســـة ظواهـــر جمعية بدلا من دراسة الأفراد .

واعتبر نيقولا تيماشيف أن ذلك التصور الجديد الـــذي أورده اميل دوركايم للضمير الجمعي ، اعتـــبره تعديـــلا جزئيـــا للموقف الذي سبق وان تبناه دوركايم خلال كتابـــه ((تقســـيم العمل الاجتماعي)) ، حيث ذهب دوركايم خلال كتاب ((تقسيم العمل الاجتماعي)) إلى أن الضمير الجمعـــي بتـــالف مـــن التصورات والعواطف الشائعة بين الأفراد الذيـــن يكونـــون غالية أعضاء الجماعة ، أما في كتـــاب دوركـــايم ((قواعـــد المنهج)) فأننا نجد أن التماثل العقلي والعاطفي بيـــن غالبيـــة الأعضاء مستمد من الضغط الذي يمارسه الضمير الجمعـــي على كل منهم .

تاسعا : بين دوركايم كيفية ظهور تقسيم العمـــل فـــي المجتمعـــات الإنسانية وأرجعه إلى التغيرات التـــي تحـــدث فـــي البنـــاء الاجتماعي نتيجة للزيادة في الكثافة السكانية ، حيث تـــؤدي الزيادة المستمرة في السكان إلى زيادة التنـــافس ومـــن ثـــم يضطر أفراد المجتمع إلى التخصص من اجل أن يعيشوا .

عاشرا : أقام دوركايم خلال كتابه ((تقسيم العمل الاجتماعي)) مجموعة من الارتباطات بين كل من تقسيم العمل والتضامن العضوي والضمير الجمعي والقهر الاجتماعي وعلاقة ذلك بالأخلاقيات والقيم علاوة على انعكاسات ذلك كله سواء على المجتمع أو على العقلية الإنسانية ، فقد أوضح دوركايم أن نمو تقسيم العمل في المجتمع يصاحبه بالضرورة ظهور التضامن العضوي بما يترتب على ذلك التضامن العضوي من تباين بين الأفراد وظهور نوع من التساند المتبادل بين أفراد المجتمع بما يصاحب ذلك التساند من انعكاسات على العقلية الإنسانية والأخلاقيات .

وابرز دوركايم أنه كلما زاد التضامن العضوي رسوخا في أي مجتمع كلما قل ذلك من أهمية الضمير الجمعي ، أما كيف يزداد التضامن العضوي رسوخا في المجتمع فان ذلك مرتبط بالضرورة كما يقول دوركايم بازدياد تقدم المجتمعات وتدعيمها للتقدم الأخلاقي الذي يؤكد القيم العليا للمساواة والإخاء والعدالة والحرية .

وإذا ما تأكدت تلك القيم فانه يصبح للتعاقد قيمة عالية ، وان كان دوركايم يشير إلى أن تلك التعاقدات لا تؤدي بالضرورة إلى إلغاء القهر الاجتماعي لأنه حتى في المجتمعات المتقدمة التي تعتمد على التضامن العضوي فانه يظل للقهر الاجتماعي دوره الأساسي في اختلاف صور وأساليب ذلك القهر في المجتمعات المتخلفة ، حيث يتخذ القهر الاجتماعي صورا أخرى تتناسب والتطور الاجتماعي الذي أصاب مجتمعات التضامن العضوي .

حادي عشر : استخدم دوركـــايم التحليـــل الإحصــــائي خــلال دراســـته المنوجرافية الواسعة عن الإنتحار التي أجراها فـــي اســبانيا عام ١٨٩٧ ، والتي اعتبرها كثــير مـــن العلمـــاء عرضـــا لنظريته في القهر الاجتماعي علاوة على ما فيها من توثيـــق لتصوراته عن الضمير الجمعي ، كما يعتبر استخدام دوركايم لمنهج التحليـــل الإحصــــائي إضافـــة حقيقيـــة لإســـهاماته السوسيولوجية ، حيث اســـتخدم دوركـــايم منـــهج التحليـــل الإحصائي لينتقد من جهة النظريات السابقة التـــي فســرت تباين معدلات الإنتحار على أسس سيكولوجية أو بيولوجية أو تطورية أو مناخيـــة أو جغرافية ، كما نجح دوركـــايم مـــن جهة أخرى في تدعيم تفســيراته النظريـــة السوســـيولوجية بشواهد واقعية ملائمة .

ثاني عشر : إذا ما تجاوزنا المنهج في دراســـة دوركـــايم للإنتحـــار Le Suicide وإنتقلنا إلى نتائج تلـــك الدراســـة ، تبيـــن لنـــا إن دوركايم قد إنتهى إلى إن ظاهرة الإنتحار إنما تعـــود إلـــى أسباب أخرى غير الجنس أو الوراثة أو التقليد أو إلى عوامل مرضية أو نفسية مرضية كما لا يمكن أن تعود إلى الفشـــل في الحب أو الفقر أو إلى تأثيرات العوامل الجغرافية والبيئـــة أو حتى إلى دوافع شخصية ، وإنما طبقا لتحليلات دوركـــايم الإحصائية تتجمع أسباب ظاهرة الإنتحار في ثلاثة أشـــكال أساسية نوجزها فيما يلي :

أ) **الإحساس بالفردية** ، ويرى دوركايم أن الفرد يحس بذلـك الشعور عندما يجد نفسه معزولا اجتماعيا لانعدام الروابط وفقدان الصلة التي تربطه بالجماعة .

وأوضحت التحليلات الإحصائية التي قام بها دوركايم لهذا الشكل أن الروابط الأسرية تجعل المتزوجين اقل عزلة ، وبالتالي يقل إحساسهم بالفردية وتنخفــض بينـــهم نســـبة الإنتحار ، كما أتضح لدوركايم أن إختلاف الأديـــان فـــي قدرتها على تدعيم الروابط الأسرية يلعب دورا ســـلبيا أو إيجابيا على معدل الإنتحار .. وعلى هذا الأساس اســـتنتج دوركايم أن نسبة الإنتحار بين الكاثوليك اقل منـــها عنـــد البروتستانت ، وبالتالي عند البروتستانت يكـــون معـــدل الإنتحار اقل من معدله عند الذين لا يؤمنون بدين معين .

ب) **الإحساس بالتضحية أو الإيثار** ، ويأتي ذلك نتيجة الإفراط في الإحساس بالواجب من قبل الأفراد تجاه المجتمع ، الأمر الذي يدفع الفرد لأن يضحي بذاته في سبيل مجتمعه عندما يتيقن أن ذلك هو الواجب .. ولكن الفرد قد يلجأ إلى الإنتحار كنوع من الإحساس بالذنب عندما يأتي فعلا اعتبر – سواء بواسطة الفرد ذاته أو المجتمع – مشينا للمجموع .. وضرب دوركايم مثلا لهذا النوع الأخير بإنتحار القائد الحربي عندما يخسر معركة ما .

ج) **إنتحار لأسباب مجتمعية** ، ومن أمثلتها التغير المفاجئ أو غير المنتظم الذي يؤدي إلى اختلال التوازن الاجتماعي للمجتمع ككل .. ومن أمثلتها ظهور الأزمات الاقتصادية .. التي تؤدي بالأفراد إلى عدم الإحساس بالأمان .. أو بعدم قيمة الحياة .. أو فقدان الحافز للاستمرار فيها .. فيكون الإنتحار هو احسن الوسائل – في رأي المنتحرين – للهروب أو التخلص من تلك المآزق .

ويخلص دوركايم إلى تأكيد ما سبق أن قاله عن أن الإنتحار لا يحدث لأسباب سيكولوجية أو بيولوجية أو بيئية ، وإنما يتأثر منحنى الإنتحار بالأسباب والعوامل الاجتماعية فقط ، وعلى الأخص ذلك الضمير الجمعي الذي يدفع الأفراد إلى قتل أنفسهم ، وأكد دوركايم أن أسباب الإنتحار في المجتمع سوف تبقى اجتماعية حتى وإن بدت دوافعها نابعة عن مزاج فردي .

ثالث عشر: قسم دوركايم المجتمعات خلال تطورها إلى قسمين رئيسيين ، أولهما بسيط ، محدود النطاق ، وثانيهما معقد التركيب واسع النطاق ، أولهما لا يخضع لمبدأ تقسيم العمل والوظائف فيه غير مميزة والمسئولية فيه جماعية تضطلع خلالها هيئة المجتمع بكل شئون الإقتصاد والتشريع والسياسة والتربية وغير ذلك من مستلزمات الحياة الاجتماعية ، أما القسم الثاني .. فهو على العكس تماما ، حيث تتضح فيه وظيفة ومسئولية وعمل كل فرد وتقوم خلاله العديد من المؤسسات المتخصصة التي تمارس دورا محدودا إلى جوار بروز الطبقات الاجتماعية وسيادة القانون .

ويرى دوركايم أن ابسط الأشكال الاجتماعية هو الأسبق إلى الوجود ، كما أنه أقام ثنائية للتفريق بين نموذجين من المجتمعات أولهما المجتمع الإنقسامي Segmental ،

وثانيهما المجتمع المتباين Differentiated ، ويتميز المجتمع الأول بالتجانس لأن مستوى تقسيم العمل فيه فضلا عن ضعفه فإن التمييز فيه يقتصر على العمر والجنس فقط ، كما ينقسم هذا النمط الأول إلى وحدات قرابية متماثلة من الناحية البنائية ، كما أن التكامل في هذا النموذج يرتكز على التضامن الآلي أو الميكانيكي Mechanical Solidarity ، كما أن الفرد ليس له كيان مستقل ولا شخصية متميزة عن الجماعة التي يستمد منها كل مقوماته ، كما يسود في هذا المجتمع قانون عقابي رادع .

أما المجتمع المتباين فهو مجتمع على درجة عالية من التخصص في الأدوار ، وتبرز فيه الفروق الفردية ، ويرتكز على التعاقد الحر الذي يدعمه قانون مدني يحافظ على استمراره ، كما أن هذا المجتمع يتكامل – في رأي دوركايم نتيجة للتضامن العضوي .

ومن رأي بوتومور أن دوركايم قد ميز بين مجتمعات بسيطة «مثل العشيرة» ومجتمعات إنقسامية متعددة «مثل قبائل الأيوركا» ومجتمعات إنقسامية «مثل اتحاد قبائل الأيوركا» ومجتمعات إنقسامية متعددة معقدة «مثل المدن القديمة والقبائل الجرمانية» ، كما يرى بوتومور أن دوركايم في تصنيفه للمجتمعات لم يذهب إلى ابعد من هذا الحد .

رابع عشر : أشار دوركايم في أكثر من موضع وأكثر من مؤلف خصوصا خلال الاعداد الأولى للمجلة السوسيولوجية السنوية المسماة بـ L' Annee Sociologique إلى ما كان يطلق عليه الفروع الخاصة لعلم الاجتماع ، مع تأكيد دوركايم المستمر على ضرورة تنمية وازدهار تلك الفروع على نطاق واسع ، بل وذهب دوركايم إلى حد بعيد عندما ربط بين مستقبل علم الاجتماع وبين نمو وتقدم تلك الفروع الخاصة حيث قال أن علم الاجتماع لن يصبح في مقدوره أن يكون علما إلا إذا أنتهج طريقين :

أولهما .. أن يتخلى علم الاجتماع عن دعواه الأولى بضرورة الدراسة الشاملة للواقع يمكن أن تكون موضوعات لمشكلات معينة .

وثانيهما .. أن يميز علم الاجتماع بين المزيد من الأجزاء والعناصر والجوانب التي يمكن أن تكون موضوعات لمشكلات معينة .

وتظل رؤية دوركايم بهذا الخصوص على أصالتها لو طالعنا التخطيط العام للمجلة السوسيولوجية السنوية التي صدرت عام ١٨٩٦ ، حيث تضمنت هذه المجلة سبعة أقسام رئيسية يندرج تحت كل قسم منها عدد من الأقسام الفرعية وذلك على النحو التالي :

١- علم الاجتماع العام . ويندرج تحته قسم عن الشخصية سواء عند الفرد أو الجماعة .

٢- علم الاجتماع الديني .

٣- علم الاجتماع القانوني والأخلاقي ، ويضم كلا من التنظيم السياسي ، التنظيم الاجتماعي ، الزواج والأسرة .

٤- علم الاجتماع الجنائي .

٥- علم الاجتماع الاقتصادي ويتضمن قياس القيمة . والجماعات المهنية .

٦- الديموجرافيا ، ويندرج تحتها قسما المجتمعات الحضرية والريفية .

٧- علم الاجتماع الجمالي .

وقد افصح دوركايم عن هذا الاتجاه صراحة مرة أخرى عندما كتب يقول «إن علم الاجتماع كغيره من العلوم الاجتماعية الأخرى له من الفروع بنفس القدر الذي يساوي التنوعات الموجودة في الظواهر الاجتماعية» .

خامس عشر : ابرز دوركايم الأهمية البالغة للتحديد الدقيق للعلاقات المتبادلة سواء بين النظم الاجتماعية وبعضها أو بين تلك النظم وبين البيئة المتواجدة فيها ، كما أكد دوركايم على وجود أوثق العلاقات بين مختلف الظواهر الاجتماعية حتى تلك التي تبدو متباينة اشد التباين للوهلة الأولى .. لأن الحقيقة أن كل الظواهر لا توجد إلا في حالة اعتماد تام ومتبادل مع بعضها البعض .

سادس عشر : كان دوركايم يرى أن كل ظاهرة اجتماعية لابد بالضرورة وأن ترتبط أولا ببيئة اجتماعية معينة ، وثانيا بنمط محدد من المجتمعات ، لأن عدم حدوث ذلك في رأي دوركايم إنما يعني ترك الظاهرة الاجتماعية معلقة في فراغ [illegible]

أمثلة على ذلك بظواهر الدين والقانون والاقتصاد والأفكار الأخلاقية .

سابع عشر : أكد دوركايم شأنه في ذلك شأن سبنسر على ضرورة اعتبار المجتمعات وحدات للتحليل السوسيولوجي ، وحدد هوية علم الاجتماع بأنه «علم دراسة المجتمعات» ، وطالب بضرورة القيام بدراسات مقارنة لمختلف أنماط المجتمعات ، واعتبر دوركايم الدراسات المقارنة لب علم الاجتماع عندما كتب صراحة في كتابه الشهير قواعد المنهج يقول «إنه لا يمكن لنا أن نفسر أي ظاهرة اجتماعية مهما كانت درجة تعقيدها إلا عن طريق تتبع عملية التطور التي مرت بها تلك الظاهرة خلال مختلف التكوينات الاجتماعية» .

ومن هنا فإن علم الاجتماع المقارن لا يعتبره دوركايم مجرد فرع من فروع علم الاجتماع بل هو علم الاجتماع نفسه .

ثامن عشر : قدم دوركايم منهاجا خاصا للبحث السوسيولوجي ، وارتكز هذا المنهاج على شقين .. شق يتعلق بالظاهرة المبحوثة ذاتها .. والشق الآخر يتعلق بالباحث السوسيولوجي نفسه ، ولقد شرح دوركايم في الشق الأول كيفية التعامل مع الظاهرة المبحوثة ، وزود في الشق الثاني الباحثين الاجتماعيين بعدد من النصائح .

وعلى كل يمكننا أن نورد أهم أفكار دوركايم المنهجية على النحو الآتي :

أ) زود دوركايم الباحثين الاجتماعيين بعدة نصائح أو قواعد من أهمها :

١- أنه على الباحث الاجتماعي أن يتحرر من أفكاره السابقة عن الظاهرة التي يتناولها بالدراسة والبحث ، وعليه أيضا إلا يتأثر بمشاعره الخاصة أو بتجربته الشخصية عند تعامله مع الظاهرة المبحوثة .

٢- على الباحث الاجتماعي أن يتعامل مع الظواهر الاجتماعية باعتبارها أشياء ذات كيان مستقل عن شعوره الداخلي ، وأن يعالجها معالجة وضعية باعتبارها – أي الظاهر – مادة للتجربة وللملاحظة العلمية أو باعتبارها ذات شخصية علمية مستقلة .

٣- على الباحث أن يبدأ بحثه بتحديد الظاهر المبحوثة وتعريفها بدقة ، ولن يتيسر للباحث ذلك إلا إذا عمل على تصنيف الظاهر الاجتماعية محل الدراسة إلى طوائف متجانسة لأن ذلك سوف يمكن الباحث من تحديد الخواص والخصائص المشتركة بين مختلف الظواهر موضوع البحث من جهة ، وسوف يمكن الباحث من جهة أخرى من التعرف على مختلف العناصر والأسباب التي تفسر وجود الظاهرة وتوضح طبيعتها وأشكالها المتعددة .

٤- على الباحث السوسيولوجي أن يبذل قصارى جهده أثناء ملاحظته للظواهر الاجتماعية محل الدراسة للتعرف على الحالات التي تبدو فيها الظاهرة مستقلة عن صورتها الفردية .. بمعنى أن يهتم الباحث بعمومية الظاهرة .. وإلا يقع فريسة لبعض الحالات الفردية التي قد تتجسد فيها الظاهرة ، لأن جهد الباحث في الكشف عن الظواهر الاجتماعية وهي مجردة من الصور الفردية يمثل الضمان للكشف عن طبيعة الظاهرة والوقوف على حقيقة أمرها .

ب) أما فيما يتعلق بكيفية دراسة الظاهرة ذاتها فقد حدد دوركايم ثلاثة خطوات رئيسية نوجزها فيما يلي :

١- ضرورة تحليل مكونات الظاهرة المبحوثة ، مع دراسة مختلف أشكالها وكيف نشأت ، لأن ذلك هو السبيل الوحيد لفهم طبيعتها مع عدم الاقتصار على الحاضر أثناء دراسة الظاهرة بل يجب الرجوع إلى الماضي والربط بينه وبين الحاضر .

٢- التعرف على الوظيفة التي تؤديها الظاهرة الاجتماعية المبحوثة خلال مراحل تطورها المختلفة مع دراسة علاقتها بغيرها من الظواهر الاجتماعية سواء المشابهة أو غير المشابهة ، مع الاستعانة في ذلك كله بمنطق المقارنة .

٢ - لابد من تحديد القوانين التي تسير الظاهر الاجتماعية ، مع صياغتها صياغة دقيقة باعتبار أن الهدف النهائي للدراسة هو الوصول إلى القوانين في صورة كمية أو كيفية ، مع الأخذ في الاعتبار أن القوانين ذات الصورة الكمية هي التي تعبر عن الظاهرة رقميا ، أما تلك القوانين ذات الصورة الكيفية هي تلك القوانين التي تبرز الخواص والصفات العامة للظاهرة المبحوثة إلى جانب توضيح مختلف مكوناتها وعلاقاتها المتبادلة بغيرها من الظواهر الاجتماعية وغير الاجتماعية .. الخ .

ج) اعتمد دوركايم بصفة أساسية على منهج متميز للبحث السوسيولوجي امتزج فيه التاريخ بالإحصاء علاوة على العديد من المقارنات التي كان يجريها على الظواهر الاجتماعية محل الدراسة بحيث تتم المقارنة بين نظم وظواهر سائدة في مجتمع واحد أو بين مجموعة من المجتمعات المتجانسة من حيث الدرجة والنوع أو بين مجموعة من المجتمعات المتمايزة والتي لا تنتمي لشكل اجتماعي واحد .

والمقارنة تهدف إلى معرفة كيفية تطور الظواهر الاجتماعية ، وهل يتم ذلك التطور على وتيرة واحدة لدى كل المجتمعات ، أم يتم ذلك بشكل مختلف ، ثم ما هي الظروف التي تخضع لها الظواهر الاجتماعية في كل مجتمع على حدة ؟ .

المهم أن تلك المقارنات ضرورية لتأكيد عمومية القوانين الاجتماعية .

تاسع عشر :تعرض دوركايم للكثير من النقد خصوصا لتمييزه المجتمع على حساب الفرد ، الأمر الذي أدى في رأي معارضيه إلى التمكين للاتجاه أو للنزعة السوسيولوجية المتسلطة والتي تثير الكثير من الاعتراضات .

ومن الأمور التي تؤخذ على دوركايم أيضا أنه سعى إلى تحويل علم الاجتماع إلى مجرد مذهب فلسفي ، إلا أن تلاميذ دوركايم تصدوا لكل إنتقاد بالرد والتمحيص .

ولعل من اشهر معارضي دوركايم هو مواطنه الفرنسي [illegible] مونيرو» الذي ألف عام ١٩٤٦ كتابا تحت عنوان «الظواهر الاجتماعية ليست أشياء» وبمجمل وجهة نظر مونيرو أن منطق علم الاجتماع بتشكل من ظواهر الجاذبية التي يمكن فهمها فهما حقيقيا تلافيا الخطأ الشائع لدى علماء الاجتماع وباحثيه نتيجة لفهم الحوادث بطريقة ثم وضعها بطريقة أخرى تخرجها عن طبيعتها ، ومن رأى مونيرو أن الظواهر الاجتماعية إن هي إلا ظروف إنسانية محددة بالزمان والمكان ، وعلم الاجتماع عليه أن يدرس نتائج تلك الظروف ، ويوجد تشابه في هذا المجال بين مادة الدراسة في كل من علمي الاجتماع والتاريخ لكن علم الاجتماع يتميز بأنه يضفي معنى جديدا من خلال رؤيته الخاصة للظواهر التي درست عن طريق علوم إنسانية أخرى .

في محاولة للدخول في عالم الذين اثروا مكتبة علم الاجتماع بالأعمال الرائعة والخالدة في دراسة البنائية الوظيفية ، في المرحلة الكلاسيكية من خلال أعمال العالم الشهير "أميل دوركايم" والذي تعتبر أعماله دراسة شاملة للمنطقة والفلسفة والطريقة العلمية التي تعتمد على استقراء الحوادث . وهذا ما جعل مؤلفاته تمتاز عن مؤلفات من سبقوه .

وسنستعرض معا أهم ما أضافه دوركايم في علم الاجتماع من دراسات كان لها اكبر الأثر في تدعيم مركز هذا العلم بين العلوم الأخرى .

وإذا بدأنا بكتابة "قواعد المنهج الاجتماعي" نجد أنه خصصه لدراسة الظواهر الاجتماعية ، تعريفها ، وخواصها ، وطرق ملاحظتها ، وتفسيرها ، ودراستها إجمالا .

وفي تعريفه للظواهر الاجتماعية يقول :

أنه "كل ضرب من السلوك ، ثابتا كان أو غير ثابت ، يمكن أن يباشر نوعا من القهر الخارجي على الأفراد ، أو هي سلوك يعم المجتمع بأسره ، وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصور التي تتشكل فيها في الحالات الفردية .

واهم ما اشتهر به "دوركايم" في كتابه هذا ، هو رأيه في وجوب دراسة الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء خارجية بالنسبة إلى شعور الأفراد .

وقد دافع عن هذا الرأي بقوله :

"أن الشيء يقابل الفكرة بمعنى أن معرفتنا له تأتي من الخارج على حيث أن معرفتنا بالفكرة تأتي من الداخل والشيء هو كل ما يصلح أن يكون مادة للمعرفة .

وهو كل ما لا نستطيع أن نكون لأنفسنا عنه فكرة تنطبق عليه تمام الإنطباق لمجرد قيامنا لعملية عقلية تحليلية .

وهو كل ما لا يستطيع العقل إدراكه إلا بشرط ، أن يخرج من عزلته ، وأن ينتقل بالتدريج وعن طريق الملاحظة والتجربة من خواصه الأكثر ظهورا والأقرب تناولا إلى خواصه الأكثر خفاء وإلا يعد نمورا .

وحينئذ فليس معنى أننا نعالج طائفة خاصة من الظواهر على أنها أشياء هو إننا ندخل هذه الظواهر في طائفة خاصة من الكائنات الطبيعية ، بل معنى ذلك إننا نسهل حيالها مسلكا عقليا أي إننا نأخذ في دراستها المبدأ الآتي :

وهو ، إننا نجعل كل شيء عن حقيقتها ، وإننا لا نستطيع الكشف عن خواصها الذاتية أو عن الأسباب المجهولة التي تخضع لها عن طرق الملاحظة الداخلية ، مهما بلغت هذه الطريقة مبلغا كبيرا من الدقة ، ومهما كانت هذه الظواهر داخلية بالنسبة إلينا .

كما يدل على تعريفه فإن شعورنا بها لا يوقعنا في الواقع على حقيقتها الداخلية ولا على طريقة نشأتها ، فالمعرفة التي تأتي عن طريق هذا الشعور معرفة مقصورة ، ويمكن تثبيتها بالاحساسات التي تعرف بها الحرارة والضوء والصوت والكهرباء .

فهذه كلها احساسات غامضة عابرة شخصية ، وليست معاني واضحة محددة يمكن استخدامها في تفسير الظواهر .

أما عن اعتبار الظواهر الاجتماعية خارجية بالنسبة إلى شعور الأفراد ، فيري "دوركايم" إنه على الرغم من ضرورة وجود الأفراد حتى يوجد المجتمع ، وعلى ذلك فالظواهر الاجتماعية لا توجد في أجزاء المجتمع ، ونعني بهما هنا أفراده ، وأنها توجد في تقبل المجتمع الذي أوجدها .

ولقد اهتم "دوركايم" بفكرته عن خاصية القهر المصاحبة للظواهر الاجتماعية ، وهو يرى في ذلك "إن ضروب السلوك والتفكير

الاجتماعيين أشياء حقيقية توجد خارج ضمائر الأفراد الذين يجبرون على الخضوع لها في كل لحظة من لحظات حياتهم .

ومما سبق نرى أن "دوركايم" يعتبر أن الظواهر الاجتماعية توجـــد خارج الفرد وتأتى إلى عقله كل شيء خارجي على شـــكل قواعـــد خلقية أو دينية أو قانونية أو منطقية .

ويتابع عالمنا أميل دوركايم أعماله الرفيعة المستوى ، وتعرج علـــى كتابه "تقسيم العمل الاجتماعي" والذي أصدره سنة ١٨٩٣م ، ونجـــده قد حلل فيه التضامن الاجتماعي من حيث أسبابه وأشكاله وآثاره .

وقد اتخذ "دوركايم" الجزء الأول من تقسيم العمـــل معـــاملا للتغـــير وحاول أن يربط بينه وبين الظواهر الاجتمـــاعية والنفســـية والتـــي تتغير نتيجة للتغير الذي طرأ على تقسيم العمل .

ويمكن أن نخلص أهم ما انتهى إليه "دوركايم" في هذا الشأن إلى مـــا يلي :

١. إن تقسيم العمل إذا كان ضئيلا كان لذلك أثره علـــى تصرفـــات ونفسية الإنسان .

٢. يكون للجريمة وقع كبير على الجماعة في المرحلة الأولي ، وعلى ذلك يكون مرتكبها وجماعته مسئولين جميعا عنها وينالهم جميعـــا العقاب .

   أما إذا زاد التقسيم العملي فتصبح الجريمة فردية ويعاقب عليـــها مرتكبها فقط .

٣. يكون التضامن بين الأفراد في المرحلـــة الأولـــى علـــى أســـاس ميكانيكي :

   Mechanical Solidarity ، يقوم على أساس التشابه بين الأفـــراد حيث تكون الرابطة بينهم ناتجة عن اتحادهم في الرأي العام نتيجة للتشابه العقلي والخلقي بينهم .

   وبذلك يحل التضـــامن العضـــوي Organic Solidarity ، محـــل التضامن الميكانيكي .

٤. يقوم التنظيم الاقتصادي في المرحلة الأولى على أساس الملكيـــة الجمعية بينما تظهر الملكية الفردية والفردية الاقتصادية والتعـــاون التعاقدي والحرية في اختيار الحرف وانهيار الأوضاع الاقتصادية

الوراثية وظهور المواهب والقــدرات الخاصة . تأتي كــل هــذه الأوضاع نتيجة للتوسع في تقسيم العمل .

٥. تشترك الجماعة كلها في معالجة أمورهــا السياســية والقضائيــة والاجتماعية في المرحلة السابقة لتقسيم العمل ، بينما يتغير الأمــو بعد ذلك بظهور التخصــص الوظيفي السياسي وظـــهور النظــم التعاقدية بين الحكومة والأفراد .

في إحدى دراساته البحثية ، يتناول "دوركايم" موضـــوع أو قضيــة الإنتحار ، وقد كان إسهامه موفقا في التمييز على ثلاثة أشكال يقــع بسببها الإنتحار :

١- إنتحار سبب الشعور بالفردية ، ويحدث عندما يشـــعر الفــرد بعزلته اجتماعيا .

٢- إنتحار بسبب الشعور بالإيثار ، ويحدث نتيجة شــعور الفــرد بالواجب نحو المجتمع الذي ينتمي إليه لدرجة تضمينه بنفســه من أجله .

٣- إنتحار بسبب التغير المفاجئ أو غير المنتظم وتمثلــه حــوادث الإنتحار التي توجد بالمجتمع نتيجة للاختـــلال فــي التــوازن الاجتماعي للمجتمع .

النظرية الاجتماعية عند أميل دوركايم :

عاش "دوركايم" في الفترة ما بين ١٨٥٨ – ١٩١٧ وهو يعــد مــن أوائل الفرنسيين في علم الاجتماع الذين ساروا في طريـــق العمــل الأكاديمي ومن ابرز الملامح البنائية للمجتمع الذي عاش فيـــه ، أن فرنسا كانت تنوء في أوائل ومنتصف لقرن التاسع عشر بـــالثورات ، وأما عن مجتمعه الذي قضى فيه سنوات الطفولة والتنشئة الاجتماعية الأولى ، فقد كان مجتمع يهودي محافظ متضامنا تســوده علاقــات مباشرة ومع أنه إنتقل إلى باريس حيث المجتمع المتباين فلــم ينــس ارتباطاته الأولى حتى أن يخيل للمرء أن تصوره للمجتمع لم يخــرج عن هذين النمطين ، مجتمع الطفــولة البسيط ومجتمـــع العاصمــة المعقد ، كما اتضح من تصوراته للتضامن الآلي والتضامن العضوي .

النظرية عند دوركايم : (Emile Durkheim)

إن نظرية دوركايم في علم الاجتماع تميزت بقدر كبير من الاتساق ، ممــا جعلها تشغل مكانة بارزة ، وتؤثر في الأجيال التالية من الباحثين ، لا في نطاق فرنسا فحسب ، بل في الولايات المتحدة أيضا ، والسبب الأساســي

في ذلك هو قدرة دوركايم على تقديم إجابات واضحة ومحددة للمشـــكلات الرئيسية في النظرية السوسيولوجية .

ويعرف دوركايم علم الاجتماع بأنه «علم الظواهر الاجتماعيـــــة والنظـــم الاجتماعية ثم ينتقل إلى تحليل الظواهر الاجتماعية ، ويركز في المحـــل الأول على مبلغ قوة تلك الظواهر في ممارسة نوع من الإلزام أو القـــهر على السلوك الاجتماعي ، أو بلغة العلم الحديـــث ، إنـــه يعنـــي بتحليـــل الظواهر الاجتماعية باعتبارها جزء من جهاز الضبط الاجتماعي وفي هذا الصدد نلاحظ أن مناقشاته للضمير الجمعي – برغم تنوعـــــها – تـــهدف عموما إلى توجيه اهتمامنا نحو ضروب التأثير التـــي يحدثـــها التفـــاعل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية في اتجاهات الفرد وأفكاره وعواطفـــه ، ويرجع ذلك في رأي دوركايم إلى أن الوجود الواقعي للمجتمع يسبق حياة الفرد وينظر العلم الحديث إلى أعمال دوركايم على أنها تدخل – إلى حـــد ما – في نطاق المذاهب التطورية وتتبدى هذه النزعة التطورية بوضـــوح في مواضيع كثيرة ، فنحن نلمسها في نظريته عن التطور من التضــــامن الآلي إلى التضامن العضوي ، وافتراضه وجود مراحل ضروريـــة يمـــر خلالها التنظيم الاجتماعي ، كما تتبدى أخيرا فـــي نظرتـــه للمجتمعـــات البدائية المعاصرة ، باعتبارها تمثل أولى مراحل التطور ، ومع ذلك هـــذه النزعة التطورية لا تسيطر تماما على أفكار دوركايم فالإطار التطوري لا يمثل إلا جزء يسيرا من البناء النظري الذي تمكن من إقامته .

والواقع أن معالجة دوركايم للظواهر الاجتماعية والضمير الجمعـــي قـــد عملت على خلط كثير من الحقـــائق السوسيولوجية الهامة ببعض الأفكـــار المضللة ، بل والخاطئة ، فهو يعتقد إننا نخطئ بالضرورة حينمـــا تفســـر الظواهر الاجتماعية في ضوء سلوك الأفراد ودوافعهم ، ويرجع ذلك إلـــى أن صياغة الظاهرة الاجتماعية يقتضي أن يخضع السلوك الفردي لعمليـــة تشبه تركيب القوى ، بحيث تكون المبادئ التي تحكم هذه العملية ليســـت هي مبادئ علم النفس الفردي ؛ فليس هناك من شك – مثلا – في أن أحـــد من أعضاء المجتمع يرغب في حدوث كساد اقتصادي واسع النطـــاق ، أو يخطط لذلك ، ولكن حدوث مثل هذا الكساد ينتج عن موقف جديد يتـــألف من التكامل بين ضروب الســـلوك الفردي ، التي يكمن وراءهـــا دوافـــع عديدة ، ويؤكد دوركايم أن كثيرا من الظواهر غـــير المقصـــودة وغـــير المرغوبة مثل الكساد والحروب وفقدان القوة السياسية وارتفاع معـــدلات القلق العصابي ، تتطلب تفسيرات اجتماعية لا تفسيرات نفسية ، ومـــع أن دوركايم قد أكد أهمية تلك الحقائق ، إلا أنه حين ناقش الضمير الجمعي ، وصل إلى درجة من الواقعية ، لا شك في ذلك ، كما أن للفـــرد وجـــوده الواقعي ، وهما أيضا في تفاعل مستمر ، فمـــن المضلـــل إذن أن نمنـــح لأحدهما أولوية أو أسبقية على الآخر ؛ ومن المؤكد أن مبالغة دوركايم في اتجاهه السوسيولوجي كانت لها دور إيجابي في مساهماته الأساسية فـــي

نظرية علم الاجتماع ومنهجه ، فقد كشف على نحو واضح أن الظواهر الاجتماعية وقائع قائمة بذاتها ، كما أوضح الأهمية الاجتماعية والثقافية لتقسيم العمل ، وحلل طبيعة التضامن الاجتماعي ونتائجه المتعددة ، واظهر دور الضغوط الاجتماعية على النشاط الإنساني ، وهو ما لم يكن واضحا قبل ذلك ، وهو فوق ذلك كله يتفق مع «ماكس فيبر» على ضرورة اهتمام علماء الاجتماع بالقيم والمثاليات في الحياة الاجتماعية ، كما تعرض لكثير من المشكلات المنهجية المعقدة ، واثبت عمليا أهمية البحث الامبيريقي في علم الاجتماعي .

ويمكن تلخيص أهم معالم فكر دوركايم فيما يلي :

١. أن دوركايم سلم بأن المجتمع عبارة عن نسق من الأخلاقيات لا يمكن ملاحظته مباشرة ولكن يمكننا أن نستدل عليه من بعض الآثار التي يمكن ملاحظاتها ، أي أنه رأى أن أساس المجتمع هو أساس فكري وأخلاقي لا نستطيع أن ندرسه مباشرة ولكن من خلال ما يفصح عنه من سلوك وأشياء قابلة للملاحظة .

٢. يرى أن أفراد المجتمع عليهم أن يخضعوا تماما للضمير الجمعي وما يحتويه من مبادئ وقواعد أخلاقية .

٣. هدف دوركايم كان الحفاظ على النظام الاجتماعي بأي ثمن وبأي طريقة .

ويظهر تأثير دوركايم في تخصصات معينة مثل علم اجتماع القيم وعلم اجتماع الصناعي والقانوني والجنائي وعلم اجتماع المجموعات الصغيرة والتنظيمات الاجتماعية والتغير الاجتماعي .

ولا بد أن نشير هنا إلى الوظيفة كمنهج وطريقة تحليل عند دوركايم :-

فإن دوركايم له موقف من التيار الوظيفي عند سبنسر فلقد رفض دوركايم الاتجاهات المتعسفة التي ترى أن التصور أو التذكر مجرد حالة فسيولوجية تتضمن عنصرا عصبيا أو شوكيا ، حسيا كان أو حركيا ، ولا يمكن أن تشتق الحياة العقلية عن حياة الخلايا العصبية فالعقل حقيقة مستقلة قائمة بذاتها وليس ظلا للحياة البيولوجية ، كما أكد دوركايم على الحقيقة الاجتماعية وميزها باستقلالها القائم بذاته عن الظواهر البيولوجية وكما أن الخطأ الذي وقع فيه أصحاب النزعات الحيوية والاتجاهات العضوية في علم الاجتماع البيولوجي ليس قائما على استخدام المنهج البيولوجي ، ولكن مرجع الخطأ في رأي دوركايم - إنما يمكن في استخدام هذا المنهج استخداما خاطئا ، فلقد حاول البيولوجيون إضفاء الطابع البيولوجي على علم الاجتماع وأن يجعلوا منه امتداد للبيولوجيا

وتلك نظرة خاطئة ينكرها دوركايم فالظواهر الاجتماعية لها وجودها المستقل عن غيرها من سائر الظاهرات البيولوجية والفسيولوجية .

ويستخدم دوركايم الوظيفة بمعنيين مختلفين يشير المعنى الأول إلى وجود نسق من الحركات الحيوية ، تلك الحركات الضرورية لحياة الكائن العضوي ، أما المعنى الثاني فيعبر عن العلاقة التي تربط بين تلك الحركات الحيوية وبين حاجات الكائن العضوي ، ويأخذ دوركايم بالمعنى الثاني للوظيفة ، ذلك المعنى الذي يربط بين الحركات الحيوية ، وبين الحاجات الضرورية لحياة الكائن العضوي ، وكثيرا ما يستخدم مصطلحات أخرى ، كي يشير بها إلى المعنى الوظيفي كان يستعمل كلمة "دور" بدلا من كلمة وظيفة بمعنى أنه حين يتكلم عن وظيفة تقسيم العمل فإنه يتكلم عن "دورة" .

ولقد أكد دوركايم الوظيفة الاجتماعية للدين والطقوس والشعائر من اجل الوحدة والتماسك وترجع أهمية نظريته العامة عن الدين إلى عمق ما جاء فيها مما كان له الأثر في تطوير الكتابات في علم الاجتماع الديني .

وهناك مساهمات أخرى معاصرة للنظرية الوظيفية قام بها علماء الاجتماع الأمريكان على رأسهم بارسونز حين أعلن أن الجهود الرئيسية التي يقوم بها علماء الاجتماع إنما تتمركز حول تحليل المجتمع بالنظر إليه على أنه «نسق من المتغيرات التي تتساند وتتوظف في معية واحدة ، بمعنى أن تحليل كل نسق أو عملية اجتماعية ، إنما يستند إلى دراسة حدود هذا النسق التي تحفظه وتصونه ولقد تأثر بارسونز في كتاباته الوظيفية بدراسات مالينوفسكي دوركايم وباريتو ، فيبر» .

٣-هربرت سبنسر Spencer (١٨٢٠-١٩٠٢) :

ظهرت بداية النظرية السوسيولوجية عند سبنسر عام ١٨٥٠ من خلال كتابه «الاستاتيكا الاجتماعية» الذي اوضح خلاله أن التقديم إنما هو تطور من الأشكال المتجانسة والموحدة إلى الأشكال المتعددة وغير المتجانسة ، وأن ذلك التطور ينسحب على المجتمع تماما كما ينسحب على الكائنات العضوية .

وظل المبدأ التطوري يشكل وحده أساس نظرية سبنسر في علم الاجتماع ، حتى أضاف إليه اجتهادا آخر يمكن أن يوصف بأنه الركيزة الثانية للنظرية الاجتماعية لدى هربرت سبنسر ، إلا وهو «المماثلة العضوية» الذي اعتبره سبنسر مبدئيا يجب الاعتراف به وأوجد على أساسه نوعا من التماثل والمقارنة بين المجتمع وبين الكائن الحي ، واعتمد ذلك التماثل بين المجتمعات والكائنات الحية في

مفهوم سبنسر على عدة تطابقات من أهمها ظاهرة النمو الواضحة والمستمرة لدى كليهما سواء أكان ذلك النمو في الحجم أو الوظيفة .

وعلى كل يمكننا أن نوضح ابرز إسهامات سبنسر السوسيولوجية من خلال النقاط الآتية :

أولا : قدم سبنسر تحديدا للموضوعات التي يلزم – في رأيه – على علم الاجتماع أن يهتم بها حيث أوضح سبنسر خلال كتابه «أسس علم الاجتماع» ذو المجلدات الثلاث والمنشور عام ١٨٧٧ ، أنه يلزم على علم الاجتماع أن يهتم بوصف :

أ) الوحدات الاجتماعية محل الدراسة من حيث .. كيفية ظهورها .. كيفية تتابع أجيالها .. كيفية نموها .. وأخيرا كيفية اعداد تلك الأجيال للتعاون .. ومن هنا يتحتم – في رأي سبنسر – أن يحتل موضوع تطور الأسرة الاهتمام الأكبر في الدراسات السوسيولوجية .

ب) كيف نشأ وتطور التنظيم السياسي داخل المجتمع ، مع الأخذ في الاعتبار أن التنظيم السياسي هو الذي يتولى تنظيم شئون المجتمع من خلال التنسيق بين أفعال الأفراد الذين يعيشون داخل المجتمع عن طريق ضوابط معينة تفرض عليهم خلال تعامل كل منهم مع الآخر .

ج) كيف نشأت وتطورت الأبنية الكنسية «الدينية» وما هي وظائفها ، علاوة على وصف وتوضيح كيفية تنظيم نسق الضوابط للأفعال الأصغر .

د) المراحل التي مر بها القطاع الصناعي في المجتمع ، علاوة على تطور ونمو الأبنية التنظيمية التي أمكن للقطاع الصناعي أن يوجدها ويطورها داخل المجتمع .

ثانيا : حدد سبنسر ميادين علم الاجتماع من خلال دراسة الأسرة ، السياسية ، الدين ، الضبط الاجتماعي ، والصناعة أو العمل ، علاوة على دراسة الاتحادات والمجتمعات المحلية وتقسيم العمل والتباين فضلا عن دراسة الفنون والجماليات .

ثالثا : من رأي الكس انكلز خلال كتابه «ما هو علم الاجتماع» أنه من المؤكد أن سبنسر لم يكن ليوافق على اقتصار علم الاجتماع على عدد محدود من النظم أو العمليات الاجتماعية كالأسرة أو الضبط الاجتماعي ، حيث أكد على التزام علم الاجتماع بدراسة

علاقات التفاعل بين مختلف عناصر المجتمع وبيان التأثير المتبادل بين الأجزاء والكيان الكلي للمجتمع .

رابعا : اعتبر سبنسر أن المجتمع ككل هو وحدة التحليل السوسيولوجي التي يجب أن يهتم بها المشتغلون بعلم الاجتماع .. مع الأخذ في الاعتبار أن أجزاء المجتمع مع التسليم بأنها تعتبر وحدات منفصلة ومتميزة إلا أن ذلك ليس معناه أو وجود تلك الوحدات وجود عشوائي .. بل هناك بالضرورة رباط الجزء بالكل من خلال علاقة دائمة ومتصلة تجعل المجتمع بكل وحداته «كيانا كليا له مغزى» على حد تعبير انكلز .

خامسا : من أبرز إسهامات سبنسر السوسيولوجية تصوره لتطور المجتمعات والتي سلكت في رأيه خطين رئيسيين :

أولهما .. أن المجتمعات البسيطة تتطور خلال نموها إلى مستويات مختلفة من المجتمعات المعقدة ، وبعبارة أخرى فإن المجتمعات المركبة تنبعث عن المجتمعات البسيطة ، ومركب المركب من المجتمعات إنبثق عن المجتمعات المركبة .. وهكذا ، وأوضح سبنسر أن المجتمع البسيط يتكون من الأسر ، أما المجتمع المركب فإنه ينشأ نتيجة لاتحاد تلك الأسر في عشائر ، أما إذا اتحدت هذه العشائر في قبائل فينشأ عنها ما يسميه سبنسر بمجتمع مركب ٢ «تربيع» أي مركب المركب ، أما إذا اتحدت القبائل في دول وأمم فإن المجتمع الجديد هو مركب ٣ «تكعيب» أي مركب مركب المركب ، وهكذا كلما كبر الحجم كبر البناء وتطور .

أما الخط الثاني لتطور المجتمعات في رأي سبنسر ، فيتمثل في التحول الكبير الذي يطرأ على تلك المجتمعات سواء من حيث نماذج التطور فيها أو من حيث وظائفها ، علاوة على التحول الذي يبدل المجتمعات العسكرية مثلا إلى مجتمعات صناعية .. الخ .

سادسا : يعتبر سبنسر الممثل الحقيقي للنظرية التطورية ، والتي ترتكز على مبدأ «البقاء للإصلاح» ، حيث يعتمد التقدم التطوري على الصراع من اجل البقاء ، ويرجع سبنسر التوازن الاجتماعي من حيث النشوء أو الاستمرار لذلك الصراع الذي هو ضروري حيث يحل التجانس محل عدم التجانس .

سابعا : من رأي تيماشيف أن الإسهام الحقيقي لسبنسر في النظرية السوسيولوجية يتمثل في :

أ) نظريته التطورية .

ب) المقابلة بين المجتمع والكائن الحي .

ومن رأي بعض العلماء أن سبنسر إن هو إلا مناصر للاتجـــاه العضوي السوسيولوجي ، ومن رأي البعض الآخر أن سبنســر إن هو إلا تطوري في المقام الأول .

ثامنا : لم يقدم سبنسر تعريفا لعلم الاجتماع رغم مؤلفاته المتعددة عنـه ، ولكنه كان يرى أن علم الاجتماع هو «علم المجتمع» ، ومـن رأيـه أيضا أنه يجب على علم الاجتماع أن يفسر الحالـة الراهنـة للمجتمع من خلال التركيز على مراحل التطور الرئيسية وتطبيق قوانين التطور عليها ، وهدف علم الاجتماع كما يراه سبنسر هو «تفسير الحاضر المعروف بواسطة الماضي غير المعروف» .

ويقول تيماشيف أن علم الاجتماع بالنسبة لسبنسر هو «العلم الذي يدرس الظواهر فوق العضوية ، أو التطــور فــوق العضــوي» ويشرح تيماشيف تصور سبنسر لما فوق العضوي فيقــول .. أن هناك اتصالا في التطور الذي يحدث في العالم غــير العضــوي للمادة غير الحية ، ثم التكور في العضــوي أو العــالم الحــي ، وأخيرا التطور في تجمعات من الكائنات الحية داخل المجتمع .

تاسعا : قدم سبنسر إلى جوار نظريته في طبيعة المجتمع أربعة نظريـات أخرى تدور حول :

أ) الحكومة .. التي اعتبرهـا ظـاهرة عرضيـة فرضتـها ضرورة التنظيم الذي هو لازم لتكامل المجتمع .. ومــن التنظيم ما هو تلقائي يحقق رغبات ومصالح الأفراد ومنـه ما هو مقصود تلجأ إليه الحكومة وتفرضه على الشــعب بالقوة والقهر بهدف تحقيق الصالح العام .

ويشترط سبنسر لقيــام الحكومة أن تكون البيئـة ممـدة وصالحة من الناحية السياسية ، وأن تكون جميع هيئـات المجتمع وطبقاته على درجة متساوية من حيـث التشـابه والحساسية والوعي الجمعي والاستجابة لمختلف المؤثرات والعوامل الاجتماعية والسياسية الطارئة .

ب) الاقتصاد .. يؤمن سبنسر إيمانا مطلقا بالمقولة الاقتصادية الشهيرة «دعه يعمل .. دعه يمر» وكان لذلك مــن غــلاة المدافعين عن الفردية وعن النظريات الاقتصادية الحـرة ، وطالب الحكومات – تحت ظروف النكسات الاقتصاديـة

التي عايشها – بعدم التدخل في الشئون الاقتصادية .. التي دعا لأن تكون حرة في نطاق المنافسة الحرة .

ج) السكان .. كان سبنسر من اشد المشايعين لمالتس ، وقرر أن عدد النسل يتناسب تناسبا عكسيا مع درجة النمو الجسمي بالنسبة للحيوان والنمو الحضاري بالنسبة للمجتمعات ، على اعتبار أن النسل إن هو إلا تأكيد للوجود الذاتي وإضافة مقومات جديدة تتخذ كرصيد للمقاومة في ميدان الصراع .. بمعنى أن الحيوان كلما كان قويا في حد ذاته يكون في غنى عن ذرية كثيرة تسانده في صراعه من اجل البقاء ، أما بالنسبة للإنسانية فإنها كلما تطورت وأصبحت في مستوى راق من حيث التفكير أو الذكاء .. فإن الأفراد عندئذ سيلجئون إلى استخدام الكيف لا الكم في صراعهم من اجل حياة افضل .

د) الأخلاق .. عرف سبنسر الأخلاق بأنها سلوك الإنسانية ، والعمل أو الفعل الأخلاقي في رأيه هو ما اتفق مع ظروف الحياة وكان أكثر مطابقة للطبيعة الإنسانية .

والإنسان – في رأي سبنسر – يتجه دوما وراء لذة أو تجنبا لحدوث ألم ، وعليه فإن الفعل الأخلاقي .. هو ذلك الفعل أو العمل الذي يحقق للفرد سعيه .. والمقياس هنا دوما هو حصول المنفعة عن طريق تحصيل اللذة أو تجنب الألم .

وعليه فإن المعيار الأخلاقي كما يراه سبنسر هو .. إن اللذة أو المنفعة هي الأساس في الحكم على مدى أخلاقية أو عدم أخلاقية أي فعل من الأفعال .

عاشرا : لقيت نظريات سبنسر وآراؤه العديد من الإنتقادات لعل من أهمها :

أ) أن نظريته في التطور تنطوي على العديد من المغالطات .. لأن التطور لا يسير دوما من البسيط إلى المركب أو من البساطة إلى المركب أو من البساطة إلى التعقيد .

ب) اخطأ سبنسر عندما تعامل مع المجتمع ككائن حي وطبق عليه نفس قوانين علم الحياة .. وعلى الرغم من أن أعضاء المجتمع كأفراد يمكن تطبيق قوانين علم الحياة عليهم .. ولكن ذلك لا يعني أن المجتمع كائن حي كبير نظرا للاختلاف والتفرد الذي هو سمة كل عضو من أعضاء المجتمع .

ج) التقسيم الذي أنتهى إليه سبنسر للمجتمعات تقسيم لا يستند إلى حقائق الأمور .. خصوصا تقسيمه لها على أساس الوظيفة .. وإن كان ما ذكره ينطبق على بعض المجتمعات التي عايشها أو قرأ عنها .. فإنه لا ينطبق دوما على كل المجتمعات خلال مراحل تطورها المختلفة .

د) اتسمت نظرياته في الحكومة والاقتصاد والسكان والأخلاق بالفردية والأنانية والإنتهازية أحيانا .. ومما يؤخذ على سبنسر أنه استغل الظروف الغير مواتية للحكومة في بلاده فأطلق العنان لنظرياته في السياسة والاقتصاد .

ه) تورط سبنسر في العديد من الأخطاء المنهجية ، فبالرغم من مناداته بضرورة الاعتماد على الملاحظة والتجربة إلا أنه اغرق نفسه في الفروض والاحتمالات التي تنطوي على الكثير من الفلسفة والقليل من العلم ، هذا إلى جانب ميل سبنسر إلى اصدار الأحكام التقويمية خلال تعامله مع الحقائق العلمية في ذات الوقت الذي كان يجب عليه فيه أن تكون أحكامه من النوع التقريري لا التقويمي ، كما اتهم سبنسر بعدم الدقة وعدم الأمانة معا .. فأما عدم الدقة فراجع إلى عدم قدرته على الاستقراء وقلة صبره على البحث وعلى جمع المؤيد والمعارض من الآراء ، أما عدم الأمانة فراجع إلى أنه استخدم المنهج التاريخي بطريقة تحيزية .. إن أنه جمع واختار من النماذج ما يؤيد وجهة نظره فقط .

وتنهض نظريته تلك على افتراضين :

أولهما .. أن غريزة الجنس تدعو إلى التناسل والتكاثر ، وثانيهما .. أن الطعام من المقومات الأساسية للحياة البشرية ، وانتهى مالتس إلى أن قدرة الإنسان على زيادة إنتاجيته من الطعام أقل بكثير من قدرته على التناسل والتكاثر ، بمعنى أن نسبة الزيادة في السكان أقل من نسبة زيادة إنتاج الطعام ، أي أن هناك تناسبا عكسيا بين زيادة النسل وزيادة الطعام ، وانتهى بحث مالتس إلى أن إعادة التوازن ما بين زيادة النسل وزيادة الطعام هو مسئولية الطبيعة بكوارثها وأوبئتها ومجاعاتها من جهة ، ومسئولية الإنسان من جهة أخرى سواء فيما يقوم به من حروب أو فيما يلجأ إليه بإرادته لتقليل نسبة التناسل والتكاثر كان يتعفف أو يؤخر سن الزواج أو أن يلجأ لاستخدام موانع النسل .

ولقد أثرت نظرية مالتس هذه في الفكر الاقتصادي لفترات طويلة امتدت حتى بداية القرن التاسع عشر ، وعرف علم الاقتصاد خلالها بأنه العلم المتشائم ، وامتد ذلك التشاؤم ليكون سمة الفكر الإنساني كله آنذاك ، ولكن ما لبثت نظرية مالتس أن فقدت الكثير من بريقها خصوصا مع زوال الظروف التي قادت مالتس لاستنباطها ومن أهمها عجز موارد الثروة في بريطانيا عن مواكبة الزيادة الرهيبة في السكان آنذاك – أواخر القرن الثامن عشر – ، علاوة على البؤس المصاحب للحروب الفرنسية ، والطرق البالية التي سلكتها الحكومات في مواجهة مشكلة الفقر .

كل ذلك إلى جانب تصدي عدد قليل من المفكرين الاقتصاديين للرد على نظرية مالتس ، وإن كان ذلك التصدي قد ارتكز في رأينا على ركيزتين ، أولهما .. الخطأ المنهجي الذي وقع فيه مالتس عندما استخلص نتائجه وفقا لظروف الحرب وعجز الحكومات في بعض الدول عن مواجهة مشكلة الفقر ، علاوة على عدم دقة مقاييسه التي استخلص بناءا عليها معدلاته الاجتماعية للتناسب ما بين السكان والموارد .. ، أما الركيزة الثانية لنقد نظرية مالتس ، فتكمن في النظرية ذاتها ، بمعنى عدم قدرتها على التنبؤ بما يمكن أن يطرأ على موارد الإنتاج من تغيرات كمية وكيفية نتيجة للتقدم العلمي المستقبلي .

ولكن يبقى لنظرية مالتس إيجابياتها الكثيرة .. كناقوس خطر للمجتمعات الغربية في أعقاب الثورة الصناعية والتحول عن الإقطاع ، فضلا عن صلاحية العديد من آراء مالتس بالنسبة لكثير من المجتمعات النامية في وقتنا الراهن ، انظر حول إسهامات سبنسر وفكرة :

Herbert Spencer, Descriptive Sociology, Vol. (Leuest races (London, ١٨٧٤.)

النظرية الاجتماعية عند سبنسر ((Herbert Spencer)) :

فالمجتمـــع في رأيه كائن فوق عضوي يظهر من خلال تجمـــع الكائنـــات العضوية الفردية ، أما التصور الحديث للثقافة بوصفها نسقا مـــن أســـاليب الفعل والتفكير المتصلة والمترابطة فيما بينهما فقد كان غائبا في كتاباتـــه ، مع أن المفهوم الحالي للثقافة كان جديرا بأن يقوده إلى عجز منهجه وعـــدم كفايته ، ومن أهم ما يتصل بهذا المفهوم أن كل وحدة ثقافية ينبغي إدراكـــها وفهمها في سياقها ، حيث لا يمكن فهمها بمعزل عن هذا الســـياق . لكـــن سبنسر – على النقيض من ذلك – اتجه إلى عزل الوحدات الثقافيـــة عـــن مركباتها واختبر صلاحيتها إلى أنماطها التي يعرفها من قبل . أما مشـــكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع فقد حلها سبنسر بنزعته الفرديـــة المتطرفـــة ، فالفرد وهو الأسمى وهو صاحب السيطرة والصدارة ولا ينبغي للمجتمع أن يتدخل في حياة الناس فالفرد يعمل وهو في عمله هذا يحقق اعظم منفعة لـه وللمجتمع في الوقت عينه ، لم يكن سبنسر آحاديا سوسيولوجيا ، فلم يعيـن عاملا واحد يدفع المجتمع عبر مراحل التطور المختلفة ، فالعملية التطورية الكلية في رأيه هي القوة الأولى ، وهي القوة الدافعة التي تفسر كل شـيء ، وهي قوة غير قابلة للمعرفة وغير شخصية ، تعين كل موجود في كل آفاق الوجود ، لكن أفكاره عن الاضطرابات ، وهي مـــالم يفصلـــها بتعمـــق – توضح أنه كان يميل إلى الاعتقاد بأن ما من عامل واحـــد يحـــدد التغـــير ويشخصه .

أما المنهج الذي استخدمه سبنسر فكان منهجا مقارنا فـــي جـــانب منـــه ، والباحث الذي يصطنع هذا المنهج يقارن بين المجتمعـــات أولا ، وحينئـــذ يفسر الوحدات الفردية التي سلط عليها الضوء بالمقارنة في ضوء أهميتـــها بالنسبة لتطور الكل – لكن سبنسر قد استخدم – في الواقع الاستنباطي . فقد بدأ بنظرية اكتشفت بواسطة الاستنباط ثم اشتق من هذه النظرية ضـــرورة مراحل معينة ، وعندئذ كسا هذه المراحل المجردة لحما ودما عن طريـــق الاستشهاد بأمثلة من هنا ومن هناك تناسب نسقه أو مذهبه ، وقـــد ألحـــق سبنسر تقييمه للمجتمعات إلى بسيطة ، ومركبة مرتيـــن ، ومركبـــة ثلاثـــا بتقسيمات فرعية تدور حول أشكال القيادة من ناحية والنموذج البدوي وشبه المستقر والمستقر من ناحية أخرى ، وكان من المفترض سلفا أن يتمكـن – بعد أن حدد هذه المجتمعات من التحقق مما إذا كانت هذه المجتمعات التـــي ذكرها تتم بتماثل في السياسة والدين والقانون ، إلا أنه من المؤكد أنه لم يقم بأي تحقيق ولم يقدم اية نتائج وضعية ، فالنموذج المجتمعي نفســـه ولنقـــل مركب المركب مثلا وكما يبدو في تصنيفه قد يفتقد القيادة ، أو يتمتع بقيـادة غير مستقرة ، أو بقيادة مستقرة تماما ، مما يشير إلى إمكان وجود فـــروق كبيرة في السياسة – والناس أما أن يكونوا بدوا أو شبه مستقرين مما يشـير إلى وجود اختلافات ضخمة في التنظيمات الاقتصادية ، كان يتجنى علـــى سبنسر أن يتحقق من أن المجتمعات التي تعيش نفس المرحلة من التطور لا

تتمتع بالضرورة وفقا لمبدأ لتباين البنائي بأوجه شبه في السياسة والدين والأخلاق والفن ، وغير ذلك من الملامح الثقافية وعلى العكس من ذلك توجد النماذج المتشابهة من الحكومة والأشكال الدينية بين نماذج بنائية مختلفة من المجتمعات .

وإذا ما عقدنا مقارنة بين نظرية سبنسر ونظرية كومت ، وجدنا ان الأولى لم تكن نظرية سوسيولوجية بالمعنى الذي يشير إليه هذا الاصطلاح اليوم فقد قام كومت بصياغة نظرية أساسية تفسر القطاع الإجتماعي من الحقيقة ، وحاول أن يصف الوقائع الإجتماعية ويفسرها في ضوء هذه النظرية المحدودة ، لكن سبنسر كان يتطلع إلى ابعد من ذلك ، فقد قام بصياغة نظرية تكاملية عن الحقيقة كلها ، فقانونه عن التطور قانون كوني ، ولذا تعد نظريته فلسفية في المحل الأول وليست سوسيولوجية – ويمكننا أن نلاحظ – مع ذلك – أن فلسفة سبنسر كانت تمجيدا لفيزياء عصره ، وهي الفيزياء التي كانت في حالة تطور وتحول ، فالفيزيائي يرفض الآن كثير من نظريات الفيزياء القرن التاسع عشر ، ولما كانت نظرية سبنسر تنهض على هذه الفيزياء ، فإننا نستطيع أن ندرك أن جانبا كبيرا من مذهبه الفكري قد عفا عليه الزمان – وهنا يكمن الخطر دائما ، حينما يبني نسق العلم الإمبيريقي على أساس نظرية فلسفية تضرب هي أيضا بجذورها في نتائج إمبيريقية وقتية وصل الناس إليها في عصر معين ، ومع ذلك لاقت آراء سبنسر على خلاف آراء كومت رواجا وذيوعا ضخما خلال حياته وسيطرت على عقول كثير من الدارسين وغيرهم منذ ١٨٦٥ حتى ١٨٩٥ تقريبا ، وقد تمتعت نظرياته بجاذبية شديدة ، لأنها استجابت لحاجتين أساسيتين لهذا العصر ، الأولى هي الرغبة في توحيد المعرفة والثانية الحاجة إلى مبرر علمي لمبدأ «دعه يعمل» ، وهو المبدأ الذي كان يسيطر على المناخ الايديولوجي في إنجلترا والولايات المتحدة في ذلك .

الخلاصة :

مع أن معالجة سبنسر لعلم الاجتماع كانت معالجة نظرية في المحل الأول . إلا أنه كان على هذا العلم في رأيه أن يخدم هدفا يتمثل في وضع مبادئ للسياسة الاجتماعية ، ولنذكر هنا كومت الذي ابتكر هذا العلم ليوجه الناس نحو بناء مجتمع افضل أما سبنسر فكان على النقيض من كومت ، يبتغي من علم الاجتماع أن يوضح ضرورة عدم تدخل الناس في العمليات الطبيعية التي تجري في المجتمع ، فقد كان يؤمن بالحرية غريزة موروثة ، بحيث أن أي تدخل في هذه الغريزة سوف يترتب عليه آثار ضارة .

نجد أن التنظير في علم الاجتماع اصبح اكثر فعالية وعلمية في نظريات دوركايم عن المجتمع والدين ونظريات ماركس عن الصراع مع عدم إنكار الجهود التي بذلت من قبل فهي بمثابة حجر الأساس للمحاولات التالية :

٤– فريدريك لوبلاي Leplay «١٨٠٦ – ١٨٨٢» :

كان لوبلاي – شأنه في ذلك شأن كونت – مهتما بالإنحلال والتفكك الاجتماعي المعاصر له ، والذي كان يعتقد أنه واحد من آثار الثورة الفرنسية ، وترك هذا الاهتمام بصمات واضحة على إسهامات لوبلاي في النظرية السوسيولوجية ، حيث كان شاغله الأول هو .. كيفية إيجاد نوع من التوافق يمكن أن يعيد التوازن والاستقرار لذلك المجتمع أو النظام الاجتماعي العام (المفكك والمنحل) .

وتطلع لوبلاي إلى تحقيق ذلك الهدف على أساس الحلول القائمة على المعرفة الامبيريقية Emprical ، وارتكز منهجه في ذلك على الدراسات التي تستند على الملاحظة الدقيقة والواعية للظواهر الاجتماعية من خلال مجموعة من المصطلحات التي وضعها في إطار موحد يطابق في أسسه وجوانبه واتجاهاته ما يعرف الآن بمنهج دراسة الحالة Casestady.

وعلى كل يمكننا أن توجز إسهامات لوبلاي السوسيولوجية من خلال النقاط الآتية :

١– اعتبر كثير من العلماء ، أن الإطار الموحد للدراسة والذي قدمه لوبلاي يعتبر الإضافة الحقيقية له في النظرية السوسيولوجية ، كما يرى البعض أن الطريقة الجديدة التي انتهجها لوبلاي خلال بحثه عن الأسرة كانت الأساس لما يعرف اليوم بطريقة «الملاحظة بالمشاركة» ، وهي إسهام لا شك أنه أضاف الكثير إلى المنهجية العامة للعلم الاجتماعي .

٢– أكد لوبلاي في مختلف دراساته على الأسرة والعمل والمكان على اعتبار أنهم يشكلون معا في رأيه الثلاثية المركزية للدراسة السوسيولوجية - مع استخدام ميزانية الأسرة بوصفها تعبيرا كميا عن حياة الأسرة من جهة ، وعلى اعتبار أنها من جهة أخرى أساسا للتحليل الكمي للوقائع الاجتماعية .

٣– وضع لوبلاي بداية لنظرية عامة جديدة في البناء اللاجتماعي من خلال مفهومي السعادة والشقاء ، وفي رأيه أن السعادة تتحقق – لو تم إشباع حاجتين أساسيتين ، أولهما مادية .. وتتمثل في الحاجة إلى الخبز اليومي ، وثانيهما حاجة لا مادية وتتمثل في السنن الإنسانية .

وحينما يحقق البناء الاجتماعي القائم إشباعا تاما لهاتين الحاجتين الأساسيتين فالسعادة تتحقق بالضرورة ، أما الشقاء فهو حادث لا محالة لو عجز البناء الاجتماعي القائم عن تقديم إشباع كامل لهاتين الحاجتين المادية واللامادية .

٤- أوضح تيماشيف أن البناء الاجتماعي الذي يتحقـق مـن خلالـه مفهومي السعادة والشقاء كما أوضحهما لوبلاي يتكون - أي ذلـك البناء - من سبعة عناصر تكون هي الأخرى ثلاث طبقات علـى النحو الآتي :

أ) أساسان Two Bases هما القانون الأخلاقي العام والسـلطة الأبوية .

ب) لحمتان Two Cements تتمثلان في الحكومة والدين .

ج) ثلاثة مواد Patronage هي على التوالي .. الملكية الجماعيـة ، الملكية الفردية ، والرعاية .

هذا وتتولى الطبقتان الأولى والثانية «الأساسان واللحمتـان» إشباع السنن أو الأعراف الاجتماعية ، أما مهمـة الطبقـة الثالثة «الملكية بنوعيها العام والخاص فضلا عن الرعايـة» فقاصرة على تحقيق حاجة الجنس من الخبز اليومي .

٥- قدم لوبلاي نظرية في التغير ، وقد لقيت هذه النظرية الكثير مـن الاعتراضات حيث اتهم تيماشيف لوبلاي من خلال نظريته تلـك أنه - أي لوبلاي - لم يكن يؤمن بالتطور ، وعلى كل فان نظرية لوبلاي في التغير اعتبرت دائرية في المقام الأول ، بمعنى أنـها تمثل حلقة مفرغة لا يمكن الخروج منها ، حيـث تبـدأ الدائـرة بالبساطة فالتعقيد ثم الهرم حتى تصل إلى واحد مـن احتمـالين ، الأول الإصلاح .. أما الثاني فهو الدمار ، على أنه تجدر الإشـارة هنا إلى أن لوبلاي قد ركز معظـم اهتماماتـه علـى المرحلـة الانحلالية من التغير الاجتماعي التي تشير إلى التحول من السعادة إلى الشقاء .

٦- أنصف سوروكين Sorokin خلال مؤلفه الممتاز عن «النظريـات السوسيولوجية» الذي نشـره عـام ١٩٢٨ ، أنصـف لوبـلاي ومدرسته ، ل وخلده كعلم في تاريخ علم الاجتماع لأن لوبلاي في رأي سوروكين :

أ) اكتشف منهجا محددا لتحليل الحقائق الاجتماعية ، والمنـهج الذي يعنيه سوروكين بالطبع هو منهج «دراسة الحالة» .

ب) استطاع أن يصل إلى نسق سوسيولوجي واضح علاوة علـى التعميمات الكبيرة التي توصل إليها مـن خـلال دراسـاته المتعددة والمنوعة .

ج) أن لوبلاي تمكن من الوصول إلى عدة فروض علمية ، وقدم العديد من المقترحات العلمية المتعلقة بتحسـين الأوضـاع المجتمعية ، فاستحق لوبلاي بذلـك - في رأي سوروكين - أن يكون رائدا مبرزا لعلم الاجتماع التطبيقي .

لويس هنري مورجان .Morgan, L (١٨١٨-١٨٨١) :

تتضح الإسهامات السوسيولوجية عند مورجان من نظريته المسماه بنظرية التطور الثقافي ، التي ترتكز على الأهمية البالغة للعوامل التكنولوجية في المجتمع والتغيرات التي تحدث فيه ، وقد ميز مورجان خلال نظريته تلك بين ثلاثة مراحل رئيسية في التقدم الثقافي وربط بين كل مرحلة منها وبين اختراع تكنولوجي عظيم ، وما استتبع ذلك كله من تطور واضح في الدين والأسرة والملكية والتنظيم السياسي .

ولقد آمن مورجان بأن كل الناس ايا كانوا يخضعون في تطورهم للمراحل التي حددها هو للتطور ، واستند مورجان في زعمه هذا على أساسين ، أولهما توحد الخبرة البشرية ، وثانيهما تماثل الحاجات الإنسانية لدى كل بني البشر اينما وجدوا .

المهم أن مورجان قد أوضح أن المجتمعات تمر أو مرت خلال تطورها بثلاثة مراحل رئيسية هي .. الوحشية ، البربرية ، والمدنية ، كما بين أيضا أن مرحلتي الوحشية والبربرية تنقسم كل واحدة منهما إلى ثلاثة مراحل فرعية وعلى النحو الذي سنوضحه في السطور التالية :

- **نظرية التطور الثقافي عند مورجان :**

نشر مورجان نظريته تلك خلال كتابه «المجتمع القديم» الذي ظهر عام ١٨٧٧ ، هذا ويمكننا أن نلخص آراء مورجان من خلال نظريته على النحو التالي :

١- يرى مورجان أن التقدم التكنولوجي يستتبعه بالضرورة تغير في النظم الاجتماعية السائدة حتى يكون هناك توافق ما بين تلك النظم وبين ما أحدثه التقدم التكنولوجي من تغيرات .

٢- قسم مورجان المجتمع البشري على امتداد تاريخه الطويل إلى ثلاثة تصنيفات رئيسية تتسم كل منها بمظاهر وخصائص متميزة ، مع تركيز مورجان على أن كل مرحلة من هذه المراحل الثلاثة تبدأ باختراع تكنولوجي عظيم ، وبين مورجان تلك المراحل على النحو الآتي :

أ) مرحلة التوحش Savagery

ب) مرحلة البربرية Barbarism

ج) مرحلة الحضارة Civilization

كما أن المجتمع خلال مرحلتي التوحش والبربرية قد مر بمستويات ثلاث .. دنيا ، وسطى ، عليا ، وأن جواز المرور بين ذلك كله كان اختراعا تكنولوجيا عظيما .

٣. من أبرز ما أوضحته نظرية التغير الثقافي عند مورجان أن المجتمع البشري قد بدأ من أول السلم .. متوحشا .. ثم بربريا .. ثم متحضرا ، وقد تقف بعض قطاعات من البشرية عند مرحلة من هذه المراحل وقد تمتد شواهدها حتى اليوم ، ومن الأمثلة التي ضربها مورجان في هذا الشأن التشابه الكبير بين ثقافة مرحلة البربرية الدنيا والثقافة السائدة حاليا بين جماعات الايروكوا .

٤. أكدت نظرية مورجان أن أية تطورات في المجالات الاقتصادية تتبعها بالضرورة تغيرات في شكل الملكية والقرابة والأسرة والسلطة وما إليه .

٥. ميز مورجان خلال نظريته تلك بين نمطين من المجتمعات .. أولهما المجتمع البدائي الذي سماه Societasn ، والمجتمع الحضري الذي أطلق عليه Civitas ، على أساس خواص كل مهما على اعتبار أن :

أ) مكانة الفرد ودوره يعتمدان في النمط الأول على أساس من العلاقات الشخصية ، بينما يتحددان في النمط الثاني عن طريق آخر غير طريق العلاقات الشخصية .

ب) لا توجد طبقية بين أفراد المجتمع في النمط الأول حيث يعتقد الجميع أنهم ينتمون لأصل واحد وإنهم جميعا سواسية ، بينما تبرز الطبقات الاجتماعية في النمط الثاني .

ج) العلاقات الاجتماعية ترتكز على القرابة في النمط الأول ، بينما ترتكز في النمط الثاني على نظم أخرى كالملكية والسلطة وتقسيم العمل .. الخ .

د) تسود في النمط الأول كل من العشيرة والقبيلة ، بينما السيادة في النمط الثاني للدولة .

٦. أكد تيماشيف أنه على الرغم من أنه لا يعتبر مورجان احد الآباء المؤسسين لعلم الاجتماع على حد تعبيره ، أكد على أن مورجان ونظريته عن التطور الثقافي أثرا كبيرا على ماركس وزميله انجلز وعلى الماركسيين من بعدهما حتى صارت كتابات مورجان جزءا من علم الاجتماع الماركسي .

٥- رادكليف براون : البناء والوظيفة في المجتمع البدائي :

كما اسلفنا بالوقوف على الأعمال النبيلة في العلوم الاجتماعية للعالم "أميل دوركايم" .

فإننا نتعرض بالحديث في هذه الدراسة إلى واحد من الذي ساروا على خطى "دوركايم" ، ونجد أن له إسهاماته النفيسة في خدمة علم الاجتماع ، ذلكم هو العالم البارع : "رادكليف براون" .

وهذه سياحة داخل أعماله البحثية في هذا المجال ونظرياته العلمية ، ولعله أي "رادكليف براون" من أهم من أكدوا على الاهتمام بالوظيفة الاجتماعية للدين .

ففي كتابه "البناء والوظيفة في المجتمع البدائي" يشير بوضوح إلى أن هناك طريقة أخرى لدراسة الدين ، وهي النظر إلى أي دين على أنه جزء هام وأساسي في العملية الدينية الاجتماعية .

وبمعنى آخر الدين جزء من نسق مركب من خلاله يستطيع الناس العيش معا وبنظام ثابت للعلاقات الاجتماعية ، ومن خلال وجهة النظر هذه ، فإننا لا ننظر إلى أصول Qrigins الأديان ولكن نهتم بالوظائف الاجتماعية Social Functions ، لها أي إسهامات الأديان في تشكيل واستمرار النظام الاجتماعي .

وهناك من يذهبون إلى أن الدين الصادق True فقط هو الذي يساعد على تشكيل الحياة الاجتماعية المنظمة .

ولكن الغرض الذي نتبناه هنا هو أن الوظيفة الاجتماعية للدين مستقلة عن صدق أو كذب الدين . فالدين يمكن أن يكون خطأ بالنسبة لنا ، مثل الأديان عند القبائل الهمجية ، ويكون عنصرا هاما للعملية الاجتماعية في تلك المجتمعات ، وبدون هذه الأديان "الكاذبة" فإن التغيير الاجتماعي للحضارة الحديثة يعد امرا مستحيلا .

وكذلك نجد أن رادكليف براون Radcliffe Brown ، يعرف الدين على أنه في كل مكان هو تعبير في شكل أو آخر عن إحساس بالاعتماد أو التبعية لقوى خارج أنفسنا .

هذه القوى قد ينظر إليها على أنها روحية أو أخلاقية ، كما يرى رادكليف – براون أن التعبير الأساسي عن هذا الإحساس هو الشعيرة .

٦- مالينوفسكي : Malinowski والنظرية العلمية للثقافة :

كمن سبقوه من العباقرة جاء "مالينوفسكي" برؤياه المتعلقة بالمرحلة الكلاسيكية التي عاشها واسهم في دراساتها الدائرة حول العلوم الاجتماعية .

ويرى مالينوفسكي Malinowski ، أن المعرفة الوضعية واجراءاتها غير كافية أو شاملة لتفسير كل الظواهر طالما أن هنالك باستمرار منطقة غير واضحة وخارجة عن تحكم الإنسان ، وهي منطقة الأديان والسحر .

وكذلك نجد إسهاماته الدراسية عن جزر التروبرياند Trobriand ، لاحظ مالينوفسكي أن سكان هذه الجزر يملكون كما هائلا من المعلومات عن الفلاحة والتي تشكل المصدر الرئيسي لمعيشتهم .

كما نجده يرى أن ذلك الكم من المعلومات والأنشطة الخاصة ، قد ارتبطت به بعض الشعائر السحرية ، فكما تقول "في كل عام تقام سلسلة من الشعائر في الفلاحة ..."

فطالما أن قيادة عمليات الفلاحة في أيدي السحرة ، وطالما أن العمل الشعائري والممارسات ترتبط بنظرة سطحية ، فإن هذا يؤدي إلى اختلاط السلوك الاسطوري بالعقلي ، كما لا يمكن تمييز أيا منهما لدى السكان أو حتى على مستوى التحليل العلمي .

ويذهب مالينوفسكي إلى أن سكان هذه الجزر يفرقون تفرقة واضحة بين ما يمكن انجازه بالوسائل العلمية وما يبقى ليحل عن طريق الاعتقادات السحرية أو الشعائر .

ويستخدم السحر فى الحالات التي تكون فيها المشاعر قوية وشديدة ، في بعض الأنشطة ، إلى الدرجة التي لا يمكن معها الاعتماد على الاجراءات الامبيريقية فقط .

ويصبح الدين والسحر بمثابة مخارج من المواقف أو المآزق التي لا مخرج منها عبر الطريق الامبيريقي ولا حل لها الا بواسطة الشعائر والاعتقاد والايمان بما هو روحاني أو فوق عضوي .

وتتواصل أعمال مالينوفسكي حين حاول أن يبين – أننا لكي نبتعد عن التفسير الوضعي ينبغي أن نشير إلى أنه في كثير من الحالات لا يمكن أن تكون المعرفة والاجراءات العقلية مناسبة كلية مع البيئة .

ولهذا فالاعتقادات السحرية والدينية والشعائر ليست خطأ [illegible] فريزر ، ولكنها استجابات لنوع مختلف من [illegible] يعتر[illegible] هي بالنسبة للذين يمارسونها أو [illegible]تقدون فيه .

فلكل من الدين والسحر ، كما يرى مالينوفسكي هذا ، وهنالك أعمـــــال كثيرة سيأتي ذكرها في هذه الدراسة .

٧- فلفريدو باريتو Vilfredo Pareto «١٨٤٨-١٩٢٣» :

يعتبر باريتو من علماء الاجتماع المبرزين نتيجة لإسهاماته السوسيولوجية المتعددة والتي استهدفت استخدام الاسس الرياضية لاقامة منهج للبحث في علم الاجتماع ، والتي تناولت كذلك تحديد نقاط الالتقاء والاختلاف بين علم الاجتماع وغيره من العلوم بهدف تحديد الميادين المستقلة التي يجب أن يرتادها علم الاجتماع .

كما تناولت إسهامات باريتو إقامة نظرية للفعل الاجتماعي ارتكزت على تحليل دقيق للسلوك الإنساني ، كما يعتبر تصور باريتو للمجتمع باعتباره «نسقا يحقق توازنا» من أبرع إنجازاته إلى جانب نظريته عن «دورة الصفوة» .

هذا ويعتبر كتاب «مقدمة عامة في علم الاجتماع» الذي أصدره باريتو عام ١٩١٥ ، والذي ظهرت ترجمة إنجليزية له عام ١٩٣٦ تحت عنوان «العقل والمجتمع» يعتبر هذا الكتاب اخلد أعمال باريتو والذي جلب عليه شهرة كبيرة ، وعلى كل حال فإنه يمكننا أن نوجز إسهامات باريتو السوسيولوجية على النحو الآتي :

أولا – نظرة باريتو لعلم الاجتماع :

خلال كتاب المقدمة المشار إليه .. تحددت نظرة باريتو لعلم الاجتماع الذي اعتبره علما امبيريقيا عليه أن يستخدم المنهج التجريبي المنطقي الذي يعتمد بصفة أساسية على الملاحظة العلمية والاستنتاج المنطقي وفقا لقواعد الاستقراء التي حددها ميل J.S. Mill ، وعلى كل فإن أهم أفكار باريتو في هذا الشأن هي :

أ) طالب باريتو بضرورة التمييز بين العلم التجريبي والمنطقي وغيره من العلوم غير التجريبية وغير المنطقية واعتبر تلك التفرقة أساسا مهما في تحليل حياة المجتمع وتاريخه ، واعتبر باريتو أن العالم التجريبي أي القابل للملاحظة عالم يتكون من مجموعة من الظواهر والعلاقات التي يمكن إدراكها حسيا وبالتالي يمكن إخضاعها للقياس .

ب) اعتبر باريتو بناءا على نظريته تلك أن أي فكرة لا تخضع لمنطق الملاحظة والتجريب ، لا يمكن اعتبارها ضمن دائرة العلم ، كما أنه فرق بين القيمة العلمية لأية نظرية وبين قيمتها الواقعية .

الاستقرائي الذي نادى به واستخدم بدلا منه تصنيفا قائما على الحدس .

ج- اعتبر تيماشيف أن تحليل باريتو للقوى الداخلية في الحياة الاجتماعية ينطوي على فائدة كبيرة ، كما أنه – أي تيماشيف – قد لاحظ أن تفسير باريتو ينهض على نظرية نفسية وهذا التفسير بمقاييس الحاضر يعتبر تفسيرا مضللا نظرا للدور الشامل الذي تلعبه الثقافة والعوامل النظامية في السلوك الإنساني .

د- يرى بيرسي كوهن أن نظرية باريتو عن الفعل الاجتماعي قد أثارت العديد من الصعوبات خصوصا ما تعلق منها بأسباب عدم منطقية الفعل الاجتماعي ، كما أنتقد كوهن ارتكاز باريتو خلال تفسيره للسلوك أو الفعل الاجتماعي على العديد من الأخطاء السيكلوجية المرفوضة من وجهة نظر علم الاجتماع ، كما أن النماذج التي قدمها باريتو تعتبر من وجهة نظر كوهن نماذج غير مناسبة لعجزها عن التفسير الملائم لمختلف جوانب الفعل الاجتماعي .

هـ- شارك كوهن تيماشيف في إنتقاده لباريتو من حيث إهماله للثقافة ولدورها في المجتمع .

و- يشارك جنزبرج تيماشيف الرأي في أن باريتو لم يلتزم بالمنهج الاستقرائي الذي نادى به ، ويضيف أن باريتو لم تتح له الفرصة ليطبق المنهج الذي اعتنقه ، وإن كان تيماشيف قد استثنى من ذلك تحليل باريتو لدورة الصفوة .

ز- يرى جنزبرج كذلك أن باريتو قدم الكثير من التعريفات والمفاهيم الغامضة والتي لم يفلح طول الشرح والإسهاب والمقارنات المطولة التي عقدها باريتو في توضيح تلك المفاهيم أو الإبانة عنها .

ح- من العلماء من يعتبر كتاب المقدمة وهو اعظم إنجازات باريتو لا يدخل ضمن نطاق علم الاجتماع على الإطلاق لأنه لا يتناول الظواهر الاجتماعية ولكنه يتعرض للتوازن بين الأمم والمراحل التاريخية والطبقات ، ومن أبرز هؤلاء العلماء بانزيو الذي يقور

أن الإنصاف يقتضينا أن نطلق على كتـــاب المقدمـــة لباريتو اسم « فلسفة المجتمع » أو الأخلاق الاجتماعيـــة أو فلسفية التاريخ .. المهم أن نطلـــق عليـــه أي اســـم يخرجه عن دائرة علم الاجتماع .

ط) أوضح سروكين خلال كتابه « النظريات السوسـيولوجية المبكرة » انه من الملاحظ اقتراب باريتو من مـــاركس فيما يتصل بالرواسب والمشتقات والأيديولوجيات مـــع أن الرواسب هي أساس الايديولوجيات .

٨) ماكس فيبر Max Weber (١٨٦٤-١٩٢٠) :

تتمثــل الإسهامات السوسيولوجية لماكس فيبر مــن خـــلال النقاط الآتية :

١-ما بذله من جهد عظيم لكي يتغلب على التعارض القــائم بين العلم الطبيعي والعلم الروحي من جهة ، ولكي ينشئ من جهة أخرى نسقا سوسيولوجيا يحتفظ بأكبر عدد مــن العناصر القيمية التي ينطوي عليها كل من العلم الطبيعي كاتجاه والعلم الروحي كاتجاه آخر .

٢-ذهب ماكس فيبر أنه يتعين على العلوم الاجتماعية – بما في ذلك علم الاجتماع – أن تدرس القيم بشرط الا تفصل عنها المعايير والمثاليات التي تشتق عنها الموجهات التي تضبط السلوك الواقعي ، ومعنى ذلك كما يقول تيماشيف أنه يجــب أن تكون العلوم الاجتماعية متحـــررة مــن القيمة .

ومن رأي تيماشيف أن فيبر قد أقام هذا الاعتقاد علـــى أساس تسليمه المسبق بأن العلوم الاجتماعية تختلف عــن العلوم الطبيعية اختلافا بينا فــالعلوم الطبيعيـــة تتجــه الاهتمامات الإنسانية خلالها نحو الضبط ، بينما تتجـــه الاهتمامات في العلوم الإنسانية نحـــو القويـــم ، وبـــهذا المعنى – كما يوضح تيماشيف – يصبح مفهوم الثقافـــة ذاته مفهوما قيميا ، كما تصبح الوقائع الامبيريقية بالنسبة لنا ثقافة لأننا نربطها دائما بالقيم ، إذن فصـــدق القيـــم يعتبر من قبيـــل الإيمان والاعتقاد وليـــس مـــن قبيـــل المعرفة .

٣-ذهب ماكس فيبر إلى إمكانية وجود مستوى أعلا لفـــهم الظواهر الاجتماعية بشرط أن يكون ذلك الفهم ملائمـــا بدرجة كافية وعلى مستوى المعنى .

٤-قدم فيبر عدة تعريفات خلال كتابه « نظرية التنظيم الاجتماعي والاقتصادي » لعدد من النماذج المثالية التي قدمها قبلا على النحو الآتي :

أ) العلاقات الاجتماعية Social Relationship « هي السلوك الذي يصدر عن مجموعة من الفاعلين إلى المدى الذي يكون فيه كل فعل من الأفعال آخذ في اعتباره المعاني التي تنطوي عليها أفعال الآخرين » .

ب) الجماعة المنظمة Organized Group : « وتمثل هذه الجماعة علاقة اجتماعية من خلالها يقوم أفراد معينون وبشكل منتظم بمهمة تدعيم النظام في الجماعة » .

ج) قسم فيبر الجماعة المنظمة إلى :

- الجماعة الإقليمية المنظمة Territorially Organized Group

  وهي – كتعريف – يطلق على الجماعة المنظمة التي يحكمها نظام معين يمتد لحدودها الإقليمية الشرعية .

- الجماعة التي تستند إلى ضبط ملزم

  Imperatively Goodinated Group وتطلق على الجماعة المنظمة عندما يخضع أعضاؤها بحكم عضويتهم إلى ممارسة شرعية ترتكز على ضبط ملزم .

- الجماعة السياسية Political Group : ويطلق على الجماعة المنظمة إذا ما قام جهازها الإداري بتدعيم النظام داخل منطقة إقليمية معنية وذلك عن طريق التهديد باستخدام العقاب البدني ، وتصبح الجماعة السياسية دولة State إذا ما تمكن جهازها الإداري من احتكار الاستخدام الشرعي للعقاب البدني في تدعيم النظام .

٥- على الرغم من أن فيبر وصف علم الاجتماع ذات مرة بأنه « تلك الكلمة الشديدة الغموض » إلا أنه عاد بعد ذلك وعرف علم الاجتماع بأنه « ذلك العلم الذي يحاول الوصول إلى فهم تفسيري للفعل الاجتماعي ، لكي يتمكن من تقديم تفسير سببي لمجراه ونتائجه » .

٦- حدد فيبر مهمة علم الاجتماع وموضوعه أو المهمة المتخصصة لعلم الاجتماع على حد تعبيره ، بأنها تفسير السلوك في ضوء المعنى الذاتي وأن موضوع دراسة هذا العلم هو الظواهر التي يمكن فهمها فهما ذاتيا ، كما أوضح فيبر أن علم الاجتماع يمكن أن يقوم بدور أو وظيفة خاصة من خلال فهمه للمفردات المتباينة النموذجية ، حيث يستطيع علم الاجتماع بعد ذلك صياغة نموذجية تعبر عن العمليات الامبيريقية .

٧- يرى انكلز أن ماكس فيبر قد كرس الجزء الأكبر من كتاباته وجهده في علم الاجتماع لتفسير وشرح منهجه الخاص المسمى « منهج الفهم » حيث يتعين على علماء الاجتماع عند مناقشتهم للتقلبات التي تطرأ على التمسك بالموضوعية والحياد فيما يتعلق بإطلاق الأحكام القيمية في العلوم الاجتماعية ، يتعين عليهم من خلال ذلك المنهج أن يدرسوا الفعل الاجتماعي من خلال تفسير العمليات التي توجه الفاعلين الاجتماعيين خلال المواقف التي يوجدون فيها ، أو من خلال السياق الرمزي أو التاريخي الذي يعيشون فيه .

ويضيف انكلز أن ذلك يعني أن يضع الباحث نفسه في ظروف الآخرين وأن يتوصل إلى تفهم أفعالهم عن طريق الحدس .

٨- ذكر انكلز في مؤلفه المشار إليه قبلا أنه على الرغم من كتابات فيبر العديدة فإنها لم توضح بالقدر الكافي إسهاماته الحقيقية في علم الاجتماع ، واستشهد على ذلك بما كتبه البروفيسور راينهارد بندكس خلال نقده لدراسات فيبر الشهيرة عن الدين حيث قال بندكس أن الموضوعات الرئيسية الثلاث في دراسة فيبر عن الدين كانت تدور حول :

أ) الكشف عن اثر الأفكار الدينية على الأنشطة الاقتصادية .

ب) تحليل العلاقة بين التدرج الديني والأفكار الدينية .

ج) تحديد وتفسير السمات المميزة للحضارة الغربية .

ومن هذا المنطلق استنتج انكلز من خلال موضوعات دراسة فيبر عن الدين المشار إليها أن :

١- الموضوع الرئيسي الأول يمثل جانبا آخر من مفهوم علم الاجتماع باعتبار أن علم الاجتماع ينفرد بدراسة العلاقات المتبادلة بين مختلف أجزاء المجتمع .

٨- الموضوع الرئيسي الثالث يعتبر في رأي انكلز إشارة جديدة إلى علم الاجتماع المقارن الذي يتخذ المجتمعات وحدة للتحليل السوسيولوجي ، والذي يبحث - أي علم الاجتماع المقارن - في العوامل التي تفسر نواحي الشبه والاختلاف بين المجتمعات على امتداد العصور واختلاف الاماكن التي تتواجد فيها تلك المجتمعات .

٩- قدم فيبر - شأنه في ذلك شأن ماركس وباريتو - نظرية محدودة في الفعل الاجتماعي ، واعتبر أن الفعل الاجتماعي أو السلوك الإنساني يجب أن يكون له معنى ذاتيا ، ومن رأي فيبر انه لكي نفهم سلوك الآخرين يجب ألا نكتفي بما يفعله هؤلاء الآخرين فقط ، بل لابد لنا من ملاحظة المعاني الحقيقية المتصلة بما يفعلون .

هذا وقد ميز فيبر بين أربعة أنماط رئيسية للفعل الاجتماعي هي :

أ) الفعل النفعي الرشيد :

ويكون الفعل نفعيا رشيدا إذا ما تضمن بعض الفروض التي ترى أن استخدام وسائل محددة ضروريا للوصول إلى غايات خاصة معينة .

ويرى فيبر انه يجب على الفاعل الاجتماعي أن يمتلك تكاليف متابعة أهدافه الأساسية بأساليب محددة ، كما يجب أن تتوافر أيضا لدى الفاعل الاجتماعي قيمة خاصة للهدف الذي يسعى إلى تحقيقه .

ب) الفعل القيمي الرشيد :

ويرى ماكس فيبر أنه من خلال هذا النمط لا توجد طريقة معينة لقياس فاعلية الوسائل المحققة للأهداف ، فالهدف يعتبر نهاية وذو قيمة في حد ذاته ، بمعنى أنه لا يمكن اعتبار الهدف وسيلة لغايات أخرى .

وهنا يمكن اعتبار الأهداف التي يسعى الفاعل الاجتماعي لتحقيقها قيما مطلقة ، ويكون الفاعل الاجتماعي مدفوعا إليها بوعي ويختار من الوسائل ما يحقق إيمانه بتلك القيمة التي قد تكون قيمة دينية أو أخلاقية أو جمالية .. الخ .

ج) **الفعل التقليدي :**

ويرى فيبر أن بعض الفاعلين الاجتماعيين قد يأتون أنواعا من السلوك بحكم العادات أو التقاليد أو المعتقدات السائدة في جماعاتهم أو مجتمعاتهم المحلية دون أن يكون لإرادتهم الذاتية الاختيار المطلق في مثل تلك الأفعال .

ولقد اختلفت آراء علماء الاجتماع حول هذا النمط من السلوك الإنساني .. هل هو سلوك رشيد أو غير رشيد ، فقد رأى البعض انه سلوك غير رشيد لأنه سلوك نابع من مجموعة من الضغوط الأدبية أو المادية والتي لم تترك بالتالي للفاعلين الاجتماعيين حرية الاختيار لا بالنسبة للوسائل ولا للأهداف .

بينما ترى الأكثرية أنه سلوك رشيد حتى ولو كان هدفه النهائي والوحيد هو المحافظة على التقاليد والعادات نظرا لما يستتبع ذلك من حفظ للتوازن الاجتماعي للجماعة أو للمجتمع ككل .

د) **الفعل العاطفي :**

ويرى فيبر أن هذا السلوك يصدر عن عواطف ومشاعر خاصة يحياها الفاعل الاجتماعي ، كما أن تلك السيطرة العاطفية هي التي تتحكم في الفعل الاجتماعي برمته وتجعل الفاعل يتصرف بغير وعي كامل لا بالأهداف ولا بالوسائل .

وعلى هذا الأساس اعتبر الفعل العاطفي عند جمهرة علماء الاجتماع فعلا ليس قيميا وليس رشيدا ، لأن العواطف قد تكون مذمومة وقد تكون محمودة ، كما أنها قد تكون عاقلة وقد تكون عاصفة ، لأنه من ابرز سمات الفعل العاطفي – كما حدده فيبر – انه أولا يرتبط بالحالة المزاجية للفاعل الاجتماعي ، وانه ثانيا لا يمكن أن يتشابه من خلال مواقف غيره من الفاعلين الاجتماعيين .

وخلاصة مجمل نظرية ماكس فيبر عن الفعل الاجتماعي ، أنه يرى أن الإنسان لابد وان يتصرف أو يتفاعل في ضوء الأهداف القيمية التي ارتضاها لنفسه ، وأنه على الفاعل الاجتماعي أن يختار من الوسائل ما يرى أنها محققة

لأهدافه ، كما لا بد أن يكون الفاعل الاجتماعي قبل ذلك كله وبعده ، لابد وأن يكون واعيا بكل أهدافه ووسائله وبما يتضمنه سلوكه من معاني وقيم .

١٠) قدم ماكس فيبر نظرية عن البيروقراطية تعد من اعظم إنجازاته علاوة على أنها اكثر أعماله إثارة للجدل حيث امتدحها فريق ، بينما ابرز فريق آخر ما بها من عيوب ، واتجه فريق ثالث لمحاولة تعديلها للاستفادة بما لها من إيجابيات وتلافي ما بها من قصور .

ويقول تيماشيف أن فيبر نظر إلى البيروقراطية بما تتميز به من صورية وتسلسل رئاسي وتقنين باعتبارها شكلا من أشكال التنظيم الاجتماعي ، كما أن فيبر لم يقصر تحليله للبيروقراطية على الظروف السياسية والاقتصادية التي تسود المجتمعات الرأسمالية ولكنه اهتم بدراسة ذلك « الاختراع الإنساني العظيم » الذي ابتدعه الإنسان والذي يتمثل في البيروقراطية .

وعلى كل فان نظرية البيروقراطية لدى ماكس فيبر قد تعرضت للعديد من الانتقادات لعل ابرزها الانتقادات الموجهة من طرف كل من بارسونز وجولدنر وبلاو والتي يمكن تلخيصها في النقاط الأربع التالية :

أ) أن النظرية متناقضة مع الكثير من مكوناتها علاوة على غموض الكثير من جوانبها .

ب) أن النظرية أغفلت الجوانب غير الرسمية في البيروقراطية .

ج) أن النظرية أهملت دراسة الخلل الوظيفي للبيروقراطية .

د) أن النظرية لا يمكن الاعتماد عليها كاداة كافية للتحليل .

١١- تعرضت بعض آراء فيبر للنقد خوصا تلك التي أثارها تيماشيف خلال مؤلفه « نظرية علم الاجتماع .. طبيعتها وتطورها » ، حيث أوضح :

أ) أن فيبر كان يميل إلى تفسير الواقع الاجتماعي في ضوء الدافعية الفردية ، الأمر الذي ميع الحدود التي تفصل بين علم الاجتماع وعلم النفس .

ب) أن معظم كتابات فيبر ارتبطت إلـــى حـــد كبـــير بالتـــاريخ الاجتماعي ، أو بتعبير دقيق هي مناقشة للظواهر التاريخيـــة في ضوء مفاهيم علم الاجتماع ، أمـــا الموضوعـــات التـــي ناقشها فيبر مناقشة سوسيولوجية خالصة فهي قليلة لعل مـــن أهمها .. البيروقراطية والدين وعلم الاجتماع القانوني .

ج) إلا أن تيماشيف يقرر صراحة أن فيبر واحد من اعظم علماء الاجتماع الذين ظهروا خلال القرن العشرين وذلك للأســـباب الآتية :

١. أن أعماله قدمت لنا أمثلة رائعة على الدراســـة الدقيقـــة الجادة للمواقف الاجتماعية الملموسة والعمليات التي يجب أن تشكل أساس أية نظرية سوسيولوجية ملائمة .
٢. أنه اسهم بشكل جلي في توضيح الدور الهام الذي تلعبـــه القيم في الحياة الاجتماعية .
٣. أنه أوضح لنا كيف نستطيع أن نحقق الكثـــير باســـتخدام فكرة النموذج المثالي في العلوم الاجتماعية .
٤. أنه اسهم بشكل كبير في فهم البيئة الاجتماعية وارتباطها بمشكل المعنى في الموضوعات الإنسانية .

٩-فيرديناند تونيز FERDINAND TOENNIS « ١٨٥٥ - ١٩٣٦ » :

تبدو الإسهامات السسوسيولوجية لتونيز أوضح ما تكون خـــلال مؤلفه الضخم « الجماعة المحلية والمجتمع » الذي يعد أول واهم عمـــل لـــه ، والذي يعتبره تمياشيف حادثة فريدة في دراســـة النظريـــة فـــي علـــم الاجتماع .

هذا ويمكن لنا أن نوجز تلك الإسهامات من خلال النقاط الآتية :

أولا : اعتبر تونيز أن الإرادة الإنســـانية هـــي المصـــدر والركـــيزة الأساسية لكل العلاقات الاجتماعية ، ومن رأيه أن هـــذه الإرادة تتخذ عادة نمطين متميزين هما :

أ) **الإرادة الرئيسية Essential Will** أو الطبيعيـــة ، وتمثـــل هذه الإرادة اتجاها أساسيا وغريزيا وعضويا يمكـــن وراء النشاط الإنساني ويدفعه ، وتسيطر الإرادة الرئيســـــية – كاتجاه – على حياة القرويين والحرفيين وعامة الناس .

ب) الإرادة التحكمية **Arbitrary Will** أو العقليـــة ، وتمثـــل الشكل المتعمد والقصدي للإدارة وتعتبر الإرادة التحكميـــة – كنمط – الطابع المميز لنشاط رجال السلطة والأعمـــال والعلماء والمنتمين إلى الطبقة العليا في المجتمع .

ثانيا : ابرز تونيز إلى الوجود نوعين من الجماعات ، أطلـــق علـــى الجماعة الأولى مصطلح « الجماعة المحلية Gemeinschaft » ، وأطلق على النوع الثاني من الجماعات مصطلـــح « المجتمـــع Geselischoft » وأوضح تونيز أن الجماعة الأولى « المحليـــة » هي تعبير عن « الإرادة الرئيسية » أو« الإرادة الطبيعية » ، أمـــا الجماعة الثانية « المجتمـــع »فتمثـــل « الإرادة التحكميـــة » أو « الإرادة الفعلية » .

- ويرى تونيز أن الإرادة الطبيعية أو الرئيسية تتمثل في :

أ) العلاقات التي تقوم على رابطة الدم .. وتبـــدو هـــذه العلاقات أوضح ما يكون بين :

- الأم وأبنائها .
- الأب وأبنائه .
- الزوج وزوجته .
- الاخوة والأخوات خصوصا الأشقاء منهم للأم .

ب) العلاقات التي تقوم على الجوار .. خصوصا تلك التـــي تقوم على وحدة المكان والتي تمثلها بصورة واضحـــة .. القرى والتجمعات الريفية والصغيرة .

ج) العلاقات التي ترتكز على الصداقة .. وتتمـــيز هـــذه العلاقات بالمنفعة المشتركة وتمثلها بصورة واضحـــة الملكية المتبادلة ووحدة الاتجاه نحو الخير أو الشر :

أما فيما يتعلق بالإرادة التحكمية أو العقلية فإن تونـــيز يرى أن هذه الإرادة تتمثل في المجتمع .. الذي يتكون من أفراد يتفاعلون ويندمجون معا وفقا لرغباتهم التـــي مبعثها العقل والتي تهدف إلى تحقيق مصالح مشـــتركة ، والمجتمع بهذا التصور ليس ناتجا عن الطبيعة وإنما هو نتاج للعديد من العمليات الصناعيـــة التـــي تتســـم

بالمصلحة الذاتية وتحكيم العقل إلى جانب التضامن العضوي أو التعاقدي .

ومن ابرز أنماط تلك الإرادة .. العلاقات القائمة بين أفراد المجتمع حول التبادل والمنفعة المشتركة للنقد والسلع والعقود والخدمات .. الخ .

ثالثا : فسر تونيز أسباب نشأة الجماعات الإنسانية انطلاقا من مفهومه لدور وطبيعة الإرادة الإنسانية ، حيث توجد الجماعات الإنسانية – جماعة محلية كانت أو مجتمعا – فنتيجة لانتمائها لأي نمط من النمطين الرئيسيين " رئيسية طبيعية في مقابل تحكمية عقلية " يبرز نوع من التعاطف بين أفرادها الأمر الذي يجعلهم يشعرون بأن لتلك العلاقة قيمة في حد ذاتها ، وقد تنشأ الجماعة الاجتماعية كوسيلة لتحقيق أهداف متفق عليها .

رابعا : لم يقصر تونيز مفهومه عن الجماعة المحلية أو المجتمع على ظاهرة التجمع الإنساني فقط ، بل ذهب إلى ابعد من ذلك عندما فسر على التطورات المختلفة لمراحل نمو المجتمعات البشرية ، وانطلق تونيز من فرض مؤداه أن المجتمع يظهر إلى الوجود عندما ينفصل الأشخاص وتتحرر الخدمات من إطار الجماعة المحلية .

خامسا : حدد تونيز خصائص كل من المجتمع المحلي Community والمجتمع العام Society وجعلهما على طرفي نقيض حيث نجد أن :

١- المجتمع العام حقيقة عامة ، بينما المجتمع المحلي وحده محدودة النطاق .

٢- بينما يخضع المجتمع العام لسيطرة القانون وتبرز فيه الروابط التعاقدية وتنمو فيه الطبقية ، نجد المجتمع المحلي يسيره مزيج من سلطة الدين والعادات والأعراف والتقاليد .

٣- العواطف والمشاعر والمشاركات الجمعية لها الغلبة في المجتمعات المحلية ، بينما لا سلطان في المجتمع العام لغير المصلحة الخاصة والمنفعة ، ومن هنا يبرز دور التنافس والصراع والانتهازية .

٤– أساس وحدة المجتمع المحلي هو الأسرة ، بينما تلعب الجماعة الدور الأساسي في المجتمع العام بتنوعها واختلاف مظاهر نشاطها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والديني والثقافي .. الخ .

ويرى تونيز أن تيار التطور الحديث قد جذب معه الكثير من مظاهر الحياة في المجتمعات المحلية ، فهو – أي تيار التطور الحديث – قد حد من شوكة العصبية الدينية والقبلية ، وقلل من أهمية كثير من الروابط المحلية أن لم يكن قد قضى عليها نهائيا .

كما ارجع تونيز الفضل كله إلى التطور الذي مكن الأفراد والجماعات من الانتقال من دائرة المجتمعات المحلية الضيقة إلى مجال الحياة الاجتماعية الأرحب والأعم .

والغريب أن تونيز لم يكن سعيدا باكتشافه هذا .. بل مال إلى التشاؤم لأن الإنسانية في رأيه سوف تتعذب نتيجة انتقالها من بؤرة الجماعة إلى دائرة المجتمع ، وأن عذاب الإنسانية سوف يتمثل في تأخرها وتقهقرها .

سادسا: قدم تونيز تصنيفا مبتكرا ومميزا للمعايير الاجتماعية ، وقسمها – إلى جانب القانون – إلى قواعد أخلاقية واتفاق وأعراف ومواضعات ، ويفسر تونيز هذه المعايير حيث يرى أن :

١– القانون يتألف من المعايير الاجتماعية التي يتعين على المحاكم أن تطبقها .

٢– القواعد الأخلاقية .. فهي تلك القواعد التي تنطوي على معاني معينة بحيث يجب أن تطبق بواسطة قاضي مثالي .

٣– الاتفاق .. يتكون من تلك القواعد التي تعتمد على علاقات تنتمي إلى نموذج الجماعة المحلية وتعتبرها علاقات ضرورية أو طبيعية .

٤– الأعراف .. هي قواعد لها جذور في العادات الجمعية .

٥– أما المواضعات ، فتعتمد على اتفاق ضمني أو صريح ياخذ في اعتباره الأهداف المشتركة ، وتكون القواعد المحددة هي افضل الوسائل لتحقيقها .

١٠-جورج جورفيتش Georges Gurvitch : (١٨٩٤ – ١٩٦٥) :

تتمثل الإسهامات السوسيولوجية في النقاط الآتية :

١- صنف جورفيتش علم الاجتماع إلى نوعين ، الأول هو علم الاجتماع الأصغر أي «الدراسة الاجتماعية للجماعات الصغيرة Macro Sociology »، والثاني هو علم الاجتماع الأكبر أي « الدراسة الاجتماعية للجماعات الكبيرة Micro Sociology » ويرى جورفيتش ان كل نوع له مناهجه الخاصة التي تميزه في البحث عن سواه .

٢- يرى جورفيتش أن موضوع علم الاجتماع هو « الظاهرة الاجتماعية الكلية » ، ولما كانت هذه الظاهرة الكلية تبدو بأشكال متعددة وتضم العديد من الجوانب ، فلابد لعلم الاجتماع – مادام هو الذي يدرسها – أن يتميز بالتعدد ليتمكن من دراسة تلك الظاهرة المتعددة الجوانب والمختلفة الأشكال ، ومن هنا ظهر ما يعرف بعلم الاجتماع التعددي .

٣- ولما كان الواقع الاجتماعي – كما يراه جورفيتش – يمتاز بالعمق إلى جانب التعدد ، فلابد أن يبرز على السطح ما يسمى « بعلم الاجتماع التعمقي » الذي يغوص في أعماق الواقع الاجتماعي مبتدءا بالسطح «المورفولوجي» مارا «بالأبنية الفوقية المنسقة أو المنظمة» حتى يغوص تحت «التيارات الحرة لعلم النفس الجمعي» .

٤- ولكن جورفيتش وجد أنه لابد – حتى يؤدي كل من علم الاجتماع التعمقي وعلم الاجتماع التعددي دوره كما يجب في دراسة الواقع الاجتماعي – لا بد من التمييز بين مختلف أنواع الأنماط الاجتماعية التي يضمها الواقع الاجتماعي .. وأوكل جورفيتش هذه المهمة لما يعرف « بعلم الاجتماع التفاضلي أو التميزي » .

٥- ولما حاول جورفيتش تنميط ذلك الواقع الاجتماعي من خلال علم اجتماعه التفاضلي ، اتضحت له العشرات بل المئات من تلك الأنماط ، ولو أنه حاول أن يجمعها في ثلاثة محاور رئيسية هي كما حددها ارمان كوفييه كالاتي :

أ) La Formes de Sociabilite ، أي الأشكال أو الأنماط ذات القابلية للاجتماع ، وهي أنماط Micro Sociology « ماكروسسيولوجية » للاتصال الاجتماعي ، وتبدأ هذه الأنماط من الجماهير فالمجتمع المحلي ثم الوحدة الاجتماعية ، وهي

كلها تدخل في نطاق دراسة « علم الاجتماع الاصغر » لأنها جماعات صغيرة .

ب) Le Socites Globoles ، أي المجتمعات الشاملة أو الكبيرة ، وهي أنماط Macro Sociology « ماكروسسيولوجية » ، ولقد تم تمييزها وفقا للعديد من المعايير ، كما أخضعها جورفيتش للعديد من التعديلات كان آخرها عام ١٩٥٥ عندما ضمن كتابه « الحتمية الاجتماعية والحرية الإنسانية » تصنيفا للمجتمعات المعاصرة الشاملة بدءا بالمجتمع القيادي الذي يتواءم مع الرأسمالية المتطورة ، مرورا بالمجتمع الفاشيستي المرتكز على البيروقراطية ، وصولا للمجتمع الذي تسوده المبادئ التعددية الجمعية Collectivisme Pluraliste ، وهو مجتمع مخطط طبقا لمبدأ السيطرة الجماعية للدولة

٦- أبرز حورفيتش الاختلافات الموجودة بين مختلف أنماط الظواهر الاجتماعية ، وقال إن من هذه الظواهر ما هو ذو بناء وما هو بغير بناء.، وميز بين النمطين خلال مقال مطول عن « البناء الاجتماعي » نشره عام ١٩٥٥ من خلال استعراضه للقضايا التالية :

أ) هناك تدرج في مستويات العمق ، وفي الرموز ، وفي الأشكال المختلفة لتنظيم السلوك البشري .

ب) ان الوحدات التي تتكون منها هذه التدرجات في حالة توازن مستمر .

ج) هناك قدر من الوعي الجمعي بهذه التدرجات والتوازنات .

د) هناك أيضا « قوي » تدعم ذلك التوازن .

واستطرد جورفيتش محذرا من أن البناء لا يمكن أن يكون جامدا دوما في الواقع ، لأن ذلك البناء يخضع باستمرار للعديد من عمليات التشكيل والتحطيم وإعادة التشكيل أو البناء مرة ثانية ، كما قدم جورفيتش تحذيرا صريحا حول أنه لا يجب الاعتماد على أي تفسير استاتيكي للأبنية الاجتماعية لأنه لا يوجد شيئ ثابت في مجتمع من أهم سماته دوام الحركة والتغير .

٧- حـــدد جورفيتش مستويات دراسة الظواهر الاجتماعية من خـــلال تحديده لدور « علم الاجتماع التعمقي » حيث يجب أن نتضمن هذه المستويات .

أ) الأسس الجغرافية والديموجرافية للمجتمع .

ب) المستوى الرمزي الذي يتضح على سبيل المثال فـــي استجابة الناس بطريقة محددة لرمـــوز مثـــل الإعـــلام « الرايات » وإشارات المرور .

ج) الأبنية الفوقية المنظمة للمجتمع .

د) العادات والممارسات الاجتماعية .

ه) الظواهر الثورية أو الإصلاحية .

و) القيم التي تكمن وراء أوجـــه النشـــاط الملحوظـــة فـــي المستوى السابق « الظواهر الثورية أو الإصلاحية ».

ز) الواقع الاجتماع المباشر أو العقل الجمعي .

٨- تعرض جورفيتش للعديد من الانتقادات منها:

أ) تأثره بتارد .. لأن العلاقة التي بين كل من مســـتوى – الترجمة – الثورية والعادات والممارسات هي نفس العلاقة بين الاختراع والتقليد في رأي تارد .

ب) تأثره ببعض جوانب نظرية دوركايم عند حديثه عن مســتوى الواقع الاجتماعي المباشر أو العقل الجمعي .. حيـــث أكـــد دوركايم أنه يتم الشعور بالعقل الجمعي في أعماق الشـــعور الفردي ولكنه يمارس تأثيره من خلال عقول الأفراد .

ج) أنكر كثير من علماء الاجتماع التمييز المنهجي الذي قدمـــه جورفيتش لعلم الاجتماع « علم الاجتماع الأصغر » ، « علـــم الاجتماع الأكبر » ويرون أنه ينبغي الالتزام بنفس المنطـــق في دراسة جميع الظواهر الاجتماعية .

د) أنكر تيماشيف على جورفيتش أن ينكر في إصرار إمكانيـــة استخدام منظور استاتيكي لدراسة الظواهر الاجتماعيـــة لأن كل شيء في حركة مستمرة ، ويرتكز تيماشيف فـــي نقـــده لجورفيتش حول هذا التصور .. علـــى اعتبـــار أن دراســـة الديناميات الاجتماعية والتغير لا تنفصل في التحليل النـــهائي

عن الدراسة البنائية أو الاستاتيكية لهذا الذي يتغير وهو النظام الاجتماعي .

هـ) أخذ كل من جان وليم لابير ، وفرناند بروديل ، خلال مقالات نشرت لهما عامي ١٩٥٨ ، ١٩٥٣ على التصنيف أو التمييز الذي قدمه جورفيتش للأنماط الاجتماعية .. أنه أنطلق من تصور معقد علاوة على أن الاستمرار في استخدامه سيؤدي إلى اكثر من ثلاثة وعشرين صنفا مختلفا وهو الأمر الذي لا يستند – في رأيهما – إلى أي حقيقة امبيريقية أو جغرافية أو اقتصادية أو حتى تاريخية .

و) اخذ عالم الاجتماع الأمريكي روبرت باك خلال كتابه « المجتمع » الذي صدر عام ١٩٥٥ على جورفيتش إنكاره للنزعة التاريخية لأنه لا يمكن أن يكون هناك علم اجتماع بلا تاريخ كما أن الأشكال الاجتماعية لها أيضا تاريخ .

ز) يرى فريدركس أن جورج جورفيتش تاثر كثير بالماركسية إلى جانب تأثره الشديد بالتراث الاجتماعي للمدرسة الفرنسية ، وأن إسهاماته تأثرت إلى حد كبير بتلك الاتجاهات ، كما أنه لم يبد الاهتمام الكافي بالمناهج الفنية للبحث في علم الاجتماع .

ح) إلا أن جورج جورفيتش على الرغم من ذلك كله له بصمات واضحة على علم الاجتماع بصفة عامة وعلى علم الاجتماع الفرنسي بصفة خاصة .. ويمكن أن نوضح ذلك بإيجاز في النقاط الآتية :

١- يعود لجورفيتش الفضل في تحول الاهتمام الأساسي لعلم الاجتماع الفرنسي من مجرد محاولة وصف الواقع الإنساني إلى تكريس كل الإمكانيات الاجتماعية في سبيل تغيير ذلك الواقع الإنساني ، ولقد نبع هذا الاتجاه لدى جورفيتش من اعتقاده بأن المهمة الأساسية لعلم الاجتماع إنما هي دراسة التغيرات التي تتبع م المجتمع .

٢-جورفيتش هو الذي حرر علم الاجتماع الفرنسي من الوقوع في فخ الأدوات الفنية للبحث في علم الاجتماع ، بمعنى عدم الخضوع أو الالتزام بما تفرضه تلك الأدوات بشكل تام أو مطلق خصوصا إذا ما كان الاهتمام

بالمناهج الفنية للبحث سوف يكون في النهاية على حساب تحليل الواقع الاجتماعي نفسه .

١١ – التفاعلية الرمزية : وهي إفراز للمدرسة السلوكية الاجتماعية :

أول من استخدم هذا المصطلح عالم الاجتماع الأمريكي جوج هربوت ميد ويرى مارتندال أن هذا الاتجاه قد ظهر وتبلور في الفترة ما بين ١٨٩٠ و ١٩١٠ وهي الفترة التي اصبح علم الاجتماع فيها علما معترف به وله مؤسساته وكان على علماء الاجتماع أن يحددوا لأنفسهم مجالا متميزا ومهام محددة ، ومن هنا بدا اصحاب هذا الاتجاه برفض الكيانات الاجتماعية الكلية كوحدة للتحليل الاجتماعي وركزوا بدلا من ذلك على السلوك بوصفه وحدة التحليل ، وارتبطت بذلك محاولة تقديم منهج مناسب لدراسة هذا السلوك يجعل من علم الاجتماع علما امبيريقيا يعتمد على استخدام أساليب مثل الإحصاء والمقاييس ودراسة الحالة وتاريخ الحياة والأساليب المقارنة ونجد السلوكيين الاجتماعيين يصنفون إلى ثلاث اتجاهات فرعية هي :

١- السلوكية الجماعية   ٢- التفاعل الرمزي   ٣- الفعل الاجتماعي

واتجاه السلوكية الجماعية يسلم أصحابه بأن النواة الأولية في بناء المجتمع تتكون من شخصين يؤثر أحدهما في الآخر تأثيرا روحيا والعلاقة التي تنشأ بين هذين الشخصين هي العنصر الضروري الوحيد للحياة الاجتماعية ولايهتم أصحاب هذا الاتجاه بالبعد التاريخي للحياة الاجتماعية ولا بالبناء الاجتماعي الكلي واهم أصحاب هذا الاتجاه جابريل تارد .

ويتفق اتجاه التفاعل الرمزي مع اتجاه السلوكية الجمعية في المسلمات الأساسية التي يعتمدان عليها فيما يتعلق بطبيعة الواقع الاجتماعي ووحدات التحليل الاجتماعي الصغرى ولكنهما يختلفان من حيث أن اتجاه السلوكية الجمعية الذي ظهر في أوروبا قد تأثر إلى حد كبير بعلم النفس التجريبي ، بينما تأثر اتجاه التفاعل الرمزي الذي ظهر في أمريكا بفلسفة النفعية كما أن اتجاه السلوكية الجمعية قد جعل موضوع التقليد محور اهتمامه بينما ركز اتجاه التفاعل الرمزي على الاتجاه والمعنى ولذلك جعل الشخصية أو الذات محور دراسته .

ومن ابرز ممثلي هذا الاتجاه تشارلز كولي وجورج هربرت ميد ، وقد عرف كولي المجتمع على أنه ظاهرة عقلية أو علاقة بين أفكار شخصية ورأى أن مهمة علم الاجتماع دراسة لعلاقة بين الذات والمجتمع عن طريق التخيلات أو التصورات التي توجد لدى الناس عن بعضهم البعض ورأى كولي أن الذات عبارة عن بناء تخيلي للكيفية التي يدرك بها الشخص تفسير الآخرين لمظهره وطور كولي مفهومه عن الذات المرآة وطبقة على المجموعات الإنسانية وميز بين نوعين من المجموعات اسماها بالمجموعة الأولية والمجموعة الثانوية .

وقد كان لكولي تحيزاته السياسية الواضحة بحيث رأي بعض المفكرين أن نظريته محافظة إلى حد بعيد من حيث أنه كان يرى أن شكل المجموعة الأولية هو الأمثل بالنسبة للمجتمعات كما أنه كان عنصري حيث دافع عن الاستعمار الأمريكي مستخدما في ذلك نظريته عن الذات المرآة حيث رأى أن الوعي بالذات لدى الأمريكيين أرقى منه لدى غيرهم .

أما هربرت ميد رأى أن العقل نتاج للإتصال الإنساني وأن الوعي بالذات والشخصية إنما هما نتاج للقدرة الإنسانية على الإتصال باستخدام الإشارات الفيزيقية والاصوات الرمزية ، وقد رأى ميد أن وحدة التحليل يجب أن تكون الفعل الاجتماعي وعرف الفعل الاجتماعي بأنه فعل متبادل بين فردين أو اكثر وقرر ميد أن اللغة تمثل الخاصية المميزة للإنسان وأنها ظهرت نتيجة للتفاعل بين الأفراد وأول صورة لها هي الإشارات التي يعبر بها الإنسان عن انفعالاته ، وتصبح هذه الإشارات وسيلة هامة في التفاعل الرمزي حيث تكتسب معنى يتفق عليه كل أعضاء المجموعة ، ومن خلال التفاعل الرمزي بين الأفراد ينشأ الوعي بالذات لدى كل فرد وهذا الوعي بالذات يحدث عندما يستطيع الفرد أن يفسر عقليا المعنى الرمزي لإشاراته ، ولايستطيع الفرد أن يشعر بذاته إلا من خلال إشارات الآخرين التي تحمل معنى رمزي أن الوعي بالذات يتم عن طريق أن يجعل الشخص ذاته موضوعات للملاحظة تماما مثلما يجعل الآخرين موضوعات لهذه الملاحظة .

ومن خلال ما تم عرضه عن النظرية التفاعلية الرمزية نرى أن السمة العامة والمشتركة بين اتجاهات السلوكية الاجتماعية هي تركيزها على تحليل الوحدات الصغرى في المجتمع ودراسة الجوانب السلوكية والسيكولوجية للأفراد وتجاهل تحليل الوحدات الكبرى للمجتمع ، وبذلك اختزلت هذه النظرية الحياة الاجتماعية بأسرها إلى مجرد حالات سيكولوجية مجتزأة تماما من سياقها العام ، كما أن أسلوب دراستها تركز على الاستيطان وملاحظة السلوك أغفلت تماما الأسلوب التاريخي ،

ومفهوم التغير الاجتماعي عند أصحاب التفاعلية الرمزية انحصر في نطاق التغير السيكولوجي للأفراد وليس التغير في الأنساق الاجتماعية الكبرى ، وقد كشف بعض العلماء الأمريكيين الراديكاليين عن التحيزات الأيدولوجية والسياسية لكثير من أصحاب هذا الاتجاه ومثال على ذلك كولي الذي استخدم فكرة الشعور بالذات ليبرر بها استعمار البلاد الأنجلو ساكسونية لبلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية حيث قرر أن الأمريكيين والبريطانيين يتسمون بالاعتماد على الذات والمثابرة وضبط النفس مما يجعلهم اكثر رقيا بالنسبة لغيرهم ، كما استخدم نفس هذه الإدعاءات في تبرير قمع واستغلال المجموعات القومية والعنصرية في الولايات المتحدة ذاتها .

الفصل الثالث

اتجاهات نظرية الصراع الاجتماعي من الكلاسيكية إلى المعاصرة

مقـدمـة :

تمثل النظرية المعاصرة في الصراع موقف مجموعة من علمـــاء الاجتمـــاع الأمريكيين الذين تأثروا بالنظرية الأوروبية في الصراع وكان هذا الموقـــف رد فعل لإحساسهم بمشكلات السيطرة والصراع فـــي المجتمـــع الأمريكـــي المعاصر من منظور مثالية القرن ١٩ والنزعات التقدمية .

على الرغم أن النزعة الوظيفية البنائية تسود معظم النظريات المعاصرة فـــي علم الاجتماع إلا أن نظريات الصراع المبكرة والتي تعتبر جزء مـــن علـــم الاجتماع استمرت في إظهار انعكاساتها على نظريات علم الاجتماع وخاصـــة حول صراع الطبقات المعاصرة وما أفرزته التـــأثيرات الســـلبية للتصنيـــع والتحضر من مشاكل في داخل المجتمع الحديث .

وهكذا ترى أن نظريات الصراع الحديثة المعاصرة تمثل رد فعل جماعة مـــن المثقفين لعدد من الظروف الخاصة تتضمن هذه الظروف :

١. الصراع الاجتماعي بصفة عامة .

٢. صراع الأجناس بصفة خاصة .

٣. معالجة التأثيرات الضاغطة والكابتة للبيروقراطية .

٤. التصنيع .

٥. تطبيق الاتجاهات الإصلاحية لمعالجـــة المشـــاكل الحديثـــة للتصنيـــع والحضر .

وعلى أي حال فهي تعتبر محاولة لتطبيق تقدمية القرن الثامن عشر في حـــل مشاكل المجتمع الحديث ، فهذه النظريات المعاصرة تمثل استخداما لنمـــوذج الصراع التقليدي المبكر لمشاكل المجتمع المعاصر .

وتعتبر هذه النظريات المجتمع كنسق في حالة تطوره يتكون من جماعات تتنافس من اجل المصادر وتحكمها صفوة سائدة ، وتحدد مختلف الظروف الاجتماعية والديموجرافية ومدى كثافة واستمرار وشكل الصراع الاجتماعي .

وتستخدم نظريات الصراع المعاصرة هذا النموذج للمجتمع الحديث برسم الظروف الاجتماعية التي تحدد الصراع .

ويمكن أن نصنف النظرية المعاصرة في الصراع إلى اتجاهين أساسيين كبيرين هما :

أولا : اتجاه نسقي : الذي يفسر المجتمع باعتباره نسقا معياريا يتقصى ويؤمن بالعوامل الاجتماعية التي تفجر الصراع ومن أنصار هذا الاتجاه :

رالف داهرندورف Ralf Dahrendorf

ثانيا الاتجاه الطبيعي : يهتم في تفسير الصراع ويهتم بالأسباب الاجتماعية والسكانية الكامنة وراء تفجير الصراع ومن أنصارها لويس كوزر Lewis Coser الذي تأثر بفكر زيمل والمماثلة العضوية .

وريزمان David Riesman الذي أكد على العوامل السكانية أهم من شرح التفسيرات الطبيعية للصراع .

مفهوم الصراع Conflict Theory:

١- نزاع مباشر ومقصودين أفراد أو جماعات من أجل هدف واحد . وتعتبر هزيمة الخصم شرطا ضروري للتوصل إلى الهدف .

٢- ويمكن تعريف الصراع أيضا ((بأنه كفاح حول القيم والسعي من اجل المكانة والقوة والموارد النادرة ، حيث يهدف الأضداد إلى تحييد أعدائهم أو القضاء عليهم)) .

٣- يكشف تحليل التراث على أن مفهوم الصراع قد عرف بصور مختلفة ، حيث تذهب إحدى المدارس التي تنتمي فكريا إلى ((زيمل)) والتي اشتملت بعد ذلك إلى الولايات المتحدة على يد بارك وزملائه إلى أن الصراع ((هو أحد الأشكال الرئيسية للتفاعل ، لأنه يستهدف تحقيق الوحدة بين الجماعات حتى وان تم ذلك عن طريق القضاء على أحد أطراف الصراع)) .

٤- عرف ماكيفر R.M. Macivar الصراع بانه ((نشاط كلي يتصارع فيه الأفراد مع بعضهم من اجل هدف معين)) .

التعريف الإجرائي لمفهوم الصراع :

هي العملية التي عن طريقها يحاول الأفراد أو الجماعات إلحاق الضرر أو التخلص من منافسيهم أي أن الصراع يشير إلى اتجاه الأفراد أو الجماعات نحو التفوق أو الفوز على غيرهم من الأفراد أو الجماعات المعارضة وإبعادهم عن المنافسة بأي طريقة ممكنة .

تعريف آخر ((هو عبارة عن مجموعة من الظواهر تتراوح بين الخلافات والمشاحنات الشخصية التي تؤدي إلى الصراع الطبقي وهو يتضح في المنافسات والصراع الدولي والحروب)) .

الخصائص الأساسية للبيئات التي نشأت فيها نظرية الصراع :

أ- تمثل نظرية الصراع الحديثة تطبيق انساق الفكر السابق على أحداث تقع في مجتمع معاصر .

ب- يحاول أنصار نظرية الصراع تطبيق مبادئ النزعة المثالية والنزعة التقدمية اللتين سادتا في القرن ١٨ في أوروبا على الواقع الأمريكي المعاصر .

ج- تحاول تطبيق الأفكار الماركسية الجديدة من اجل دراسة مدى تعقد الصراع الاجتماعي المعاصر .

د- هي رد فعل لصور الصراع الاجتماعي العنيفة والخلافات العضوية التي ظهرت داخل الولايات المتحدة الأمريكية .

ه- الاستجابة للآثار القهرية للبيروقراطية على الفرد وعلى علم الاجتماع الحديث .

و- تطبيق أفكار المصلحين الرواد على المشكلات الاجتماعية المعاصرة التي ترتبت على التصنيع والتحضر .

إذا النظرية الجديدة في الصراع تحاول تطبيق الأفكار الماركسية على المشكلات الصراعية والبيروقراطية في المجتمع الحديث .

وهذه للمرة الثانية يظهر الاتصال والترابط بين الفلسفة الاجتماعية القديمة والنظرية الاجتماعية المعاصرة .

تاريخ نظرية الصراع :

الواقع أن نظرية الصراع ترجع أصولها التاريخية إلى فلسفة « الإغريق » فقد اعتبر « هرقليطس » « والسفسطائين » الصراع حقيقة اجتماعية أساسية ، وأيضا فكرة الصراع عند « ابن خلدون » في حديثه عن الصراع بين البدو والفلاحين واعتبار أن هذا الصراع عنصر أساسي في تطور المدينة . وكذلك نظريات عديدة عن الصراع لرواد كثيرون مثل « مكيافيللي Mackiavelli وهوبز Hobbes وهيوم Hume وغيرهم من الفلاسفة الاجتماعيين » .

كما تأكدت فكرة الصراع استنادا إلى رأس « داروين » في فكرة الصراع من اجل البقاء ولقد ظهرت معالم فكرة الصراع في الحياة الاجتماعية عندما أشار إليها « ماركس » إلى وجود صراع بين مصالح كل من طبقتي أصحاب رؤوس الأموال والعمل ، وينشأ هذا الصراع نتيجة لتفاوت علاقة الطبقتين بأدوات الإنتاج..

إذاً نستنتج من ذلك أن نظرية الصراع ظاهرة لصيقة بالحياة في المجتمع وأنها توجد في كل المستويات ، على مستوى الظواهر الاجتماعية ذات النطاق الضيق كالصراع بين الأدوار أو العلاقات الاجتماعية في الجماعات الصغيرة أو على مستوى المجتمع ككل كالصراع بين الأحزاب السياسية أو بين العمال وأصحاب العمل أو بين الفلاحين والإقطاعيين أو بين الأجيال المتلاحقة .

لذلك تعد آراء ماركس من ابرز المحاولات التي نظمت نظرية الصراع وذلك لأنها ترى أن أساس الصراع يكمن في العلاقات الاجتماعية للإنتاج ولا يقتصر الصراع بين الطبقات حول هذه العلاقات فحسب بل تنعكس أصداء الصراع بين الطبقات في كل مجالات الحياة الاجتماعية .

النظرة الأيديولوجية لنظرية الصراع :

أن نظرية الصراع نماها جماعة من المفكرين الذين كانت خلفياتهم وخبراتهم الاجتماعية تختلف كلية عن جماعة النظريات العضوية الذي كانوا يهتمون بالحاجات الإنسانية والتغير الاجتماعي اكثر من اهتمامهم بمشاكل النسق أو مشاكل التنظيم الاجتماعي بل كانوا يحاولون إعادة النظم الاجتماعية . ولكن بالنسبة لمنظري نموذج الصراع كان يتميز بأساسه الأيديولوجي وهكذا

أصبحت النظرية الاجتماعية عندهم عبارة عن رد فعل للمشاكل الاجتماعيـــة كما يراها هؤلاء المفكرين .

الهدف الأيديولوجي لرواد نظرية الصراع الكلاسيكي :

روبرت بارك Robert Park :

كان بارك يعتبر أن علم الاجتماع يبحث عن « الوصول إلى قوانين طبيعيـــة وتعميمات فيما يختص بالطبيعة الإنسانية والمجتمع بغض النظر عن الزمـــان والمكان » .

وكان هدفه الأيديولوجي ينصب على الكفاح البيئي للإنسان من اجل الوجـــود والبقاء والتي تؤدي إلى عملية ديناميكية مثل الصـــراع – والتكيـــف والتـــي تصبح حالات مؤقتة في النمو المستمر للمجتمع .

وهكذا قدم « بارك » نظرية الصراع الأيكولوجية وهي مماثلة لنظرية الصراع عند ماركس من حيث تأكيدها على الدور المركزي لمشكلات المجتمع .

فالفريد باريتو Vilfaredo Pareto :

كان هدف باريتو الأساسي تفسير القوى الحقيقية التي تحدد حالـــة التـــوازن داخل النسق الاجتماعي أي تفسير العناصر التي تعمل داخل النســق وتؤثـــر عليه بالتالي تتفاعل معه .

ويتضمن هذا الهدف التركيز على الديناميكية الاجتماعية للصراع والتغير بدلا من دراسة النظم الاجتماعية الثابتة ويـــرى « بـــاريتو Pareto » أن العنـــاصر الأساسية التي تكمن وراء تلك العمليات هي عناصر فرديـــة تتكـــون علـــى مستوى الوحدة الصغيرة وتتكون من حالات نفسية ومبادئ عقلانية من صنـــع المجتمع تحدد بدورها السلوك.الاجتماعي والعمليات الاجتماعيـــة وكوصـــف نظرية « باريتو Pareto » باعتبارها نظرية معياريـــة تعتمـــد علـــى المنـــهج الاستقرائي وتستند على أساس طبيعي مؤداه النظر إلى الرواسب باعتبارهـــا عناصر أساسية لفهم المجتمع .

أما بالنسبة للهدف الأيديولوجي لرواد نظرية الصراع المعاصرة :

١ - رالف داهرندورف Ralf Dahrendorf :

اهتـــم داهرندورف في كتابه الهام « الطبقة والصـــراع الطبقـــي فـــي المجتمع الصناعي » بحقيقة مؤداها أن الأبنية الاجتماعية قادرة علـــى أن تنتج من نفسها العناصر التي تدمرها أو العناصر التي تغيرها .

وتبعا لذلك حاول تحديد الجماعات والعمليات التي تدخل في أحداث هـــذه الظاهرة تحديدا نظريا وتحليلها تجريبيا وقد حاول أن يصوغ نظرية عامة عن الصراع الاجتماعي والتغير الاجتماعي مستفيدا من نظرية القهر التي تفترض التغير الاجتماعي الشامل والصراع الاجتماعي والقهر ومســاهمة كل عنصر في المجتمع على تفكك هذا المجتمع وتغييره .

٢ - رايت ميلز Wright Mells :

اهتم « ميلز » اهتماما أساسيا بتطور ما اسماه « المخيلـــة الاجتماعيـــة » وينعني به فهم الحدث التاريخي الشامل ، كما يتجلى معناه فـــي الحيـــاة الداخلية عند مجموعة متباينة من الأفراد وفي سيرهم ومهنتهم الخارجية..

وتتضمن مناهج هذا النمط من الفهم المساهمة في القضايا العامة والوعـــي الأكبر بالعلاقة بين التاريخ والسيرة الشخصية والوعـــي بفكـــرة البنـــاء الاجتماعي والفهم المنظم للناس والمجتمعات .

وأخيرا فقط أعطى هذا المدخل اهتماما اكـــبر للفـــهم المقـــارن للأبنيـــة الاجتمـــاعية التي ظهرت وتوجد الآن وتحتل مكانتها الآن في تـــاريخ العالم .

وقد حاول « ميلز » أن يستعمل هذا المنظور لفهم القوى والتدرج الطبقـــي في المجتمع الأمريكي فهما اجتماعيا علميا من اجل أن يفهم ماذا يحـــدث في العالم ويمكن أن يقال أن اهتمامه كان عمليا ونظريا .

٣ - لويس كوزر Lewis Coser :

كان هدفه توضيح وتدعيم المفاهيم المناسبة لبيانات الصراع ومركزا على الوظائف اكثر من المعوقات الوظيفية للصراع الاجتماعي .

وأيضا ركز على النتائج اللاحقة للصراع الاجتماعي والتي تعمل على الزيادة اكثر من التناقض في التكيف وترتيب العلاقات الاجتماعية والجماعات .

واعتبر « كوزر Coser » أن الصراع كفاح حول القيم والدعاوي لتعزيز المكانة والقوة والمتابع ويتجه هذا الكفاح إلى أهداف الخصوم لإبطال مفعولها أو تحييدها أو تقليل منافستها .

وفعل «كوزر Coser » إذ استخدم نظريات المنظرين الأوائل في دراسة الصراع الاجتماعي المعاصر كما فعل باقي أصحاب نظريات الصراع الاجتماعية المعاصرة .

علاقة الصراع بالنظم

قد تنشأ الصراعات بين النظم أثناء التفاعل ويحدث ذلك بدرجات متفاوتة .

مفهوم النظام Institution :

يرى « إدوارد رويتر E.B. Reuter » أن النظام الاجتماعي هو ذلك النسق من الممارسات والأدوار الاجتماعية التي تدور حول قيمة معينة أو مجموعة من القيم ، وتلك الأداة التي تنظم هذه الممارسات وتشرف على تنفيذ قواعد التعامل .

كما يرى « موريس جنزبرج M. Ginsberg » هي الأساليب الموضوع والمعترف بها والتي تحكم العلاقات بين الأفراد أو الجماعات .

كما يعرف « روبرت ماكيفر Robert M.Maciver » بأن النظام هو الصور أو الأشكال الثابتة التي يدخل الناس بمقتضاها في علاقات اجتماعية .

وظيفة النظم :

النظم تقدم أساليب مقننة لإشباع الحاجات المتكررة مثل التناسل والغذاء والحماية المتبادلة ، ومن ثم يصبح دور النظام هو إشباع هذه الحاجات المتكررة .

وظيفة النظام الثقافي :

هي توحيد أفراد الكائنات البشرية في بناء اجتماعي مستقر قليــــلا أو كثــيرا اعني انساق مستقرة تعرف وتنظم علاقات هؤلاء الأفراد كلا مع الآخر وتقدم ملائمة مع البيئة الطبيعية وموائمة داخلية بين الأفراد أو الجماعات المكونــــة للمجتمع لتوفر حياة اجتماعية منظمة .

وان كانت الحاجات الإنسانية الأساسية هي بواعث النظم الاجتماعيــة فليــس معنى ذلك أن كل حاجة اجتماعية يقابلها نظام اجتماعي أي انه لا يمكن ولــم يوجد ذلك المجتمع الذي فيه حاجاته الأساسية تتطابق مع نظمه الاجتماعيــــة الواحدة يمكن أن يشبعها اكثر من نظام . فمثلا حاجة التربية ليـــس للنظــام التعليمي على سيادة فهو لا يقوم بإشباعها وحده ولكن أيضا النظام الأســـري ينبع هذه الحاجة وكذلك النظام الديني وأيضا النظام الترفيهي .

ولكن لا يمكن الادعاء بان نظاما اجتماعيا ينجز وظيفة واحـــدة واتضـــح أن الوظيفة الرئيسية والخاصة للأسرة هي حفظ علاقات عاطفية خاصــــة بيــن الناس والأقارب طبقا لعادات اجتماعية معينـــة ، ولكــن الأســـرة بدرجـــات واساليب مختلفة تعتبر نظاما اقتصاديا وفي بعض المجتمعات تجهز الأســـرة البناء المقبول للرعاية الدينية وهي أيضا نظاما تربويـــا حتـــى أن المربيـــن المهنييـــن عادة يرجعون فشل التربية الرسمية إلى قصور الأبناء .

اذا يتضح أن النظم الاجتماعية متشابكة إلى حج يتعذر الإدراك بان نمط معين للسلوك خاص بنظام معين وليس له علاقة بنظام آخر . مما يؤكد انـــه مـــن الصعب دراسة نظام بعيدا عن سائر النظم الأخرى . ولكن هذا لا يعنـــي أن كل نظام ليس له وظيفة رئيسية ينجزها ويكون مسؤول عنها فـــي المجتمـــع بالدرجة الأولى وهذه الوظائف هي التي تعطي كل نظام اسمه .

فمثلا : النظام الديني وظيفته الرئيسية هي العبادة .

النظام التربوي وظيفته الرئيسية هي التربية .

الهدف من النظام :

مساعدة الكائنات البشرية في التعامل مع مشاكلهم الصعبـــة الحـــل أو غـــير المحاولة وتمتد إلى معظم أساسيات نسيج الحياة الاجتماعية .

لو شاهدنا مثلا المشاكل الكبيرة في المجتمع مثلا وكانت المجتمعات تعـــرف بصدق الحل للمشاكل الاقتصادية مثل مشاكل الإنتاج والتوزيع سوف لا يكون

هناك نظما اقتصادية متعددة ولكن هناك نظام واحد فقط ولكن المجتمعـــات لا تعرف الحل بصدق مطلق ولهذا توجد حلول كثيرة أي نظم كثـــيرة للإنتـــاج والتوزيع تختلف من مجتمع لآخر . وهذا هو سبب الصراع بين أساليب تلـك المجتمعات في حل المشكلة الاقتصادية لأنهم اعتمدوا على عقولهم البشـــرية التي تحركها وتغيرها اختلاف مصالحهم وأهدافهم وأهوائهم .

وهكذا مع كل النظم نرى اختلافا بين تلك المجتمعات فـــي معاملتـــها لنفـس المشكلة من مجتمع لمجتمع ومن ثقافة لثقافة .

صراع النظم :

كما ذكر من قبل أن الصراعات تنشأ بين النظم أثناء التفاعل ويحـــدث ذلـك بدرجات متفاوتة عن أحد الظروف الآتية :

١ -التعـــــدي :

وهو قد يقع التعدي من أحد النظم على حقوق نظـــام آخـــر بعـــدد مـــن الأساليب وهو نوعان تعدي من النوع الطفيف وتعدي جسيم . والتعـــدي الجسيم يوضحه محاولة بعض النظم اخذ حقوق النظم الأخرى بأســـاليب حادة .

مثل : ما يحدث كثيرا في البلاد الغربية عندما يحاول إتحاد المنتجيـــن ((نظام اقتصـــادي فرعي)) أن يؤثر في قرارات الحكومة أو حتى يديرهـــا لتحقيق مصالحه .

وعادة النظم في حياتها اليومية معرضة للأحداث حتى انه لا يحدث فقـط بعض التعدي على الحقوق بل أيضا يحدث أنواع عديـــدة مـــن الكفـــاح المضخـــم من اجل القوة وذلك يحدث نتيجة التقارب بيـــن النظـــم فـــي المجتمع .

وغالبا يقع الكفاح بين النظم ولكن الحالة الأشد تطرفا والتي تؤدي إلـــى الصراع تلك التي تحدث في داخل مستوى نظام واحـــد ، بمعنـــى بيـــن المنظمات المكرسة لنفس الأهداف النظامية .

مثلا : ما يحدث داخل شركة كبيرة من صـــراع بيـــن إدارات الشـــركة المختلفة فإدارات الشركة هي انساق فرعية كل مكلف بإنجـــاز وظيفـــة جزئية ، وجماع هذه الوظائف وتعاونها وتساندها هو الذي يمكن النظـــام

من إنجاز هدفه ، فإذا وقع الصراع بين انساق النظم الفرعية تعوق الأخرى عن أداء وظيفتها ومن ثم لا يتم إنجاز وظيفة النظام أو أنها تتم في أسوأ حالة .

٢-المنافسة :

المنافسة هي الكفاح بين النظم من اجل التفوق وهي عادة تأخذ شكل كفاح قوي ذو أهمية كبرى ، مثل ما حدث في القرون الوسطى في أوروبا من منافسة بين الكنيسة والدولة ومثل ما يحدث الآن في العالم الغربي من منافسة في كل الولايات المتحدة وألمانيا الغربية واليابان وفرنسا من كفاح بين الحكومة في المشاريع يقاومها رجال الأعمال بشدة فأولئك الرجال يصرون على أن المشاريع الاقتصادية ليست من عمل الحكومة بينما إذا ظهرت المنافسة الخارجية لسلع مشاريع رجال الأعمال فمن الغريب انهم يصرون على تدخل الحكومة لوضع تعريفة جمركية لحماية أعمالهم .

وأيضا هناك المنافسة بين النظم من اجل السمو والتفوق يوضحه الكفاح بين الديانة والحكومة ، فلقد كسبت المسيحية التفوق والإنتشار بفضل ضعف الأباطرة الرومان ثم ضعفت عندما دخلت في صراع القوميات الناشئة في أوروبا والتي انتصرت في النهاية وأصبحت الديانة للدولة في كل دول أوروبا .

وهنا ملاحظة هامة بالإهتمام وهي انه عند نشأة نظام تقع المنافسة بينه وبين النظم الأخرى الموجودة فعلا في المجتمع بل ويقابل بالقوة المتناسبة مع تزايد نمو النظام الجديد . إذ يعني تزايد نمو النظام الجديد تزايد أثره على المجتمع ومن ثم يقابله بالتالي تزايد كبر حجم المقاومة من النظم المستقرة في المجتمع .

بمعنى تزايد تأثير النظام الجديد تزايد ما يجربه من عمليات التغير في أسلوب التفكير والعمل عند أعضاء المجتمع وخير مثال على ذلك :

هو نمو النظام العلمي في أوروبا إبان سيطرة الكنيسة على الفكر الأوروبي وابتدأت منافسة العلم لأفكار الكنيسة مما أدى إلى زيادة مقاومة الكنيسة المهددة مراكزها . واشتدت المنافسة وقتل النظام القديم قواد النظام الجديد بغض النظر وبدون تفكير في فضائل النظام الجديد .

والنظام الجديد لا يمتنع عن أن يجهز للمعركة شهداء يدفعون ثمن النجاح الجديد .

مثال : تاريخ النظام الديني الإسلامي عند نشأته قدم آلاف الشهداء الأبرار في صراعه مع نظام الوثنية .

٣- الإلتــــواء :

هو الصراع الذي يحدث عندما توضح النظم في غير موضعها أي ترتيبها الصحيح ومن ثم تندفع إلى الصراع مع الآخرين . هناك سلم طبيعي للنظم .

مثلا : النظم التي يفترض وجودها من أجل خدمة نظم أخرى والتي لهذا لا يمكن أن تكون نهايات في ذاتها ، النظم الاقتصادية والاتصالات والنقل هي نظم خدمة فهي توجد من أجل تهيئة أهداف نظم أخرى لأن الناس لم توجد فقط من أجل إرسال خطابات أو أن تحمل من مكان إلى مكان ولا أيضا وجدوا من اجل السلع ، لأن السلع وجدت من أجل الناس .

فعندما نظم الخدمة تعمل كوسائل نحو بعض الأهداف تصبح مهمة جدا في المجتمع . ولكن أن تتحول لخدمة نفسها كأهداف لا بد بالضرورة أن تندفع إلى الصراع مع النظم الأخرى .

مثلا : في الولايات المتحدة الأمريكية في النصف الثاني من القرن العشرين هدد نظام النقل المجتمع إذ حاول أن يصبح هدفا للحياة عند بعض الجماعات ، واصبح جزء غير متناسب من دخلهم يذهب في شراء وحفظ السيارات مما أدى إلى انهيارات في كثير من الأسر .

فمثلا في أوروبا يعتبر النظام السياسي أعلى في السلم من النظام الديني منذ القرن السادس عشر ولكن في فترات كثيرة من تاريخ الكنيسة الكاثولوكية الرومانية حاولت التدخل في السياسة وحاولت قيادة الجانب السياسي في الحياة الاجتماعية ولكن لم يتحقق غير الفشل والإستسلام .

الإلتواء هو شكل متطور من المنافسة بين النظم وهي تدل على أن نظام التوي بعيدا عن مكانة الصحيح في المجتمع واصبح يهدد مكانة بعض النظم الأخرى ومن ثم دخل في صراع جاء معها . ومثال ذلك عندما اصبح أصحاب مهنة الطب كمهنيين أقوياء بدرجة كافية حاولوا التأثير في السياسة عن طريق الاتحاد الطبي الأمريكي . أن يكون الأطباء كأفراد

مواطنين عليهم أن يشاركوا في الحياة السياسية هذا أمـــر طبيعـــي فـــي الديمقراطية . ولكن أن يعمل اتحادهم كجماعة ضاغطـــة ذات ميزانيـــة كبيرة تكرس لهدف التأثير في السياسة يعتبر شيئا آخر يوضـــح خـــروج اتحاد الأطباء كنظام اجتماعي عن مكانه الصحيح واصبح يـــهدد النظـــام الاجتماعي السياسي .

أيضا ممكن أن نعطي مثال آخر هو الرشوة للموظفين العموميـــين عـــن طريق رجال الاقتصاد للحصول على أهداف عادة على طرفي نقيض مع المصلحة العامة هنا النظام الاقتصادي التوى عن وضعه الصحيح كنظـــام خدمة واصبح يهدد أمن الحكومة « نظام سياسي » بل والمجتمع أي جميـــع النظم .

٤- الإغتصـــاب :

وهذه المرحلة الأخيرة في سلسلة الصراعات بيـــن النظـــم هـــي الحالـــة المتطرفة التي يضعها الإغتصاب ، ففي بعض الأحيان يحدث من نظـــام واحد في داخل ثقافة محاولة التغلب على كل الثقافة .

مثال : « مثلا في الإتحاد السوفيتي جعلت الحكومة مـــن نفســـها المنبـــع الوحيد للسلطة والقوة في المجتمع الروسي حتى أن الحكومـــة اغتصبـــت حقوق نظام الفن فقررت ما هي الموسيقى الحســـنة ومـــا هـــي الســـيئة والمجتمعات ذات النظام الواحد تميل إلى التحجر فهي إذا كـــانت تدعـــي النجاح في الحصول على التنظيم ولكن كان ذلك بلا شك علـــى حســـاب النظم التي نظمتها . وبهذا تكون قد أغلقت النظم الأخرى وأفقدتها كفاءتها على القيام بوظائفها » .

وربما اقدم واكثر النماذج المألوفة للإغتصاب ذلك الذي يحـــدث عندمـــا نظام تنظيمي كالحكومة يحتوي المجتمع ويصبح اكثر النظم أهميـــة فـــي ذاته .

علاقة الصراع بالمعايير :

مفهوم المعايير :

المعايير هي قواعد أي أنماط للسلوك تحدد ما هو متوقع ومعتاد وصواب أو مناسب في موقف معين ، فهيَ ترشيد الإنسان إلى ما يجب أن يعمل أو يفكر في موقف معين واكثر من ذلك ما يشعر به .

فمثلا نحن نعرف أن لعبة كرة السلة لا يمكن أن تحدث بدون قواعد . هذه القواعد هي المعايير ، إذا فالمعايير هي قاعدة تحكم وتوجه سلوكنا في كل المواقف الاجتماعية التي نشترك فيها .

الوظيفة الأساسية للمعايير :

هي خفض أو إقلال المناقشات في المواقف الاجتماعية العديدة التي يواجهها الإنسان والتي يشارك فيها ، وبدون المعايير يصبح عبء المناقشة لا يطاق . وأي فوضى قد تنشأ تكون في حالة غياب المعايير . كما أنه بدون المعايير تصبح العلاقات الاجتماعية عشوائية بل ومحتمل تكون محلا للخطر .

إذا المعايير هي التي تعطي النظام والاستقرار وإمكانية التنبؤ للحياة الاجتماعية ، وهذا ما يجعل من المعايير عنصرا هاما في البناء الاجتماعي ، أي موقف اجتماعي لا معايير له يصبح مصدرا للفوضى والإضطراب .

وان المجتمع بلا معايير لا يستطيع الاستمرار في البقاء فحيث لا يكون هناك معايير لا يكون هنا مجتمع .

أنواع المعايير :

من أهم المعايير التي اتفق عليها علماء الاجتماع هي : الأساليب الشعبية ، الأعراف والعادات والطقوس والتقاليد والقيم ومعايير الجماعات المنظمة .

العوامل التي تساعد الأفراد على التطابق مع معايير مجتمعة هي :

* التعليم والتثقيف .
* الألفة .
* المنفعة .
* التوحد مع الجماعة .

صراع المعايير :

يعتبر الصـــراع من أحد أهم المواضيع في تحليل البنـــاء الاجتمـــاعي وفهمه ، إذ يمكن أن يكون الصراع بين المعايير محددا هامـــا لســلوك الأفراد والجماعات والمنظمات والمجتمعات ، إذ تمكننا معرفة مواطنـــه في البناء الاجتماعي ليس فقط من فهم احسن لأنماط السلوك ولكن أيضـا إمكانية التنبؤ بها .

ولكن في المجتمعات الحديثة التي تكون من جماعات مختلفة وكل منـــها على ما نرى له معاييره المختلفة التي يتطـــابق معـــها الأعضــاء فقــد يتعرض الفرد أو الجماعة لمعايير متعددة بعض هذه المعايير قد تكـــون متوافقة ويؤيد بعضها البعض ولكن من المحتمل أن تختلف المعايير ومن ثم قد تكون متعارضة وفي بعض الأحيان متصارعة كل مع الأخـــرى . فأحيانا ما يعتبر خطأ عند جماعة من الجماعات يعتـــبر صـــواب عنـــد جماعة أخرى حتى في نفس المجتمع الواحد .

مثال : ففي المجتمع الأمريكي مثلا يوجـــد الكـــاثوليك والبروتســـتانت واليهود ولكل من هذه الجماعات معاييرها التي قد تتعارض أيضا مـــن الناحية السياسية يوجد الديمقراطيون والجمهوريون .

وأيضا من ناحية جماعات العمل يوجد ذوي الياقات البيضـــاء والعمـــال وفي الأفكار أيضا يوجد المثاليون والماديون ، كذلك المجتمع الحديـــث لا يمكن أن يعرض درجة من التكامل الثقافي التي يتمـــيز بـــها المجتمـــع البدائي .

المجتمعات المتعارضة الثقافات :

نجد أن الفرد مثلا الذي يتعرض لثقافات متعارضة وقد تكون متصارعة فمثلا قد يتعرض طالب عربي مثقف إلى أمريكا للثقافات الآتية :

١-ثقافة مجتمعه العربي بمعاييرها .

٢-وأيضا ثقافة الحضارة الغربية بمعاييرها المختلفة وفي نفس الوقت يباشر كل منها ضغطا عليه بل أن المجتمع الواحد قد يكون فيه ثقافات فرعية متعددة يتعرض لها الفرد أو الجماعة فالفرد ينتمي في نفس الوقت إلى جماعات متعددة ومن ثم مطلوب منه التطابق مع معايير مختلفة .

أو مثلا طالب يكون في الريف ثم يأتي إلى الحضر ثم ينضم إلى جماعة الألعاب الرياضية ثم يعمل في مصنع وتحل هذه التنظيمات هي جماعات لكل جماعة معاييرها قد يؤيد بعضها بعضا ، وبعضها قد يتعارض مع الأخرى .

وعندما تتعارض هذه المعايير أو تتصارع هنا يجد الفرد نفسه مضطر للاختيار بينها ، ويمكن أن تكون النتائج أن ينمي الأفراد لأنفسهم صراعا للمعايير أو يجرون تغييرات في اتجاهاتهم ومعتقداتهم وهي مشكلة نادرا ما يواجهها الفرد في المجتمعات البدائية .

وأيضا في المجتمعات الحديثة لا يتعرض الفرد فقط لمعايير مختلفة ولكن أيضا يتمثل معايير قد تكون متناقضة وحتى متعارضة منطقيا .

فمثلا : قد يعلم الآباء الأبناء أو قد تعلم الديانة اتباعها أن يعلم كل منهما الفرد أن العلاقات الجنسية أساسا عمل الشيطان ولكنه في نفس الوقت وسائل الإتصال الجمعي من سينما وتليفزيون وقصص أو جماعة الأصدقاء قد يقنعونه أن العلاقات الجنسية أمر طبيعي .

إذا صراع المعايير يمكن أن ينتج تلقائيا وغير محسوس به في أثناء عملية التنشيئة الاجتماعية نتيجة عدم تجانس معايير الديانة والآباء ومعايير وسائل الإتصال الجمعي ومن ثم ينشأ الصراع .

مدى كفاءة النظرية الصراعية كنظرية امبيريقية مدى صلاحيتها ؟

* أن الصراع بين الطبقات والصراع بين الدول هو محصلة التطور الاقتصادي والذي بدوره يؤدي إلى تغيير ملحوظ في البناء الإقتصادي .

وأيضا يصاحبه تغير الوعي الإنساني الاجتماعي مثل مدخل الصراع مدخل متطور ديناميكي .

* تزايد السكان وتزايد الحاجات الاقتصادية يؤديان إلى تزايد في شق تقسيم العمل أو بناء الأدوار وهنا التطور بدوره يؤدي إلى تراكم المكية الخاصة .

* تاريخ كل مجتمع إلى يومنا هذا لم يكن سوى تاريخ صراع بين الطبقات فالحر والعبد والنبيل والعاصي والسيد والإقطاعي ، والمعلم والصانع .

* في المجتمع الحديث يكون الصراع داخل الطبقات وبينها وان المجتمع في كل مكان تقريبا منظما تنظيم متسلسل والأوضاع الإجتماعية فيه على مراتب ودرجات متفاوتة ونجد تقريبا في داخل كل طبقة من هذه الطبقات مراتب ودرجات خاصة .

مثال (الصناعة الكبرى) بتركيز في مكان واحد حشدا من الناس غير معررفين لبعضهم البعض بتفسر المنافسة مصالحهم غير أن أحد آرائهم ودفاعهم من أجل أجورهم يخلق فيهم مصلحة عامة توحدهم معا من خلال فكر عام لمقارنة رؤسائهم .

المجتمع الحديث ما هو إلا عبارة عن مجموعة من الإتحادات المتنافسة والمتعاونة إجباريا والتي تبنيها المصالح ويحيط بها ظروف اجتماعية فان مثل هذا المجتمع يصبح مجهزا بمنبع الديناميكية والتغير الاجتماعي المثمر .

هناك كثيرمن الأمورالتي أدت إلى تغيرات في المجتمع عن طريق الصراع :

* نمو وتطور الشركات الصناعية والتجارية بعد حدوث طفرة كبيرة في تقدم التكنولوجيا ، وبهذا تكون ضعفت العلاقة بين الملكية والسيطرة على الصناعة إذ يمارس المديرون المتخصصون ذوي الرواتب

العالية الرقابة على الصناعة وذلك لإعطاء نوع من الشرعية لمراكزهم في هذه المؤسسات وفي المجتمع وهذا يعتبر مخالفا عما كان سائدا في الماضي .

* ألالامساواة الإقتصادية قد انخفضت معدلاتها بشكل ملحوظ إذ عملت الدولة على تحديد حد أدنى لمستوى المعيشة لمواطنيها وفرضت بعد الدول الضرائب العالية على الدخول المرتفعة وذوي الثروات الكبيرة .

* اصبح للعمال الحق في التعبير عن مصالحهم الشرعية من خلال منظمات معترف بها وهي تلك التي تمارسها النقابات العمالية وأهمها المساواة الجماعية .

أن الصراعات الداخلية المرتبطة بالأهداف والقيم والمصالح والتي لا تتعارض مع الإفتراضات الرئيسية التي تركز عليها العلاقات الجماعية تكون عادة ذات وظائف إيجابية بالنسبة للبناء الإجتماعي ، أو لبناء الجماعة .

فهذه الصراعات تجعل من الممكن تحقيق إعادة التوافق والتكيف للمعايير والقوى الاجتماعية داخل الجماعة في ضوء الحاجات التي يشعر بها أعضاء الجماعة .

* المجتمع الحديث اصبح الآن من الممكن تشخيص المجتمع تشخيصا صحيحا على أساس الصراع بين الجماعات المتباينة .

* في المجتمع الصناعي سوف يصبح الصراع منظما يمكن التنبؤ به إذا خضع لقواعد محددة ومعروفة .

* أن حقيقة المجتمع (أن الجماعات تتوافق قهريا لا يمكن تجنبه أي أن أعضاء الروابط يخضعون لعلاقات السلطة وان هناك وضعين ينظمان هذه الروابط هي الهيئة والخضوع .

ولكن من رأي أن هناك نقطة مهمة يجب أن لا نغفلها وهو عندما تتعارض المعايير أو تتصارع نجد أن الفرد في المجتمع مضطرا للإختيار بينهم خصوصا في الوقت الحاضر الحاصل بين الأجيال وهو ما تستطيع أن نطلق عليه (صراع الأجيال) .

فمثلا نجد الشباب الآن في تضارب بين الثقافات الغربية التي فرضت عليه وأنا هنا أتحدث عن المجتمعات العربية والثقافات التي فرضت عليها من الغرب فنجد الشباب في حيرة أما أن يسروا على ثقافة مجتمعة وأسرته أو أنه يسير على الثقافات الحديثة التي يسير عليها المجتمع وعليه الاختيار الأسلم .

خصوصا المجتمعات التي تجري وراء التقليد الأعمى للثقافات الأجنبية ، التقليد جميل حين يكون ذكيا ومدروسا بحيث نأخذ ما نستفيد من تلك الثقافات وترك ما هو غير مفيد ولا يتناسب مع ثقافتنا المتميزة التي ميزنا بها الإسلام .

والتقليد سيئ لمجرد الرغبة في التقليد ليس إلا ، وأسوأ حين لا يستوعب الاحتمالات العكسية للنتائج ، والعرب بصفة عامة مفتونون بالتقليد مرة تصيب ومرات تخيب وهذا يكون خطيرا حين يحدث في المجالات التي لها تأثير مباشر في تشكيل الوعي والثقافة خصوصا للأجيال الصاعدة .

من هذه المجالات مثلا الإعلام وتأثيره على شباب اليوم وتضاربه مع معايير وقيم مجتمعه وتحديدا القنوات الفضائية لأننا نحن الذين حددنا كيفيتها واخترنا محتوياتها دون وعي بخطورة تأثيرها .

فلو نظرنا إلى البرامج هل هي فعلا تحاول مساعدة الإنسان العربي في التصدي لهمومه الحقيقة من خلال معرفة نابعة من استقراء مدروس واستنتاج علمي كما تفعل مراكز الأبحاث الاجتماعية واستقصاء المعلومات .. ؟ .

للأسف لا هذا ولا ذاك واشد أسفا أن هذه البرامج تحرض ناشئة العرب على الاستغراق في تفاهات، تصرفهم عن التأمل في واقعهم ، وتنمي فيهم الاهتمام بهامشيات ضارة ، أي أنها تمارس الهدم لا البناء وتتيح مناخا لاستفحال كل الأوجاع الاجتماعية الحقيقية .

صحيح أن أي موضوع يمكن أن يكون مهما لو نوقش بوعي وتحليل علمي وتضمين لهدف نبيل ورسالة سامية ، فلو لاحظنا كيف تعالج بعض القنوات الغربية مشاكلهم الاجتماعية وتأملوا الجهد الهائل الطويل الذي يقوم به علماء ومتخصصون في كل فروع القضية .

فيجب علينا أن نفعل مثل ذلك من اجل شبابنا ومجتمعنا لأنه إذا لا نستطيع التقليد الجيد المناسب فمن الأفضل البعد عنه .

هناك أيضا نقطة مهمة يجب ذكرها وهي أن نتائج الصراع ليست دائما إيجابية بحيث يكون هناك ترابط بين المجتمعات بل أيضا توجد نتائج سلبية ، لذلك عند الصراع لا بد أن تكون الفئات أو الجماعات والدول المتصارعة أن تكون متكافئتان حتى تخرج بنتيجة إيجابية .

فمثلا اشتراك الدول العربية مع دول العالم الأمريكي والعربي في انفتاح الأسواق .

الباب الثالث

النظرية الاجتماعية المعاصرة

الفصل الأول : الإتجاه الوضعي الحديث

الفصل الثاني : الإتجاه الوظيفي البنائي

الرواد المعاصرون

الفصل الثالث : الاستخدام المنهجي للنظرية الاجتماعية في الاتجاه الوظيفي البنائي

الفصل الأول الاتجاه الوضعي الحديث

- اهتمامات الوضعية
- اتجاهات الوضعية الحديثة
- رواد الوضعية الحديثة وإسهاماتهم
    - لندبرج
    - أوجبرن
    - شايبين
- اتجاه الأيكولوجيا البشرية
- مراحل تطوير علم الإجتماع الأمريكي
- الملامح العامة للنظرية السوسيولوجية المعاصرة

تمهيـــد :

نتناول في هذا الباب النظرية الإجتماعية المعاصرة شـــرح وتحليـل الإتجاه الوضعي الحديث والاتجــاه الوظيفــي البنــائي والاســتخدام المنهجي للنظرية الاجتماعية وذلك في ثلاث فصول متوالية يربطـــها خط فكري واحد .

وبذلك نقدم رؤية تحليلية نقدية للملامح العامة للنظرية السوسـيولوجية المعاصرة وعلاقاتها بالاتجاهات النظرية الأخرى في علم الاجتمـــاع من وجهة نظر وظيفية باعتبار أن الاتجاه الوظيفي البنائي هو الســائد الآن في علم الاجتماع لما يتميز به هذا الاتجـــاه عـــن الاتجاهـــات النظرية الأخرى .



- **اهتمامات الوضعية الحديثة :**

الوضعية الحديثة أو المحدثة كاتجاه ، تسعي جاهدة إلى تأكيد الفكرة القائلة بأن العلم وحده هو الذي يملك الحقيقة .

والمقصود بالعلم هنا هو مجموعة العلوم الطبيعية التي تشكل في الواقع نقطة انطلاق أصحاب المدرسة الوضعية الحديثة سواء المتطرف منهم أو المعتدل أمثال لندبرج وأوجرن .

المهم أن أصحاب المدرسة الوضعية الحديثة سعوا بكل الجد للبحث عن نظرة موحدة لعلم الظواهر طبيعية كانت أو إنسانية ، وذلك من خلال تطبيق المناهج والنتائج التي توصلت إليها العلوم الطبيعية .

هذا وقد اعتبر تيماشيف أعمال المدرسة الوضعية الحديثة بمثابة محاولة جديدة في مشكلة قديمة واجهت علم الاجتماع منذ ظهوره ، فقد كان الهدف الأساسي للرعيل الأول من علماء الاجتماع – ولازال هدف مختلف العلماء والباحثين خلال مراحل تطور علم الاجتماع – هو إرساء الدعائم العلمية لدراسة المجتمع .

- **الاتجاهات الوضعية الحديثة :**

وعلى كل يمكننا أن نحدد أهم ركائز الوضعية الحديثة على الوجه الآتي :

١ – الاتجاه الكمي :

وهذه النزعة كعنصر من عناصر الوضعية الحديثة ترتكز على اعتبار أن العد أو القياس منهج ضروري سواء عند الدراسة أو عند الاستقصاء العلمي في كل مجالات العلم بما في ذلك علم الاجتماع .

٢ –الاتجاه السلوكي :

ترتكز النزعة السلوكية في الوضعية الحديثة على دعاوى مؤداها أن الشعور لا يمكن معرفته موضوعيا ، أي لا يمكن إخضاعه للوسائل الكمية ، وكذلك الاستبطان لا يمكن أن يكون مصدرا للمعرفة .

ولذلك فمن واجب علم الاجتماع – قياسا على علم النفس – أن يهتم بدراسة السلوك الممكن ملاحظته وإخضاعه لوسائل العد والقياس فقط .

٣- اتجاه المعرفة الوضعية « الابستمولوجيا » :

حيث يجب أن تكون المعرفة أولا وقبل كل شيء نتيجة مباشرة أو غير مباشرة للإنطباعات الحسية وما قد يترتب عليها ، على اعتبار أن حقيقة أي شيء ما تتوقف بالدرجة الأولى على إمكانية حدوثه كليا أو جزئيا على هيئة مجموعة من الانطباعات الحسية أي أن يكون شيئا واقعا وملموسا .

- **رواد الوضعية الحديثة وإسهاماتهم :**

١- لندبرج :

أكد لندبرج خلال مؤلفه الشهير « البحث الاجتماعي » على أن القياس الكمي يعد ضروريا إذا ما أراد العلم أن يقدم وصفا وتحليلا أكثر دقة للظاهرة التي يدرسها .

هذا فضلا عن تأكيد لندبرج على أهمية قياس الاتجاهات وتصميم مقاييسها .

٢- أوجبرن :

قدم أوجبرن العديد من الإسهامات السوسيولوجية المتطورة خلال مؤلفه « التغير الاجتماعي » حيث ما زالت بصمات تلك الإسهامات واضحة على النظرية السوسيولوجية المعاصرة حتى الآن .

ولعل من أهم إنجازات اوجبرن خلال مؤلفه المشار إليه ، هو استبداله مصطلح « التطور الاجتماعي » الذي كان سائدا آنذاك « ما قبل عام ١٩٢٣ » بمصطلح « التغير الاجتماعي » .

هذا فضلا عن أن اوجبرن خلال مؤلفه « التغير الاجتماعي » المشار إليه ، قدم أول دراسة سوسيولوجية استخدمت مفهوم الثقافة بطريقة منظمة تشير إلى « النتاج المتراكم للمجتمع الإنساني » .

هذا علاوة على ما أكده اوجبرن من ضرورة قياس أشكال التخلف المختلفة والآثار الناجمة عنها .

٣- ستيوارت تشايبين :

أكد تشايبين على أهمية الرسوم البيانية الرمزية باعتبارها وسيلة أساسية من وسائل تحديد النظم .

هذا وقد عرف تشايبين النظم بأنها « أنماط من السلوك البشري ، أو هي شبكة من الاستجابات الشرطية ، وعادات فردية ، واتجاهات » ، وجاء تأكيد تشابين على أهمية الرسوم البيانية باعتبار أنها تساعد على إدراك أنماط العلاقات التي يصعب رؤيتها ، وهذه العلاقات يجب أن تخضع في رأي تشايبين للقياس .

هذا ومن الإسهامات المبرزة لتشايبين في النظرية السوسيولوجية المعاصرة ، استعانته بالمنهج التجريبي في البحوث والدراسات السوسيولوجية .

ويرتكز المنهج التجريبي على استخدام منطق التجربة المعملية حتى يمكن الكشف عن الأهمية السببية ، وذلك عن طريق ملاحظة حالتين أو اكثر من حالات النسق الاجتماعي في موقفين مختلفين حسب موضوع الدراسة وطبيعتها ، كأن يقوم الباحث بملاحظة سكان مجتمع ما – في حالة التهجير مثلا – قبل وبعد إعادة توطينهم ، أو أن يقوم بدراسة آثار الإسكان على معدلات الوفيات أو الجريمة مثلا .. الخ .

- **إتجاه الأيكولوجيا البشرية :**

أثرت الأيكولوجيا البشرية – التي اعتبرها تيماشيف وثيقة الصلة بالوضعية الحديثة – النظرية السوسيولوجية المعاصرة من خلال الكشف عن الارتباط بين الأساس البيولوجي للظواهر الاجتماعية من ناحية ، والبيئة الجغرافية من ناحية أخرى .

ومن ابرز فرسان الأيكولوجية البشرية أموس هاولي ، وكلا من بارك وبيرجس ، لكن تبقى دراسة هاولي عن « الأيكولوجيا البشرية »من ابرز الدراسات التي تحدد معالم الأيكولوجيا البشرية في الوقت الراهن ، ولقد نشرت هذه الدراسة عام ١٩٥٢ ، والتي أصبحت الأيكولوجيا البشرية بناءا عليها مبحثا من مباحث علم الاجتماع الحضري ، وعلم الاجتماع الحضري كما هو معروف أحد فروع علم الاجتماع العام .

ويعود الفضل في ذلك لهاولي الذي قرر أن « المحور الأساسي للتنظيم الاجتماعي والسلوك هو التأثير الذي يحدثه المجتمع الحضري ، ذلك المجتمع الذي يتميز بزيادة الحجم والكثافة واللاتجانس ، كما أن أهم سمات التنظيم الاجتماعي في المدن هي العلمانية ، ونمو الجماعات الثانوية وتزايد تقسيم الأدوار، وعدم وضوح المعايير ، وشدة الحراك الاجتماعي » .

هذا وقد قرر تيماشيف أن النظرية السوسيولوجية الحديثة في علم الاجتماع الحضري تدين بالفضل إلى كثير من الدراسات الامبيريقية التي أجراها هاولي وغيره « بارك وبيرجس » ، حيث قدم هؤلاء جميعا أعمالا رائعة في مجال الأيكولوجيا البشرية .

النظرية الاجتماعية المعاصرة :

أن الأساس الذي قام عليه علم الاجتماع الأمريكي ارتباطه الوثيق بمفكر أوروبا في القرن التاسع عشر .

واستناد العمل السوسيولوجي الأمريكي على أعمال كونت – سبنسر – وداروين والإيمان بالقوانين الطبيعية والتغير الاجتماعي إلى الأحسن والإصلاح الاجتماعي والرؤية الفردية للمجتمع وإرتفاع النسب المئوية للعلماء الذين لهم تجارب وثقافة دينية وريفية ، واعطاء تأكيد اكبر على مشكلات المجتمع الأمريكي في أعقاب التطور الصناعي والحضري لمجتمع ما بعد الحرب الأهلية .

وعلى العموم ممكن أن ننظر إلى العلم الاجتماعي الأمريكي باعتباره استجابة من بعض مفكري الطبقة الوسطى للمشكلات الاجتماعية في أمريكا ولكن في ضوء تعاليم علم الاجتماع الأوروبي في القرن ١٩ .

ولقد سيطرت النزعات العضوية والتطورية والمثالية على مضمون هذه المداخل كما كشف عن ذلك أعمال المفكرين الرواد مثل لستر وارد – وليم سمنر – وسهول – وفرانكلين . فالنظرية الاجتماعية منذ نشأتها اتجهت إلى تطبيق النموذج العضوي على مشكلات وأمور المجتمع الأمريكي في أعقاب الحرب الأهلية .

وهكذا يمكن أن نقول أن مضمون وسياق علم الاجتماع الأمريكي يماثل مضمون وسياق علم الاجتماعي الأوروبي . ومع ذلك فمظاهر الخلاف بينهم ظهرت ونمت أثناء التطور المستمر لعلم الاجتماع الأمريكي بفضل تأثير الثقافة الأمريكية المادية .

مراحل تطور علم الاجتماع الأمريكي :

تطور علم الاجتماع الأمريكي تطورا سريعا عبر أطوار أربعة هي :

المرحلة الأولى : المرحلة العلمية : ١٩١٨-١٩٣٥ :

في هذه الفترة حاول علم الاجتماع الأمريكي أن يتجه اتجاها علميا امبيريقيا تنظمه القواعد المهنية والأكاديمية وبدأت التخصصات الفرعية

في الظهور . وزاد الاهتمام بالمسوح الاجتماعية والدراسات التي تهدف إلى جمع البيانات مما أعطى تأكيدا واضحا لتأثير البيئة الاجتماعية على تطور علم الاجتماع .

وهناك حدثان هامان اثر تأثيرا كبيرا على البيئة الأمريكية وكان لهما آثارهما على التطور في علم الاجتماع :

١- الحرب العالمية الأولى .

٢- الكساد العالمي في ١٩٣٠ .

وقد دعما هذان الحدثان الجهود التي تبذل للاستفادة من النزاعات التجريبية في علم الاجتماع الأمريكي .

وهكذا تحول علم الاجتماع إلى التجريبية في مجتمع رفع من شأن القيم المادية ، وآمن ببناء اقتصادي قوي ، وقد كان لهذا التغيير صدى كبير على شكل علم الاجتماع الأمريكي واهتماماته فيما بعد .

إذ كان لهذا التغير آثاره التي دفعت إلى الاهتمام بالطابع التحريبي وزيادة التخصص في مجالات علم الاجتماع .

المرحلة الثانية : البحث والتطبيق والنظرية ١٩٣٥ :

في هذه الفترة ازداد الاهتمام بالنزعة النفعية والطابع المهني كما تعددت التخصصات في علم الاجتماع ، كما تمت التنظيمات التي تضم علماء الاجتماع ، وزاد التأثير ببعض المفكرين الاوروبيين مثل دوركايم – وفيبر ذلك التأثر الذي أسهم في نشأة وتطور النزاعات السلوكية الاجتماعية وظهور النزعة الوضعية الجديدة في علم الاجتماع .

المرحلة الثالثة المعاصرة في الصراع منذ الستينات :

في هذه الفترة ظهرت نظرية الصراع في كتابات علم الاجتماع الأمريكي واستجابة للمظاهر المتباينة للصراع الاجتماعي والعنصري داخل المجتمع الأمريكي ، وبالتالي ظهرت محاولة في علم الاجتماع تتجه إلى إعطاء مزيد من الاهتمام لمظاهر الصراع من أجل تفسير تلك الأحداث ، كما ظهرت محاولة أخرى في علم الاجتماع الراديكالي تحاول تفسير الاتجاهات التقليدية في علم الاجتماع الأوروبي ، ودراسة نقدية وان تكشف عن نمط جديد تطبيقي لعلم الاجتماع اكثر ملائمة مع حاجات المجتمع ومشكلاته . وظهرت تخصصات اكثر في علم الاجتماع تهتم بتحليل الحركات العنصرية والعلاقات بين البيض والسود معتمدة في تحليلاتها وتفسيراتها على الأفكار الماركسية الجديدة .

إذا النظرية الاجتماعية المعاصرة تعبر عن ردود الأفعال إزاء الأحداث التي وقعت في المجتمع الأمريكي كله .

المرحلة الرابعة : التكنولوجيا ونظرية الأنساق الحديثة منذ السبعينات من هذا القرن :

في هذه الفترة البيئة الجديدة تميزت بالكساد في العالم والانغلاق داخل القارة الأمريكية بأنها بيئة جديدة سادت فيها أهمية الحاجات التكنولوجية الاقتصادية وأهمية التخصص الشامل والتحكم في الأولويات . مما أدى إلى ظهور النزعة البنائية الوظيفية ونظرية الأنساق وتطبيق مبادئها في علم الاجتماع . وقد أعطى اهتمام شديد لجمع البيانات وتخطيط الأنساق الاجتماعية التي تستجيب بكفاءة للحاجات البيروقراطية في وقت شحت وندرت المواد وتزايد حجم المشكلات الاجتماعية مما أدى إلى أحياء النموذج العضوي والبنائية الوظيفية .

الملامح العامة للنظرية السوسيولوجية المعاصرة

وبعد .. هل يمكن أن تنهض نظرية سوسيولوجية شاملة بناء على كل الإسهامات التي أوردناها والتي لم يسعفنا الوقت والحظ حتى نذكرها ؟!

الجواب قد يبدو صعبا .. خصوصا وان علم الاجتماع لا زال يبحث لنفسه عن نظرية توجهه وتجعل له مكانا يليق به بين غيره من العلوم .

ولكن الأمر الواضح أن تلك الإسهامات مجتمعة قد شكلت بعض ملامح نظرية سوسيولوجية عامة تحاول جاهدة أن تجد لها إطارا منظما من المعرفة المرتكزة على مجموعة كبيرة من الملاحظات والاستنتاجات .

وعلى كل حال .. فان الإسهامات التي حددت مسيرة التفكير النظري لعلم الاجتماع عبر العصور قد حققت تقدما ملموسا نحو ابراز هوية ذلك العلم خصوصا خلال النصف الأول من القرن العشرين وما أفرزته تلك الفترة من إسهامات واتجاهات بل ونظريات سوسيولوجية قد حسمت إلى حد بعيد كثيرا من القضايا التي كانت تقف في سبيل بروز نظرية سوسيولوجية شاملة .

كما كان من نتيجة ذلك الحسم أيضا أن تحدد الكثير من الملامح العامة لتلك النظرية السوسيولوجية المرتقبة .

هذا ويمكننا أن نحدد ملامح ذلك الحسم وما تبعه من نقاط أو إجماع بين علماء الاجتماع وباحثيه حول العديد من النقاط التي تصلح زوايا ارتكاز للنظرية السوسيولوجية المعاصرة .

- **تعريف علم الاجتماع :**

أمكن الاتفاق على تعريف محدد لعلم الاجتماع ، واعتبر تعريف سوروكين ، تعريفا مجمعا لمختلف الآراء والاتجاهات حيث عرف علم الاجتماع بأنه :

((دراسة الخصائص العامة لكل صنوف الظواهر الاجتماعية ، ودراسة العلاقات المتبادلة بين هذه الظواهر)) .

- **الظواهر الاجتماعية موضوع الدراسة في علم الاجتماع :**

هناك اتفاق عام على أن الظواهر الاجتماعية هي موضوع دراسة علم الاجتماع ، كما أن لهذه الظواهر خواصها الذاتية ، ومعنى هذا كما يقول تيماشيف أنه لا يمكن رد تلك الظواهر إلى وقائع أو ظواهر غير اجتماعية كالظواهر السيكلوجية أو الطبيعية مثلا .

كما أمكن تعريف الظاهرة الاجتماعية التي هي وحدة التحليل السوسيولوجي بأنه :

((تفاعل بين شخصين أو أكثر)) ، وذلك التفاعل لن يتم إلا إذا كان كل فعل إنساني صادر عن شخص ما .. معتمدا على وجود فعل آخر صدر عن شخص ثان ، ومن هنا يمكن القول بأن الأفراد قد أصبحوا أطرافا في علاقة اجتماعية .

- **الجماعة كأحد موضوعات علم الاجتماع :**

أجمع علماء الاجتماع وباحثيه على أن الجماعة الاجتماعية تعتبر من أهم الموضوعات الأساسية في الدراسة السوسيولوجية ، فالجماعة الاجتماعية تمثل نسقا – أي بناءا – يتألف من أجزاء دون أن تفقد هذه الأجزاء فرديتها وذاتيتها .

ويشرح تيماشيف هذه النقطة فيقول ((أن الكل يمتلك خواصا لا يمكن أن تتوافر لأي جزء من هذه الأجزاء منفردا)) .

هذا ويدخل الأفراد الذين يشكلون الجماعة الاجتماعية في أنماط عديدة من العلاقات بحيث يحتل كل منهم وضعا اجتماعيا معينا في الجماعة يطلق عليه أحيانا ((المكانة)) .

ويهدف التفاعل بين الأفراد داخل الجماعة الاجتماعية إلى إشباع الحاجات الإنسانية ، واعتبر أن الإشباع هو الوظيفة الأساسية

للجماعات الاجتماعية التي يجب أن تتنوع وتتعدد لتقابل الحاجات الإنسانية المتعددة والمتنوعة .

أما التفاعل الذي هو وسيلة الإشباع بين الأفراد داخل الجماعات ، فانه يخضع إلى مجموعة من المعايير أو القضايا التي تحدد السلوك المتوقع لأطراف التفاعل تحت ظروف معينة .

ولابد أن تكون تلك المعايير التي يخضع لها التفاعل ، لابد أن تكون مقبولة بصفة عامة من جانب أعضاء الجماعة ، مع ضرورة وجود جزاءات تمثل رادعا لمنتهكي تلك المعايير المتفق عليها .

هذا ومن خواص الجماعة الاجتماعية بوصفها نسقا ، أنها تمتلك خاصية الاحتفاظ بتوازنها العام إزاء إلية اضطرابات ، كما أنها تسمح بوجود تسلسلات رئاسية مميزة .

- **العمليات الاجتماعية كميدان للدراسة في علم الاجتماع :**

هناك اتفاق على أن العمليات الاجتماعية تعتبر ميدانا من ميادين الدراسة في علم الاجتماع وذلك من خلال نظرة جديدة لها وفقا لتوجيهات أهداف الأفعال التي تتألف منها تلك العمليات .

ويعد التعاون والمنافسة والصراع من العمليات الاجتماعية الأساسية في الحياة الإنسانية .

- **الثقافة كموضوع رئيسي لدراسة علم الاجتماع :**

تعتبر الثقافة – بإجماع كل الآراء – موضوعا رئيسيا للدراسة السوسيولوجية .

تعريف الثقافة :

تعرف الثقافة بأنها « الكل الذي يتألف من قوالب التفكير والعمل في مجتمع معين »كما تعرف الثقافة أيضا بأنها « تراكم الاختراعات سواء أكانت تكنولوجية أو أيديولوجية أو اجتماعية » . .

هذا وترتبط كل عناصر الثقافة فيما بينها ارتباطا وظيفيا ، بمعنى أن العناصر الثقافية تتكامل في شكل أنساق .

أما المحددات العديدة للثقافة التي تشمل فيما تشمل ، المناخ ، التربة ، الكثافة السكانية ، مستوى التقدم التكنولوجي ، الخبرة ، والعامل

التكنولوجي ، تلك المحـددات ترتبط فيما بينها لتسهم في النهايــة فـي تشكيل الثقافة السائدة في المجتمع .

كما تمثل السمات المكونة للثقافة أدوات أو وسـائل لإشـباع الحاجـات المقررة اجتماعيا وثقافيا لأعضاء المجتمع الكبير والجماعات المختلفـة التي يضمها .

ومن المهم هنا أن نشير إلى أن علماء الاجتماع قد أكدوا وجود نوع مـن التفاعل الدائري ليس فقط بين الفـرد وثقافته ، بل بينه وبيـن مجتمعـه أيضا ، كما أكد علماء الاجتماع أيضا أن شخصية الفرد تتشكل من خلال ثقافة المجتمع الذي ينتمي إليه ، وان هذا التشكيل يتم بواسطة الـــهيئات والمنظمات التي تتولى عملية التنشئة الاجتماعية .

- **التغير كميدان أساسي للدراسة السوسيولوجية :**

التغير سواء في الثقافة أو البناء الاجتماعي ، يشكل ميدانا أساسيا للدراسة المتطورة في علم الاجتماع ، وهذا باتفـاق جميـع علمـاء الاجتمـاع وباحثيه .

ميكانزمات التغير :

تتألف الميكانزمات الأساسية للتغير الاجتماعي والثقافي من ثلاثة عمليات متتالية هي .. الاختراع فالقبول ثم الانتشار .

ومن المعروف أن الثقافة تتم على أساس التراكمات التي تأخذ في كـل مجتمع شكلا فريدا لأنها تتم بطريقة انتقائية لا يمكن معها أن تتشابه فـي النهاية أية تراكمات بشكل مطابق تماما لتلك الأشكال التـي تمـت فـي مجتمعات أخرى .

ومن هنا كان القول بأن لكل ثقافة طابعها الخاص ، وان لكـل إنسـان شخصيته المتميزة .

- **مستقبل النظرية في علم الاجتماع :**

ما عرضناه قبلا كانت نقاط التقاء ، ولكن هل يمكن لمثل نقاط الالتقـاء تلك أن تكون ركيزة ثابتة تنهض على أساسـها نظريـة سوسـيولوجية متكاملة وشاملة ؟ .

الجواب بالقطع – صعب وان كانت نقاط الالتقاء تلك قد مكنـت عالمـا مبرزا مثل سوروكين من أن يقدم فرضا مؤداه أن العلوم النظرية تتطور وفقا لنمط من التحولات ضـرب له العديد من الأمثلة خلال مؤلفه عن

« النظريات السوسيولوجية في عالم اليوم » ، وقد تنبأ سوروكين بـ... الجيل الثاني من علماء الاجتماع سوف يهتم بصياغة قوانين عامة تحدد الاستاتيكا والديناميكا الاجتماعية ، وذلك بالاستناد إلى البيانات الكث... المتناثرة التي تم له – أي للجيل الثاني من علماء الاجتماع – الحصو... عليها .

ومع أن تيماشيف قد تنبأ لتنبؤ سوروكين بان يكون صحيحا وصادقا ، الا انه شك في أن يرتكز علم الاجتماع مستقبلا على أساس دراسة متعمقة .

وتوقع تيماشيف أن يظل التقسيم الحالي لعلم الاجتماع إلى معسكرين قائما ، حيث يرتكز أحد المعسكرين على جمع البيانات الواقعية ومعالجتها ، بينما يلجأ المعسكر الآخر إلى الاستعانة بهذه البيانات في سبيل صياغة نظرية عامة .

- **حول النظرية السوسيولوجية المأمولة :**

يمكننا أن نعود ختاما لهذا الفصل لنؤكد أن النظرية السوسيولوجية لا بد لها وهي تعالج مجموعة ما من الظواهر الاجتماعية أن تضع في اعتبارها شيئين هامين هما :

أولا – أن النظرية السوسيولوجية تتناول ظاهرة معينة أو مجموعة ما من الظواهر ، وتتوافر على تقديم تفسير ملائم لتلك الظاهرة أو الظواهر موضوع النظرية من خلال نسق استنباطي منظم .

ثانيا – أن أية نظرية سوسيولوجية يجب أن تتوافر لها مجموعة من الخصائص هي :

أ- لا بد للنظرية السوسيولوجية أن تضمن مجموعة من المفاهيم سواء أكانت تلك المفاهيم مفاهيم وصفية أو مفاهيم إجرائية .

ب- لا بد أن تتكون النظرية السوسيولوجية من مجموعة من القضايا التي تكون نسقا استنباطيا معينا يمكن من خلاله أن تتداعى القضايا الواحدة من الأخرى وصولا إلى الهدف النهائي للنظرية ، وهو تفسير ظاهرة ما أو مجموعة من الظواهر التي تعالجها النظرية .

ج- لا بد أن تكون كل القضايا – أو بعضها على الأقل – التي تتضمنها النظرية قابلة للاختبار ، حتى يمكن التأكد من صدقها أو كذبها ، وتعرف القضايا التي من هذا النوع بأنها قضايا اجتماعية أو ممكنة .

الباب الثالث

الفصل الثاني

الاتجاه الوظيفي البنائي

الرواد والمعاصرون

- مفهوم الوظيفية
- معالم الاتجاه الوظيفي
- نمو الاتجاه الوظيفي في النظرية السوسيولوجية المعاصرة (الرواد : دوركايم ، براون ، مالينوفيسكي)
- الاتجاه البنائي ، تعريفه وخصائصه
- المعاصرون الوظيفيون
  - بارسونز
  - تونيز
  - زنانيكي
  - ماكيفر
- الاتجاهات النظرية وعلاقاتها بالاتجاه الوظيفي المعاصر .
  - الاتجاه الايكولوجي
  - الاتجاه الديموجرافي
  - الاتجاه السيكولوجي
  - الاتجاه المادي
  - الاتجاه التكنولوجي
  - الاتجاه الإحصائي
  - اتجاه بحث الحالة
- ما يميز الاتجاه الوظيفي عن الاتجاهات النظرية في علم الاجتماع .

الفصل الثاني

الاتجاه الوظيفي البنائي الحديث

يؤدي الاتجاه الوظيفي الآن دورا رئيسيا مبرزا ومرموقا بالنسبة للنظرية السوسيولوجية المعاصرة للحد الذي لا نكاد نلمح معه أي عالم أو باحث سوسيولوجي بصفة عامة ، أو انثربولوجي بصفة خاصة ، إلا وقد شكل الاتجاه الوظيفي ملمحا رئيسيا لديه سواء في دراسته أو منهجه أو تفسيراته .

ولقد صارت هذه الظاهرة – ظاهرة الوظيفية – من العمومية بدرجة يؤكد معها عدد غير قليل من علماء الاجتماع أن دراسة مسائل علم الاجتماع تتجه بالضرورة اتجاها وظيفيا وبنائيا .

- **مفهوم الوظيفية كاتجاه :**

حدد تيماشيف مفهوم الاتجاه الوظيفي ، ولخص على حد تعبيره القضية الوظيفية التي تدور حولها كتابات الوظيفيين على النحو الآتي :

« أن النسق الاجتماعي يمثل نسقا حقيقيا تؤدي أجزاؤه فيه وظائف أساسية لتأكيد الكل وتثبيته ، وأحيانا لاتساع نطاقه وتقويته ، ومن ثم تصبح الأجزاء متساندة ومتكاملة على نحو ما .. » .

الوظيفية كاصطلاح من اكثر الاصطلاحات التي ثار حولها الجدل في العلوم الاجتماعية ، وذلك نظرا للاستخدامات المختلفة لكلمة « وظيفة » وعلى كل المستويات ، إلا أن هناك شبه إتفاق بين علماء الاجتماع والانثربولوجيا حول عدة معاني للوظيفية مستمدة كلها من العلوم البيولوجيه ، فقد اتفق كل من رادكليف براون ومالينوفسكي على أن لب التحليل الوظيفي يكمن في دراسة الجانب الذي تلعبه الفقرات الثقافية والاجتماعية في المجتمع .

[illegible] أن هناك قبولا – من خلال الكتابات الحديثة في علم الاجتماع – لربط [illegible]ظيفية بنمط النشاط الذي يقوم به الجزء أو الكل بحيث لا يكون غيره [illegible] على أن يقوم بمثله .

ولهذا يرتبط الاتجاه الوظيفي بالتنظيم الاجتماعي الذي يتميز بنشــاط معيــن واستخدام خاص ، وما ينطوي عليه عمل التنظيم من عمليات تقوم بـــدور التكامل .

ولقد أمكن تحديد مفهوم الوظيفية ومعناها بشكل دقيق من خلال ربط الكلام عن الوظيفية بالإشارة إلى هدف لا شعوري وموضوعي في وقت واحــد ، أو بعبارة أخرى فإننا ننظر إلى الظواهر الاجتماعية أو العمليات باعتبارها متجهة نحو تحقيق أهداف محددة .

إلا أن تيماشيف يرى أن معنى الوظيفية يجب أن يتسع أكثر مما هو عليــه الآن ، وإن كان يرى أن عالم الاجتماع الوظيفي سيظل واقفا علـــى أرض صلبة طالما أنه قيد نفسه بالإجابة على التساؤلات التي تدور فقــط حــول الإسهامات التي تؤديها الأجزاء المختلفة من أجل تدعيم الكل وتـــأكيده أو العكس ، وطالما أيضا أنه – أي عالم الاجتماع الوظيفي – ظل مهتما فقـط بدراسة طبيعة ومدى تكامل عناصر النسق الاجتماعي .

- **معالم الاتجاه الوظيفي :**

الاتجاه الوظيفي تسوده الآن وتتنازعه أحيانا فكرتان رئيسيتان :

١- الأولى .. ترى ضرورة دراسة الوحدات الكبرى في المجتمع .

ودعاة هذا الاتجاه يقيمون دعواهم ارتكازا على الاتجاه العضوي في علـــم الاجتماع .

٢- الثانية . تركز اهتمامها على وظيفة الوحدات الصغرى في المجتمـع واعتبارها محل التحليل السوسيولوجي .

ويستمد أصحاب الاتجاه الثاني أصولهم من علم النفس الجشـــتلتي وعلـــى الأخص دينامية الجماعات .

ومن الطبيعي أن يكون لكل اتجاه نقاده ، إلا أن بعض النقاد يفضلـــون رد هاتين الشعبتين إلى الاتجاه الوظيفي العام نظرا لأن خصائص ذلك الاتجــاه الوظيفي الكلي أو العام تنطبق على كل من الفكرتين المشار إليهما بشـــكل عام .

يمكـــننا أن نتتبع نمو الاتجـــاه الوظيفـــي فـــي النظريـــة السوســـيولوجية المعاصرة من خلال :

- آراء دوركايم والوظيفية :

يعتبر كثير من العلماء أن الفضل في ظهور الاتجاه الوظيفي في الانثربولوجيا يعود بالدرجة الأولى إلى دوركايم ، وبالذات إلى مزجه بين الافتراضات العضوية وبين المادة الأنثوجرافية التي جمعها غيره من العلماء عن بعض القبائل الاسترالية ، وإلى إخضاعه هذا المزيج إلى التحليل الوظيفي .

٢- آراء رادكليف براون والوظيفية :

أعاد رادكليف براون صياغة تعريف أميل دوركايم لوظيفة النظم الاجتماعية ، وركز بالذات على استبدال لفظ « الحاجات » بعبارة أخرى هي « الظروف الضرورية للوجود أو للمعيشة » ، حيث كان دوركايم قد عرف وظيفة النظم الاجتماعية على اعتبار أنها « تقوم بإشباع حاجات الكائن الاجتماعي » .

ولم يكتف براون بذلك بل عمق معنى الوظيفية وامتدت رؤياه إلى ملاحظة وجود بناء اجتماعي يكون الأفراد فيه الوحدات الأساسية للمجتمع ، حيث يرتبطون بعضهم بالبعض الآخر من خلال مجموعة من العلاقات الاجتماعية التي تترابط في كل متكامل ، ويعود الفضل في استمرار البناء الاجتماعي إلى عملية الحياة الاجتماعية .

مع الأخذ في الاعتبار أن الحياة الاجتماعية في أي مجتمع ما هي إلا محصلة الوظائف التي يؤديها البناء الاجتماعي .

٣- آراء مالينوفسكي والنظرية الوظيفية :

أسهم مالينوفسكي في نمو الاتجاه الوظيفي ليس فقط عن طريق العديد من دراساته الحقلية التي قام بها ، وإنما عن طريق اهتمامه بدراسة الثقافة التي اعتبرها « وحدة عالية من التنظيم تضم مجموعة من الفنون العملية إلى جانب نسق من العادات » .

كما قدم مالينوفسكي « النظرية الوظيفية للثقافة » التي قال أن وحداتها الحقيقية هي النظم ، وقد عرف النظم على اعتبار أنها « مجموعات من وجوه النشاط التي تنتظم حول حاجات معينة » .

ولقد عاد مالينوفسكي فعرف النظم في إطار نظريته الوظيفية للثقافة بأنها :

« جماعات الناس موحدين لمتابعة نشاط معين ، ومن خلال توحدهم المستمر ينشأ التنظيم الاجتماعي والعادات والتقاليد والسلطة وغير ذلك من العناصر الثقافية » .

هذا وقد ارتكزت النظرية الوظيفية للثقافة على مجموعة من المسلمات والقضايا من أهمها :

١- أن بني الإنسان يحتاجون للطعام والأنجال والحماية .

٢- الدوافع الإنسانية فسيولوجية الأساس والأصل وان كانت تأخذ بناءا جديدا مكتسبا عن طريق العادات .

٣- الإنسان لا يعيش حياته وحيدا بل ينتظم ضمن أسر وعشائر وقبائل ومجتمعات تكون الزعامة والسلطة فيها منظمة ثقافيا .

٤- أن الإشباع الثقافي للحاجات البيولوجية الأولية ليس حقا مجردا بغير واجب .

أن البنائية الوظيفية ليست نظرية خاصة داخل المجتمع أو علم الاجتماع ، ولكنها ببساطة توجيه نظري خاص كاتجاه معارض ضد الأحكام الذاتية ، لبعض العلماء الاجتماعيين ، والأنثروبولوجيا ، كما أننا نجدها تمثل مدخلا وتحولا خاصا عن الاهتمام الوصفي بالظواهر الثقافية والاجتماعية .

كما نجد أن المدخل البنائي الوظيفي صعب في التطبيق ، ولكن العالم الاجتماعي ديفيز Davis Kingsley ، يرى أن بإمكان علماء الاجتماع تبني هذا المدخل ، وكذلك إسقاط بعض المصطلحات المتعلقة به .

وفي النظرية الوظيفية البنائية نجد أن المجموعات الإنسانية عبارة عن أنساق مكتفية بذاتها وتحافظ على وجودها من منطلق الحاجة .

وهذه الحاجات تشبع من خلال تداخل البناءات النظامية داخل المجتمع ، من خلال الأسرة ، وفي شتى المجالات ، وهذه النظريات -- خاصة نظريات مالينوفسكي Malinowski وراد كليف Radcliffe وبندكت Benedict وبارسونز Parsons . ترى أن حاجات النسق الاجتماعي الوظيفي تنبثق من ظروف الوجود الاجتماعي الإنساني .

وفي تعريف أكثر للوظيفة نجد أيضا :

ظهرت في دراسات وأعمال كبار الأدباء المؤسسين لعلم الاجتماع ، مثال ، لهم : دوركايم ، وكولي ، وتوماس ، وباريتو ، ونجد أنها اكتسبت وضعية أفضل في الربع الأول من القرن العشرين ، وتميزت في علـم الاجتمـاع وذلك بتأثير الأنثروبولوجيا الثقافية .

وقد تقدمت تقدما مضطردا خلال السنوات الماضيـة ، واحتلت وضـع المنـافس للوضعية المحددة . وذلك في السيطرة علـى علـم الاجتمـاع الحديث .

ومما لا شـك فيه أن الوظيفيـة تشبه إلى حد مـا علـم الاجتمـاع النظري : Systematic Sociology في بعض الجوانـب وخاصـة فـي الجانب الحديث منها .

وفي عمق تعريفي أكثر إيضاحا "للوظيفة" Functionalism فـي علمـي الاجتماع والأنثربولوجيا الثقافية ، نجد أنهما يحملان في طياتهما معان ذات أبعاد مختلفة ، ومتباعدة ، إذ يمكن استخدام المصطلح "وظيفة" في معنـى رياضي ، كما فعل سوروكين .

كما استخدمه الكثير من علماء الاجتماع ، وقد نستخدمها نحن بمعنى فيـه كثير من الاختلاف عن سابقاته ، وذلك كأن نقول إن وظيفة الحكومة هـي ضمان سلامة النظام فلي المجتمع .

إذا فالاستخدامات الوظيفية كثيرة ومتعددة ودائما ما تكون الإشارة واضحـة في شتى ضروب الحياة ، إسهاما لخدمة المجتمع من أجـل البقـاء لكـل عناصره .

لذلك استخـدم المفهوم في صيـاغة التحليـل - البنائي - الوظيفـي Structural - Functional . وأكثر استخدام هـذه الصيغـة نجـده عنـد "بارسونز" وتلاميذه ، وربما تعرضنا للخلط واللبس من جراء استخدام هـذا الصياغ .

وأخيرا نخلص إلى أن المعاني الأربعة التي تعرضنا لها من خـلال هـذه المفاهيم التعريفية "للوظيفية" نجد أنها تحقيق للغرض الذي مؤداه أن كـل الظواهر الاجتماعية تمثل نسقا حقيقيا فيه تؤدي كـل الأجـزاء وظـائف أساسية لتأكيد الكل وتثبيته ، وأحيانا اتساع نطاقه وتقويته .

٢-نمو الاتجاه الوظيفي :

تؤكد الدراسات الاجتماعية التي خضع لها علم الاجتماع أن الاتجاه الوظيفي قد ظهر في البيولوجيا وعلم النفس والأنثربولوجيا الثقافية .

وإذا تعمقنا في النظرة البيولوجية كعلم ، نجد أنها تدور في إطار الفكرة التي تقودنا إلى أن كل عضو أو جزء من نسق يطلق عليه كائن عضوي ، وحتما أن هذا وظيفة أو وظائف ، أساسية ، يؤديها على أتم وجه لبقاء هذا الكائن العضوي .

وهذا يثبت حقيقة تساند وتعاضد الأعضاء ، وفي الحديث الشريف لنا سند عن الرسول الكريم "صلى الله عليه وسلم "{إنما المؤمنون كالجسد الواحد ، إذا أشتكى منه عضوا تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى} .

وفي توجهنا نحو الاتجاه الوظيفي من خلال نظرية منظومة نجد أن ما تعرضنا له من دراسة مسبقة يعتبر عينة مصغرة ، وإن كانت ممثلة للاتجاه الوظيفي الذي شاع استخدامه الآن في علم الاجتماع .

ومن الذين أثروا هذا المجال بالمحاولات الجادة ، العالم الانثربولوجي الاجتماعي مالينوفسكي Malinowiski (١٨٨٤ - ١٩٤٢م) ، والذي ذهب في مؤلفه "النظرية العلمية للثقافة "(١٩٤٤م) Scientific Theory of Culture إلى أن الأنثربولوجيا الثقافية هي علم اجتماعي تعميمي .

ونجد أن مالينوفسكي قد قدم تعريفا مبدئيا للوظيفة ، وأمن على إمكانية الاستعانة بالاتجاه الوظيفي في البحث . ونجده قد رفض فكرة الربط بين الأشياء والأشياء الأخرى .

وقد ربط رفضه بالدفاع عن فكرة عزل النظم عن بعضها ، حيث قال : "إن المنعزل الثقافي هو نظام" .

وهنا نلاحظ أن مالينوفسكي Malinowiski يستخدم مصطلح النظام للإشارة إلى الجماعة الاجتماعية والمناهج التي تتبع لتحقيق فكرة عزل النظم .

ولقد قدم مالينوفسكي Malinowiski بديهيتين تكمنان وراء أية نظرية علمية ثقافية .

ويرى في الأولى أن كل ثقافة يجب أن تشبع الحاجــات البيولوجيــة للإنسان مثل : التغذيــة ، والتناسل ، والحماية من قســوة الظــروف المناخية ، ومن الحيوانات المفترسة .

وفي ثاني بديهياته ، يرى أن الإنجاز الثقافي ما هو إلا تدعيــم آلــي وتلقائي للفسيولوجيا البشرية ، ذلك لأن هذا الاتجــاه يرتبــط بشــكل مباشر أو غير مباشر بإشباع الحاجات البيولوجية .

ويرى مالينوفسكي أنه بالإمكان الربــط - بشــكل وظيفــي - بيــن الاستجــابات الثقافية المختلفــة مثــل : الاســتجابات الاقتصاديــة ، والقانونية ، والتعليمية ، والعلميــة ، والسمرية والدينية . من ناحيــة والحاجات البيولوجيه من ناحية أخرى .

فالتفسير الوظيفي للفن والترويج أو المراسيم العامة ، يمكن أن يرتبــط بشكل مباشر بردود جسم الكائن العضوية للإيقاع أو الصوت أو اللون أو الخط وارتباطاتها .

وفي شاكلة الانفرادية عن ممثلي الاتجاه الوظيفي في الأنثربولوجيــة الثقافية - نجد مالينوفسكي وارد كليف بــراون ، يــرى أن النظريــة الوظيفيــة التي قدمها مالينوفســكي تمثــل إحيــاء جزئيــا للحتميــة البيولوجية .

وفي محاولة لبعض الوظيفيين المحدثين لتطوير نظرية معيشة تعينــهم في دراسة البناء الاجتماعي ، والتنوع الثقافي نجــد أن لــهم بعــض النظريات الاستنتاجية التي تلخصت في الآتي :

١- وجود الجماعات وإمكانية نمو نسقها الاجتماعي واتساع نطاقــها أمر مؤكد ولابد منه .

٢- وضوح الرؤية في إمكانية وجود الجماعات .

٣- تحديد التطورات المختلفة التي تطرأ على ثقافتها .

٤- الكشف عن المتطلبات الوظيفية Functional Requisites ، التي تتعين عليها الدراسات الامبيريقية لنسق معين .

كما أن هنالك قضايا محورية داعمة يمكن الاستعانة بــها كموجــهات عامة وهي :

(أولا) : يمكن إشباع الحاجات الوظيفية بشتى الطرق ، وذلك بالوقوف على التنوع الثقافي والاجتماعي .

(ثانيا) : محدودية عدد الاختيارات لخضوعه لطبيعة الخصائص البيولوجية للإنسان ، وكذا خضوعه للحاجات الاجتماعية والسيكولوجية .

(ثالثا) : محدودية مدى "الاختيارات" في المجتمع المعين ، عن طريق تبادل العلاقات .

وإذا تأملنا المثال الواقعي التالي :

لتأملنا بصحة ما تناوله مالينوفسكي ، وكذلك الذين حاولوا التطوير والتحديث في الاتجاه الوظيفي ، (النمو الصناعي الحديث في المجتمعات الزراعية التقليدية أثر على طبيعة التطور السياسي وغيره من ضروب التطور في الميادين الأخرى) .

ثمة سؤال يطرح نفسه ويطرحه كثيرون ممن لهم اهتمامات بالعلوم الاجتماعية وهو :

ما هي الإجراءات والتدابير التي تستخدم عند دراسة الفروض الوظيفية واختيارها ؟

وهنا يبدو لنا أن التجربة العقلية Mental Experiment ، هي إحدى هذه الإجراءات والتدابير .

فنحن نستطيع في بعض الأحيان أن نقدر بشكل عام ماذا سيحدث في مجتمع ما ، إذا ما أدى بناء جزئي وظيفته أو اضطراب في تأديتها . ويمكننا بعد ذلك أن نعزل – كما يقول فيبر – نظاما اقتصاديا معينا أو نمطا ثقافية معينا ، وبذلك نستطيع تقدير الآثار المحتمل حدوثها على هذا المجتمع .

"وأخيرا نجد" ميرتون "يحذر من الاهتمام الشديد بدراسة "الجوانب الاستاتيكية في البناء الاجتماعي ، وهو اهتمام أولاه بعض من ممثلي المدرسة الوظيفية .

وفي هذا الصدد يستخدم ميرتون" مفهوم المعوقات الوظيفيـة -Dysfun
Ctigns ، يشير إلى تلك النتائج التي يمكن ملاحظتها ، والتي تحد مـن تكيف النسق أو توافقه" .

"والتفرقة العنصرية يمكن أن تكون معوقا وظيفيا في مجتمـع يرفـع شعار الحرية والمساواة على سبيل المثال" . وفي توضيح لأهمية هـذا القول :

يواصل ، (ميرتون) "أن مفهوم المعوقات الوظيفية بما يتضمنـه مـن ضغط وتوتر على المسـتوى البنائي ، يمثل أداة تحليلية هامة لفـهم ودراسة الديناميات والتغير .

وحتى لحظة تناولنا لهذه الدراسة لا تزال الآراء حول الاتجاه الوظيفي مختلفة ، وسيظل الاجتهاد في إيجاد البدائل المتطورة قائمـا ، وبيـن يدينا مقال نقدي رائع تناول فيه الفن جولدنر Gouldner ، أن بالإمكان التبصير والتفهم في الاتجاه الوظيفي بصورة أفضل لطبيعـة العلاقـة السببية ، لأنها تجيب عن "ماذا"؟

والاتجاه الوظيفي يجيب عن "ما الداعي"؟ .

الإنطلاقة السريعة التي حققتها النظرية الوظيفية في شتى الجوانـب ، بحثا واتجاها ومع هذا فإن الكثير منها لا زال محل دراسة وتسـاؤل وجدل .

وفي ملاحظة دقيقة ، نجد أن الاتجاه الوظيفي لم يقـدم لنـا مناقشـة واضحة لمشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع .

أما التسـاؤلات المتعلقـة بمحـددات البنـاء الاجتمـاعي والتغـير الاجتماعي ، فقد أجيب عليها في ضـوء مجموعـة مـن العوامـل والأسباب المتعددة ، فأغلب الوظيفيين يذهبون إلى أن هناك عوامـل متعددة ترتبط فيما بينها إرتباطا وظيفيا بشكل يسهم في تشكل المجتمع وفي تغيره .

ويبدو لنا أن الاتجاه الوظيفي لا يزال قادرا على تقديم المزيد ، خاصة إذا علمنا أن الوضعية المحدثة قد أخضعت علم الاجتماع إلى القياس .

أما الوظيفية فتفسر من مثل هذا القياس (أو أي أدوات بحث أخرى) .

ونحـــن نعتقد بعد ذلك كله ، أن المعنى للوظيفية يجب أن يتسع أكــثر مما هو عليه الآن . فعالم الاجتماع الوظيفي سيظل واقفا علـــى أرض آمنة ، طالما أنه قيد نفسه بالإجابة على التساؤلات التي تـــدور فقـط حول الإسهامات التي تؤديها الأجزاء المختلفة من أجل تدعيــم الكــل وتأكيده (أو العكس) ، وطالما أيضا أنه ظل مهتما فقط بدراسة طبيعـة ومدى تكامل عناصره الاجتماعي .

٣- البناء الاجتماعي (تعريفه - خصائصه)

تعريف البناء الاجتماعي

البناء الاجتماعي Social Structure ، هو مجموعة ثابتة نســبيا مــن العلاقات النموذجية بين الوحدات .

ولما كانت وحدة النسق الاجتماعي هي الفرد في قيامه بحدث معيــن ، أصبح البناء الاجتماعي عبارة عن نسق من نمـــاذج العلاقـــات بيـــن الأفراد . ويتميز بناء النسق لأي حدث اجتماعي بأن الفرد في معظــم علاقاته لا يشترك فيها ككيان مستقل ، وإنما على أساس أنـــه جـزء مختلف عن الحدث ككل .

ومن المؤكـد أن البناء الاجتماعي تعددت تعريفاته ويمكننا أن نصوغ التعريف التالي ، إذ نطلق عليه بأنه نسق من العلاقــــات النموذجيـــة للأفراد ، وهو يقومون بأدوار ، يتصل بعضها بالبعض الآخر .

ومن خلال التعريفات السابقة للبناء الاجتماعي فإننــــا نخلــص إلـــى تعريف أكثر شمولا إذ يمكننا القول : "إن البناء الاجتماعي عبارة عـن ترتيب للأشخاص في علاقات تخضع لنظم معينة ، ويمكن أن نمثــــل لذلك بالبناء الاجتماعي للجيش مثلا .

حيث أننا نجد أن الأشخاص هم وحداته ، وأن بناءه الاجتماعي عبارة عن ترتيب لهذه الوحدات في مجموعات يطلق عليها أسماء مختلفة :

كاللـــواء ، والفصيـــلة ، والكتيبة ، ثم يتم ترتيبهم فــــي مجموعـــات أخرى : كالمشـــاه ، والمدفعية ، والطيران ، ثم يتم ترتيب الأشخاص في ، رتب عسكرية :

(كعميد ، وملازم ، وعريف) ، وإلى غير ذلك من الرتب العسكرية ، وعلى ذلك فالبناء الاجتماعي يرتبط بترتيب الأشخاص ، بينما يرتبط التنظير الاجتماعي بترتيب النشاط .

وفي تحليلنا بالجيش نجد أن لكل شخص فيه مهمة معينة هي في الواقع جزء من النشاط الكلي للجيش ، سواء أكان ذلك في وقت السلم أم في وقت الحرب .

أما النظام فيبدو في النسق المعقد للقواعد ، ونماذج التصرف التي يتوقع من كل فرد في المجموعة أن يتصرف بمقتضاها .

وكنتائج نهائي فإن الشخص هو وحدة البناء الاجتماعي ، ويهتم البناء بترتيب الأشخاص ، والتنظيم بترتيب أوجه النشاط ، والنظام بالتصرفات المتوقعة أو العلاقات في داخل البناء والاصطلاحات الأربعة :

١) الشخص	٢) البناء .

٣) التنظيم	٤) النظام .

وهي ، لا تخرج عن كونها اصطلاحات مختلفة لحقيقة واحدة وليست أسماء لحقائق مختلفة .

خصائص البناء الاجتماعي

حتى لا يستعصي علينا الوقوف على خصائص البناء الاجتماعي ، فلابد أن نلتقي بعالمين ركزا جل اهتمامهما على دراسة البناء الاجتماعي ، وهما : تالكوت بارسونز Talcott Parsons وراد كليف براون ، حيث خرج الأول بنظرية أطلق عليها نظرية البناء الوظيفي للأنساق الاجتماعية :

Structural Functional Theory of Social System

وأبرز هذه الخصائص على النحو التالي :

١- يتميز البناء الاجتماعي بأنه يقوم بوظيفته كوحدة في النسق الحضاري ككل ، ذلك لأن النظام لا يخرج عن كونه تنظيما لنماذج التفكير والتصرف التي تظهر خلال النشاط الاجتماعي وما يتصل به من النتاج مادي .

وهو بالتالي عبارة عن تجميع القواعد الاجتماعية السائدة في المجتمع والتي تتكون من العادات والتقاليد والقيم والصفات الأخلاقية المنظمة بوعي أو بدون وعي كوحدة وظيفية .

٢- يتميز النظام الاجتماعي بدرجة نسبية من الاستمرار والدوام ، فأنساق العقائد وطرق العمل وغيرها لا تصبح نظما إلا بعد أن تصل إلى مرحلة القبول بصفة عامة خلال فترة مناسبة من الزمن .

ولكن على الرغم من أن أي نظام اجتماعي معرض للزوال إلا أنه يميل إلى الثبات .

٣- يتميز أي نظام اجتماعي بأن له هدف أو عدد من الأهداف الواضحة ، إلا أن هذا الهدف كثيرا ما يتعارض بمرور الزمن مع الوظيفة التي يؤديها النظام .

وأصدق مثال نصوغه للتحقق من صحة ما سبق هو نظام الرق حيث كان الهدف من تطبيق هذا النظام هو الحصول على الأيدي العاملة الرخيصة .

ولكن هذا النظام ما عاد يصلح وتغير الهدف ، عندما أصبح مكلفا من نواحي عدة .

وقد شاركت في هذه الخاصية المذهب الاقتصادي الفردي المعروف بالمذهب الحر ، وشعاره المعروف : أترك الطبيعة تعمل وأترك الأمور تسير Laissez Faire, Laissez Passer .

٤- تعتبر هذه الخاصية الاجتماعية من عوامل التوافق بين أجزاء النظام الاجتماعي الكلي وهي تتميز بذلك بأنها غير مستقلة عن بعضها ، وإنما على العكس من ذلك فهي ترتبط ببعضها في نسق حضاري موحد .

الاتجاه الوظيفي البنائي المعاصر

١) تالكوت بارسونز

٢) فرديناند تونيز

٣) فلوريان زنانيكي

٤) روبرت ماكيفر

٥) الاتجاهات النظرية وعلاقتها بالاتجاه الوظيفي

أ- الاتجاه الأيكولوجي

ب- الاتجاه الديوجرافي

ج- الاتجاه المادي

د- الاتجاه السيكولوجي

ه- الاتجاه التكنولوجي

و- الاتجاه الإحصائي

ز- اتجاه بحث الحالة

٦- ما يميز الاتجاه البنائي الوظيفي عن الاتجاهات النظرية

١-تالكوت بارسونز :
Talcott Parsons

كثيرون هم الذين أثروا ساحة النظريات العلمية الاجتماعية بـــالروائع ، وكثيرون ... كثيرون هم الذين وقعوا أسمائهم بأحرف من نور في هــذا المجال الاجتماعي الغني بالإبداع ، فأصابوا بعض النجاح .

ويعتبر "تالكوت بارسونز" Talcott Parsons ، من أولئك الذين شغلوا هــذه الساحة فأثراها بالنظريات الداعمة والمساهمة لخدمة العلــم والمعرفــة مضيفا أعمالا ذات قيمة بنائية وظيفية معاصرة .

كان ميلاده في الولايات المتحدة الأمريكية ، وتخرج في كلية أمهرست ، حيث كانت البيولوجيا محور اهتمامه الأساسي ، إلا أنه قد تأثر إلى حــد بعيد بالعلماء والمفكرين الأوروبيين .

فدرس في مدرسة الاقتصاد العليا بجامعة لندن ، على يد عالمي الاجتماع هويهاوس وموريس جينزبرج والأنثربولوجي مالينوفسكي ، الذي أثــار فيه الاهتمام بالاتجاه الوظيفي . ثم اتجه بعد ذلك ، في أثنـــاء دراســته بجامعة هيدلبرج للعلماء الألمان .

وفي خلال لقائه بالعلماء الاجتماعيين الألمان . أعــد رســالة دكتــوراه بعنوان : "مفهوم الرأسمالية في نظريات ماكس فيبر فيرنر وزمبارت :

The Concept of Capitalism Weber, Werur and Sombart, in the Theories of Max.'

وقد استطاع بعد ذلك بسنوات قليلة أن يترجم إلى اللغة الإنجليزية كتــاب فيبر "الأخلاق البروتستانتية" والروح الرأسمالية ، ثم عمــل "بارســونز" طوال عامي ١٩٢٦ - ١٩٢٧م ، مدرسا للإقتصاد بكلية أمهرست . ثــم شغل في العام التالي نفس الوظيفة بجامعة هارفارد . وأصبح فيما بعــد عضوا في هيئة التدريس بقسم الاجتماع الذي أنشئ في ذلك الوقت حديثا تحت رئاسة سوروكين .

وقد أصبح "بارسونز" أستاذ لعلم الاجتمـــاع رئيســا لفــرع العلاقــات الاجتماعية بجامعة هرافارد عام ١٩٤٦م ، وهو المنصب الــذي ظــل يشغله لبضع سنوات .

وقد اتصل بارسونز في هرافارد في مرحلة مبكرة من حياته بمجموعــة من أبرز علماء الاقتصاد ، واشتغل عن كثب بمؤلفات المفكر الاقتصادي النظري الكلاسيكي الفريد مارشال .

كما درس مؤلفات "دوركايم" ، وكان مناوئا لفردية سبنسر ومدافعا عن علم المجتمع لتأثير عالم النفس ل . هندرسون ، وأعجب بكتابات عالم اجتماع أوروبي آخر شهير هو : فلفرويدو باريتو ، على أنه من بين هؤلاء العلماء ، نجد أنه كان لمؤلفات فيبر ، والاقتصاديين ، ودوركايم ، وباريتو ، تأثيرا خاصا في تشكيل أداء بارسونز النظرية .

ويبدو ذلك واضحا في أول مؤلفاته العامة "بناء الفعل الاجتماعي" وقد بدأ بارسونز في تلك الفترة يزداد اهتماما بنظرية التحليل النفسي تشهد بذلك كثير من مؤلفاته التي ظهرت فيما بعد .

وقد ظل بارسونز يؤكد سنوات طويلة ، وباستمرار ضرورة وضع نظرية منهجية عامة للسلوك البشري . وهو يعتبر وضع نظرية مجردة دليلا أساسيا على نضوج علم من العلوم ، وذلك أن مثل هذه النظرية تيسر الوصف ، والتحليل والبحث الامبيريقي .

ويؤكد بارسونز أن هذه الأهداف تتطلب إطارا مرجعيا عاما (مثل المكان الثلاثي الأبعاد ، والقوة الميكانيكية) . وتستدعي منا فهم بناء النسق النظري في حد ذاته . وهو يرى أن نظرية علم الاجتماع (النظرية السوسيولوجية) ، يجب أن تكون وظيفية – بنائية .

وقد قامت المساهمات المبكرة التي قدمها بارسونز على الاعتقاد بأن العقل الاجتماعي هو الموضوع الحقيقي لعلم الاجتماع . وهو رأي يعكس لنا التأثير القوى لماكس فيبر عليه . وربما كذلك ، ولكن لحد ما تأثير توماس أيضا .

ويقدم لنا بارسونز في كتابه "بناء العقل الاجتماعي" نظرية بالغة التعقيد في العقل الاجتماعي ، يذهب فيها إلى أن هذا العقل الاجتماعي سلوك إرادي .

كانت الصورة الحديثة من النظرية قد صيغت في مجموعة من المقالات العلمية التي جمعت فيما بعد من كتاب "مقالات في النظرية السوسيولوجية ، البحتة والتطبيقية ، ثم تعرضت فيما بعد لمزيد من التعديلات في كتابه " النسق الاجتماعي " .

وينطوي الإطار المرجعي "للفعل" في رأي بارسونز على : فاعل ، وموقف وتوجيه الفاعل إزاء الموقف .

ومحور نظريته هو توجيه الفاعل (وهو شبيه بتعريف توماس للموقف) ، "ويمكننا التمييز بين عنصرين توجيهيين همـــا : التوجيـــهات الدافعيـــة والتوجيهات القيمية ، وتتصف التوجيهات الدافعية – التي تمدنا بالطاقـــة التي ستبذل في الفعل – بجوانب ثلاثة هي :

١ – إدراكيـــــة :

تقابل ما يدركه الفاعل في موقف معين ، بالنظر إلى نسق اســتعداد الحـــاجات عنده والذي ربما يداخل فـــي تفكـــير بارســـونز مـــع الاتجاهات .

٢ – انفعالية :

وتتضمن العملية التي عن طريقها يخلع الفاعل أهمية عاطفيـــة أو انفعالية على شيء معين .

٣ – تقويميــــة :

وعن طريقها يوزع الفاعل طاقاته على الإهتمامات المختلفة التي يجـــب عليه أن يختار من بينها . أما التوجيهات القيمية فتشير إلى مراعاة بعض المعايير أو المستويات الاجتماعية ، على خلافات الاحتياجات التي تمثـل بؤرة التوجيهات الداخلية .

وهناك أيضا ثلاثة طرق للتوجيهات القيمية :

إدراكية – وتقديرية (إعجابية) – وأخلاقية

ويمثل هذا المخطط خلفية تشييد ثلاثة أنساق تحليلية ، هي :

- النسق الاجتماعي .
- نسق الشخصية .
- النسق الثقافي .

ويؤكد بارسونز أنه على الرغم من أن هذه الأنساق الثلاثة تمثل تجريـــدا من السلوك الاجتماعي الملموس ، إلا أن الشـــواهد الامبيريقيـــة علـــى الأنواع الثلاثة من التجريد ليست على نفس المستوى .

ويختلف المعنى الذي يضيفه بارسونز على النسق الاجتماعي من موضع إلى آخر في تحليله – فيعرف النسق الاجتماعي في البداية بأنه مجموعـة من الفاعلين الأفراد يتفاعلون مع بعضهم البعض ، ثم يعرفه في مكـــان

آخر بأنه تشكيلة من العلاقات القائمة بين الفاعلين إذ شكله من العلاقات التفاعلية .

ويثير هذا التباين في التعريفات مشكلة هامة خاصة بالمفهوم مؤداها : هل "نقط المادية " للنسق الاجتماعي هي الفاعلون أنفسهم أم العلاقات الاجتماعية ؟

ويعرف بارسونز النسق الاجتماعي بأنه مجموعة من الأفراد المدفوعين يميل إلى الإشباع الأمثل لاحتياجاتهم . أما العلاقات السائدة بين أفراد هذه المجموعة فتتحدد طبقا لنسق من الأنماط المركبة والمشتركة ثقافيا .

وتحتاج هذه القضية شأنها شأن كثير من القضايا التي تتضمنها مؤلفات بارسونز إلى تفسير مفصل مرتكز على الإشارة المستمرة للتحليل السابق للفعل الاجتماعي .

فالأفراد "مدفوعون" إلى الإشباع الأمثل ، لاحتياجاتهم التي تسيطر على التوجيه الدافعي ، كما أشرنا من قبل . وعلاوة على هذا يعرف بارسونز علاقة الأفراد بمواقفهم الاجتماعية في ضوء الأنماط الثقافية الخاصة .

وربما يشير مصطلح "علاقة" إلى ما يطلق عليه "توجيه" في سياق آخر ، حيث يشير ذلك الجزء من أفكار بارسونز إلى المكونات الرئيسية الأخرى من توجيه الفاعل إزاء الموقف ، وهو التوجيه القيمي .

وهنا لا يظهر مصطلح "القيمة" صراحة في أثناء التحليل ، وإنما يمكن افتراض أن الأنماط تنطوي على قيم ، وتتميز هذه الأنماط بتركيب ومشاركة ثقافية .

ويمكن أن يكون هذا الجانب من النسق الاجتماعي بمثابة قنطرة بين الأنساق الاجتماعية والثقافية ، فالنسق الاجتماعي ينطوي على شيء ينتمي إلى الثقافة .

على أن النسق الاجتماعي الذي حددناه في الفقرة السابقة يختلف عن النسق الاجتماعي كمجموعة من الأفراد المتفاعلين ، فكثير من مجموعات الأفراد المتفاعلين لا تتصف بالسمات التي وضعناها في التعريف الأسبق الأكثر شمولا .

وربما يمكن الزعم بأن بارسونز لم يحدد بعد بشكل قاطع عناصر النسق الاجتماعي ، وهو تقصير حال دون تحديد بؤرة الدراسة السوسيولوجية بدقة .

أو من الممكن على أساس تعريف بارسونز المبسط للنسق الاجتماعي اعتبار كل حالة من حالات التفاعل الإنساني نسقا اجتماعيا .

لذلك كثيرا ما نجده يشير إلى "الأنساق الاجتماعية المستقرة "فنظريته عن النسق الاجتماعي بشكل مطلق هي في الواقع نظرية في النسق الاجتماعي المستقر .

على أن هذا النقد الذي أبداه بعض المعلقين على بارسونز لا ينتقص من جهده الشامل ، وربما الواعي للتميز نظريا بين الأنساق الاجتماعية ، الثقافية ، والشخصية ، والجمع بينها في مخطط نظري واحد .

وينظر بارسونز إلى الثقافة "لنتاج من ناحية وكعامل محدد من ناحية أخرى لأنساق التفاعل الاجتماعي الإنساني" ، وهو يؤكد إتفاقا مع التأكيد الانثروبولوجي التقليدي ، أن الثقافة تتناقل وتعلم ، وتصبح مشتركة بين الناس .

ويميز بارسونز طبقا لأساليب التوجيه الدافعي الثلاثة (المعرفة من قبل) بين ثلاثة أنواع رئيسية من الأنماط الحضارية هي :

١- أنساق الأفكار أو المعتقدات ، ويتميز بأفضلية الميول الإدراكية .

٢- أنساق الأفكار والرموز التعبيرية كالأشكال الفنية ، وتتميز بأفضلية الميول العاطفية (الميل إلى الأشياء أو رفضها) .

٣- أنساق التوجيهات القيمية أو (الأنماط التعاملية) ، وتتجه الأنماط الثقافية إلى الانتظام في أنساق على أساس الأنساق المنطقي لأنساق المعتقدات أو الإنسجام الأسلوبي للأشكال الفنية ، والملامة الفعلية لكيان القواعد الأخلاقية .

ولم يقم بارسونز بتحليل الأنساق الثقافية ، إذ يبدو أنه اعتبر ذلك مهمة تدخل في اختصاص الأنثربولوجيا الثقافية . ويقتصر اهتمامه بالأنساق الثقافية أساسا على مدى تأثيرها في الأنساق الاجتماعية والشخصية . ويقتصر اهتمامه بالأنساق الثقافية أساسا على مدى تأثيرها في الأنساق الاجتماعية والشخصية .

والموضوع الأساسي الذي تدور حوله النظرية السوسيولوجية عند بارسونز ، كما تتبدى من مؤلفاته المبكرة هو "أداء الأبنية لوظيفتها" ، ويتطلب التحليل البنائي الوظيفي معالجة منهجية إمكانات وأدوار الفاعلين الذين يضمهم موقف اجتماعي معين .

وكذلك للأنماط التنظيمية التي ينطوي عليها هذا الموقف ، ويشير مفهوم المكانة إلى مكان (موقع) الفاعل في نسق علاقة اجتماعية معينة منظوراً إليه كبناء .

أما الدور الذي لا ينفصل في أي حالة ملموسة من المكانة ويمثل الجانب الدينامي لهذه المكانة (ومن هنا جاء مفهوم الدور – المكانة) .

فيشير إلى سلوك الفاعل في علاقته مع آخرين ، إذا ما نظرنا إلى هذا السلوك في سياق أهميته الوظيفية للنسق الاجتماعي .

وتفهم الأنماط التنظيمية على أنها التوقعات المنظمة أو "ذات البناء المعين" ، ومجموعة أنماط الأدوار المعتمدة على بعضها هي التي تكون النظام .

وفي سياق آخر يعرف بارسونز النظم بأنها مجموعة مركبة من الأنماط التنظيمية "الملائمة" للتحليل كوحدة بنائية في النسق الاجتماعي . ومن شأن هذه الصياغة أن تنقل مفهوم النظام من مستوى الرمز الذي يمثله الواقع الاجتماعي إلى مستوى دراسة يبدو أن هذه النظرة الاسمية الواضحة قد خضعت للتعديل في مؤلفات بارسونز الأحدث من ذلك .

ذلك انه وصف "النظام" في تلك المؤلفات بأنه ذو أهمية استراتيجية في أي نسق اجتماعي موضوع للدراسة . وربما تعني هذه العبارة أن أداء النظم لوظيفتها بقدر من الكفاءة ، يمثل شرطا أوليا لهذا الاستقرار الذي يميز البناء أو النسق الاجتماعي المستقر عن النسق الاجتماعي بصفة عامة .

ويرى بارسونز أن النظم هي النقطة البؤرية في علم الاجتماع . فيعرف علم الاجتماع أو النظرية الاجتماعية (تمييزا له عن الانثروبولوجيا التي يعتبرها نظرية الثقافة) بأنها ذلك الجانب من نظرية الأنساق الاجتماعية الذي يختص بتكوين النظام .

ويؤكد بارسونز أن تكون النظام يجب أن يعتبر الميكانيزم الأساسي في خلق التكامل في خلق التكامل في الأنساق الاجتماعية ، ذلك أن تكون

النظام ينطوي على كل من تكون بناء أو نمط لتوجيهات القيم في السفك الاجتماعي ، "واستدماج" الأنساق القيمية في الشخصية الإنسانية .

فتكون النظام إذن : هو العملية التي تختلق التكامل والاستقرار حقيقة . فهو يخلق همزة وصل وطيدة بين المجتمع والثقافة من ناحية ، والشخصية والدوافع من ناحية أخرى .

وإذا عبرنا عن ذلك بمصطلحات الشخصية ، قلنا إن هذا يعني أن هناك عنصرا من تنظيم الأنا الأعلى المرتبط بكل نمط من أنماط توجيه الدور غير الفرد موضوع الدراسة .

ويعني استدماج عنصر الأنا الأعلى في كل حالة الدافع إلى قبول أسبقية المصالح الجمعية في شرح كهذه القضية وفي المناسبات الملائمة .

وقد استحوذ أحد فروع النظرية التي عرضناها من قبل على القدر الأكبر من اهتمام زملاء بارسونز من علماء الاجتماع ، ذلك ما يسميه "متغيرات النمط" فهو يعتقد أن اكتشافه لهذه المتغيرات يمثل لب الإسهام النظري الذي قدمه لعلم الاجتماع .

وتدل متغيرات النمط على البدائل التي تبدو في المعايير أو أنماط توقعات الدور ، وفي اختيارات الفرد .

ويقدم لنا بارسونز في كتابه (النسق الاجتماعي) خمسة أزواج من هذه البدائل يعتبرها شاملة ، على أساس مستوى معين من التصميم .

ولكنه يشير في مقال ظهر بعد ذلك ، إلى إمكان إقامة زوج سادس . ولكنه لم يواصل هذا النمط في المؤلفات اللاحقة على ذلك ، وقد حدد المتغيرات النمطية الخمسة على النحو التالي :

١ – الوجدانية في مقابل الحياد الوجداني :

فيعتبر النمط وجدانيا ، إذا كان يتيح الإشباع المباشر لحاجة الفاعل ، بينما يعتبر محايدا من الناحية الوجدانية إذا كان يفرض النظام ويتطلب التخلي من أجل مصالح الآخرين .

٢- المصلحة الذاتية في مقابل المصلحة الجمعية :

فقد تعتبر المعايير الاجتماعية أن من المشروع سعي الفاعل وراء مصالحه الخاصة ، أو تجبره على العمل من أجل مصالح الجماعة .

٣- العمومية في مقابل الخصوصية :

ويشير المتغير الأول إلى مستويات القيمة التي على درجة كبيرة من العمومية بينما يشير الثاني إلى المستويات التي لها دلالة لفاعل معين في علاقات معينة مع أشخاص معينين .

٤- الأداء في مقابل النوعية :

(وكان يسميه في الأصل الاغاز في مقابل الفرد "النسية" : فإما أن يكون التأكيد على تحقيق أهداف معينة "الأداء" ، أو على خصائص الشخص الآخر ، أي على الحقيقة التي مؤداها أنه كذا وكذا ، كأن يكون أي الفاعل طبيبا مثلا ، وهكذا .

٥- التخصص في مقابل الانتشار :

فيمكن أن يعرف مصلحة ما على وجه التخصيص ، بحيث لا يكون هناك ثمة إلزام أبعد من تلك الحدود المرسومة ، أو تعرف بشكل عام بحيث تتجاوز الإلتزامات حدود التعريف الظاهر الذي يفترض وجوده .

وقد يقول البعض أنه لما كانت هذه البدائل مستقلة عن بعضها أساسا ، فإنه من الممكن إيجاد اثنين وثلاثين رابطة بين "أنماط توقع الدور" ، وقدر درس بارسونز نفسه في كتاب "النسق الاجتماعي" ست عشرة رابطة من هذا النوع ، حيث وضع البديل الثاني في مركز متوسط بسبب أهميته الخاصة في التكامل .

بينما عمد في مؤلفه "أوراق عمل" إلى تطبيق نفس البديل فقط على العلاقات الموجودة بين الأنساق لا بين المكونات الداخلية للأنساق ، ثم زاوج بين البدائل الأخرى بهذه الطريقة بحيث لم ينسق سوى أربعة ارتباطات هي :

* الخصوصية * والعمومية
* والوجدانية * والأداء
* والإنتشار * والتخصيص
* والحياد الوجداني * بالإضافة إلى النوعية .

وقد استخدم هذا المخطط المعدل لمتغيرات النمط في كتابة "الأسرة والتنشئة الاجتماعية وعملية التفاعل" وهو المؤلف الذي يركز على عملية التنشئة الاجتماعية للطفل داخل الأسرة .

وفيه يعرض علينا نظرية في "الإنقسام السطري" المتتابع ، الذي تكون من خلاله شخصية كاملة . ويقال أن عملية النمو هذه تتميز ببعض المراحل الشاملة المقررة سلفا ، وهو قول يتفق مع النظرية الفرويدية .

والواقع أن من الصعب تحديد مكان نظرية بارسونز في عالم النظريات السوسيولوجية المعاصرة . فهو ليس وضعيا محدثا ، كما أنه ليس سلوكيا بالتأكيد .

أنه يؤكد النظرة الوظيفية التي ربما أمكن توضيحها على أفضل نحو بالرأي الذي يقول فيه ، أن الأبنية الاجتماعية الجزئية تقوم بعملها كميكانزيمات تؤدي إلى كفالة المتطلبات الوظيفية لاستمرار الأنساق الاجتماعية .

على أن بارسونز كثيرا ما يطابق بين هذا المعنى للوظيفة وبين الوظيفة باعتبارها الفعل الاجتماعي نفسه ، الذي يستدل منه الملاحظ على وجود بناء اجتماعي .

وتؤكد نظرية بارسونز كما رأينا الجانب المعياري للحياة الاجتماعية فهو ينظر إلى الفعل الاجتماعي كسلوك ينطوي على توجيه قيمي ، وتحدد نمطه المعايير الثقافية أو السنن الاجتماعية .

فالمجتمع بهذا المعنى "نظام أخلاقي" في جوهره ، بمعنى أنه مرتكز على معايير ذات جزاء أخلاقي . ومن حيث هذه النظرية المعيارية يمكن تتبع تفكير بارسونز حتى دور كايم وتوماس .

وقد قدم بارسونز تراثا كبيرا من الفكر النظري الذي حاز إلى اهتمـــام واسع ومركز في الدوائر السوسيولوجية .

وقد ظل بارسونز ينادي حتى وقت قريب ، بأن وضع نظرية عامة في التغير الاجتماعي ، لابد أن يؤجل حتى يكتمل التحليل البنائي للأنســاق الاجتماعية ، غير أن كتاباته الحالية تقول غير ذلك .

تلخيص إسهامات بارسونز السوسيولوجية :

يمكننا أن نحدد ملامح الإسهامات المختلفة لبارســـونز فـــي النظريـــة السوسيولوجية المعاصرة من خلال النقاط الآتية :

١ –بارسونز وضرورة وجود نظرية منهجية عامة للسلوك البشري :

حيث يعتبر أن وضع نظرية مجردة دليلا أساسيا على نضــــج أي علم من العلوم ، على اعتبار أن مثل هذه النظرية تيسر الوصـــف والتحليل والبحث الامبيريقي ، وهو يرى أن نظرية علم الاجتمــاع يجب أن تكون وظيفية بنائية كما يجب أن يكون لها إطارا مرجعيا عاما ، ثم أن ذلك كله يستدعي فهما خاصا لبناء النسق النظـــري في حد ذاته .

٢ –نظرية الفعل الاجتماعي عند بارسونز :

تمثلت إسهامات بارسونز الحقيقية في النظرية السوسيولوجية فـــي اعتقاده بأن الفعل الاجتماعي Social Action ، يجب أن يكون هـــو الاهتمام الأساسي لعلم الاجتماع .

وينطوي الإطار المرجعي للفعل في رأي بارسونز علـــى ثلاثـــة عناصر رئيسية هي :

أ) فاعل

ب) موقف

ج) توجيه الفاعل إزاء الموقف .

إذن فإن محور نظرية بارسونز هو «توجيه الفاعل» ، بينمـــا ينقسم التوجيه إلى نوعين رئيسيين :

أ) **توجيهات دافعة :**

وتمدنا هذه التوجيهات بالطاقة التي ستبذل في الفعل ، كما أنها تتسم بالسمات الآتية :

- إدراكية ، تقابل ما يدركه الفاعل موقف معين .
- إنفعالية ، وتتضمن العملية التي عن طريقها يخلع الفاعل أهمية عاطفية أو إنفعالية على شيء معين .
- تقويمية ، وعن طريقها يوزع الفاعل طاقته على الإهتمامات المختلفة التي يجب عليه أن يختار من بينها .

ب) **توجيهات قيمية :**

وهي تشير إلى مراعاة بعض المعايير أو المستويات الاجتماعية .

٣-الأنساق كمحور رئيسي عند بارسونز :

تعتبر الأنساق الاجتماعية أحد المحاور الأساسية في الدراسات التي قام بها بارسونز ، وللدرجة التي اعتبر البعض معها أن بارسونز قد تحول عن اعتبار فكرة ((الفعل الاجتماعي)) ، هي الإهتمام الأساسي لعلم الاجتماع ، إلى اعتبار أن الأنساق الاجتماعية هي وحدها التي يجب أن تنصب عليها دراسة علم الاجتماع .

٤-أداء الأبنية لوظائفها أساس نظرية بارسونز :

يرى تيماشيف أن الموضوع الأساسي الذي تدور حوله النظرية السوسيولوجية عند بارسونز هو ((أداء الأبنية لوظائفها)) ، ويتطلب التحليل البنائي الوظيفي معالجة منهجية لمكانات وأدوار الفاعلين الذين يضمهم موقف اجتماعي معين ، وكذلك للأنماط التنظيمية التي ينطوي عليها هذا الموقف .

ويشير مفهوم المكانة إلى الفاعل في نسق معين لعلاقة اجتماعية منظورا إليها كبناء .

أما الدور فإنه يمثل الجانب الدينامي للمكانة ويشير إلى سلوك الفاعل في علاقاته مع الآخرين .

أما عن الأنماط التنظيمية فتفهم على أنها التوقعات المنمطة التي تحدد السلوك المناسب ثقافية للأشخاص الذين يؤدون أدوارا اجتماعية مختلفة ، ومجموعة أنماط الأدوار المعتمدة على بعضها هي التي تكون النظام .

٥-بارسونز ومتغيرات النمط :

إن لب الإسهام النظري لبارسونز في النظرية السوسيولوجية – على حد تعبير تيماشيف – يتمثل في اكتشافه لمتغيرات النمط ، وتحديدها في خمس متغيرات نمطية على الوجه الآتي :

أ) الوجدانية في مقابل الحياد الوجداني :

يعتبر النمط وجدانيا إذا كان يتيح الإشباع المباشر لحاجة الفاعل ، أما إذا كان النمط يفرض نظاما أو يتطلب التخلي عن مصلحة الآخرين فهو نمط محايد .

ب) المصلحة الذاتية في مقابل المصلحة الجماعية :

فقد تتيح المعايير الاجتماعية للفاعل أن يسعى وراء تحقيق مصالحه الخاصة ، أو أن تجبره على أن يراعي مصالح الجماعة .

ج) العمومية في مقابل الخصوصية :

ويشير متغير ((العمومية)) إلى المستويات القيمية العامة ، بينما يدل متغير ((الخصوصية)) على ذلك المستوى القيمي الخاص لفاعل بالذات في علاقات معينة مع أشخاص محددين .

د) الأداء في مقابل النوعية :

ويعني المتغير الأول أن يكون التركيز على أداء فعل ما أو تحقيق هدف معين ، بينما يدل المتغير الثاني على التركيز على خصائص شخص آخر .

٥) التخصص في مقابل الإنتشار :

ويعني متغير التخصص أن تكون هنـاك حـدود مرسـومة لمجال الفعل أو هدفـه ((مصلحة أو منفعة)) بحيث لا يوجـد ما يلزم على تجاوزها .

أما متغير ((الإنتشار)) فيعنـي عـدم الإعـتراف بـالحدود المرسومة أو المخصصة للمصلحة أو المنفعة على اعتبـار أنها يجب أن تعم وأن تنتشر .

٦-نظرية التنشئة الإجتماعية عند بارسونز :

ذكر تيماشيف خلال مؤلفه ((نظرية علم الاجتماع)) أن بارسـونز قدم نظرية في التنشئة الاجتماعية هي نظرية ((الإنقسام الشـطري المتتابع)) الذي تتكون مـن خلالـه شـخصية كاملـة أو تامـة الاجتماعية ، حيث تتميز عملية النمو ببعض المراحـل الشـاملة المقررة سلفا ، هذا وتتأثر عملية الإنقسام الشطري هذه خلال أعلا مراحل النمو بتلك البدائل النمطية السابق شرحها .

كما ذكر تيماشيف أن موريس زيلدتش الابن قد عرض في فصـل خاص دراسة مقارنة لتوزيع الأدوار في الأسرة الصغيرة فـي ٥٦ مجتمعا ، وانتهى إلى أن ٤٦ مجتمعا منها تتم فيها عمليات التنشئة الاجتماعية وفقا لنظرية بارسونز .

٧-مكانة نظرية بارسونز :

لم يحظ عالم من علماء الاجتماع بمثل ما حظى به بارسونز مـن مدح وذم معا ، لدرجة صعب معها تحديد مكانة نظرية بارسـونز في علم النظريات السوسيولوجية المعاصرة ، فهو – أي بارسونز – كما يقول تيماشيف ، ليس وضعيا محدثا ، كما أن ليس سـلوكيا بالتأكيد ، أنه يؤكد النظرة الوظيفية التي ربما أمكن توضيحها على نحو أفضل من خلال رأي بارسونز الذي يقول فيه ((أن الأبنيـة الاجتماعية الجزئية تقوم بعملها كميكانزمات تـؤدي إلـى كفالـة المتطلبات الوظيفية لاستمرار الأنساق الاجتماعية)) .

٢- فرديناند تونيز :

Ferdinand Toennies

إن مثل "سبنسر وأميل دوركايم" مهتما بتطور المجتمع من حالـــة إلـــى أخرى . وقد كانت طريقته في بحث الموضوع قريبة الشبه من طريقـة علم الأحياء ، وفي رأيه أن الكيفية والطريقة التي يتفاعل بـــها النــاس وجماعاتهم مع بعضهم البعض هي التي تحدد نـــوع المجتمـــع الـــذي يعيشون فيه .

وقد أكد تونيز على ثنائية التحليل لتطور المجتمع البشري على نحو مـــا ذهب إليها أميل دوركايم ، حيث تقوم الحياة الاجتماعية في نظره ، إمـــا على أساس من الشعور والتعاطف الشخصي والغرض المشترك . كمـــا نجد ذلك في حياة الأسرة والقبيلة وفي القرية .

وإما على روابط غير دائمة لتلك الموجودة بين رجال الأعمال ، وفـــي النوع الأخير من التنظيم يكون الفرد ضحية لقوى لا يمكنه التحكم فيـــها ويمكن وصف هذا التمييز كالتمييز بين الجماعـــات الرســـمية وغـــير الرسمية ، الأصلية والمساعدة ، الشخصية وغير الشخصية .

ولهذا الغرض استخدم "تونيز" مصطلح الجماعة والمجتمع باعتبارهـــا أدوات تصويرية للتحليل ، حيث أن كل نمط من أنماط الســـلوك فـــي المجتمع تحلل على أساس هذين المصطلحين وهو يتماثل إلى حد كبـــير في تصنيفه مع تصنيف "دوركايم" لتطور المجتمعات البشرية القائم على فكرة الثنائية في التحليل وان اختلفا فيما يحققه اتجـــاه التطـــور بيـــن النمطين .

وفي تناول آخر أكثر وضوحا لأعمال تونيز تقف على الدراسة التـــي أداها دكتور عبدالحميد لطفي في هذا الصدد ، حيث يرى تونيز نظريته المسماة بالجماعة والمجتمع أن كل العلاقات الاجتماعية تنشأ عن طريق الإرادة الإنسانية ، وأن الحقائق الاجتماعية لا توجد إلا عـــن طريـــق إرادة الأفراد للمجتمع ، وأن هذه الإرادة تختلف من موقف لآخر .

فقد تدفع هذه الإرادة إلى قيام جماعة من الجماعات أو علاقة معينـــة ، لأن الأشخاص الذين تشملهم هذه الجماعة أو تهمـــهم هـــذه العلاقـــات يرغبون في الوصول عن طريقها إلى هدف معين أو غايـــة معينـــة .

ويقوم تعاونهم معا بقصد تحقيق هذا الهدف برغم ما قد يكون بينهم من برود وكراهية .

وفي هذه الحالة تكون الإرادة السائدة هي الإرادة العقلية .

وقد يجتمع الناس معا ، كما يجتمع الأصدقاء لأنهم يؤمنون بأهمية العلاقات كغاية في حد ذاتها ، وفي هذه الحالة تكون الإرادة السائدة هي الإرادة الطبيعية .

وتعتبر هذه الإرادة العنصر السائد في أية عملية يكون مصدرها المزاج والصفات الخلقية والاتجاهات العقلية للفرد ، سواء كانت نابعة عن الحب أو الميل أو العادة أو الذكريات .

ويوضح تونيز شكلي هاتين الإرادتين بقوله :

"منذ أن العمل العقلي يحسن التفكير ، فإنه أمكنني التمييز بين الإرادة التي تحتوي أو تتضمن التفكير والتفكير الذي يشمل الإرادة ، وكل منها يمثل موروث كلي ، والذي يبلور في ذاته تعددية للشعور ، والغريزة والرغبة .

هذه الوحدة يجب أن تفهم في الحالة الأولى كوحدة حقيقية أو طبيعية ، وفي الحالة الثانية كوحدة صناعية . رغبة الإنسان في الشكل الأول سميتها بالرغبة الطبيعية ، أما في الشكل الثاني سميتها رغبة نسبية .

ويطلق تونيز على كل أنواع التجمعات التي تسود فيها الإرادة الطبيعية اصطلاح : Gemeinschaft ، ويعنيان بالترتيب الجماعة والمجتمع .

ويرى "تونيز" أن الإرادة الطبيعية تبدو في أظهر أشكالها في العلاقات الأربع التالية وهي جميعا تقوم على رابطة الدم :

١- العلاقة بين الأم وأطفالها .

٢- العلاقة بين الزوج وزوجته بمعناها الطبيعي .

٣- العلاقة بين الأخوة والأخوات وبنوع خاص بين هؤلاء الذين أنجبتهم أم واحدة .

٤- العلاقة بين الأب وأبنائه .

ثم يلي ذلك عدد من العلاقات الأخرى ، مثل تلك التي تقوم على أساس الجوار وخاصة ما تمتد منها بالمعيشة المشتركة . كما هو الحال في القرى الريفية . ويلي ذلك العلاقات جميعا الملكية المتبادلة والمتعة المتبادلة . كما يميزها أيضا وحدة الخير ووحدة الشر .

ويوضح تونيز ذلك بقوله :

"التجمعات الطبيعية عبارة عن : الملكية المتبادلة والمتعة المتبادلة ، رغبة الملكية والمتعة هي الرغبة في الحماية والدفاع ، الخير السائد والشر السائد ، والعداوة السائدة ، الشر والخير ليس من صفات الملكية والمتعة ، وليس بالشيء الإيجابي ، ولكن تعد من الرغبة السلبية ، السخط والضغينة ، على ذلك فهي من صفات الرغبة في التدمير .

أما الجزء من النظرية الخاص بالمجتمع فيهتم بالجماعات التي تقوم على أساس صناعي والتي تشبه الجماعة من ناحية سطحية ، تبدو في مجرد معيشة الأفراد أو سكناهم معا ، مع ما يصاحب هذا التشابه السطحي من اختلاف واضح يتمثل في أن الأفراد في حالة الجماعة تجدهم مترابطين برغم ما قد يكون بينهم من عوامل الإنفصال ، بينما تجدهم في حالة المجتمع منفصلين برغم ما يبدو حولهم من عوامل الإتصال .

ويرى "تونيز" أن المجتمع يتكون من الأفراد الذين يندمجون ويتفاعلون طبقا لرغباتهم أو إرادتهم الشخصية الصادرة عن العقل لتحقيق مصالح تهمهم ، وهو إذن ليس من نتاج الطبيعة ، وإنما ناتج عن عمليات صناعية .

وأبرز الأمثلة التي يمثل بها "تونيز" لذلك هي العلاقة التي تقوم حول تبادل السلع والخدمات والنقد والديون ، حيث تسودها جميعا المصلحة الفردية وحكم العقل والتضامن التعاقدي .

وقد ظهرت الجماعي أولا من وجهة النظر التاريخية لأن الجماعة البدائية والأسرة والقبيلة تعتبر كلها أمثلة لها ، ثم بدأ المجتمع يطغى على الجماعة بمرور الزمن وأخذ ينمو على حسابها .

ولذلك كلما أخذ ارتباط الإنسان بالجماعة يقل ، كلما أخذت اتصالاته التعاقدية والمصلحة تزداد ، وأصبح الإنسان عضوا في أعداد أكبر من

الجماعات وكان من أهم العوامل التي عملت على هذا التغـــير النمــو الصناعي والتجاري ونمـــو الطبقـــة البرجوازيـــة ، وقيـــام الطبقـــات الاجتماعية على حساب المجتمعات الزراعية الريفية .

وكان "تونيز" متشائما في دراسته هذه ، لأنه كان يـــرى أن الإنســـانية بإنتقالها من شكل الجماعة إلى شكل المجتمع إنما تتقهقر وتتأخر .

٣- فلوريان زنانيكي Florian Znanieki

تتمثل أبرز إسهامات زنانيكي في النظرية السوسيولوجية المعاصرة من خلال النقاط الآتية :

- **مسلمة النظام الثقافي عند زنانيكي :**

قدم زنانيكي مسلمته الخاصة بالنظام الثقافي الشامل أو العام Universal Cultural Order ، واعتبر أن قبول هذه المسلمة يعد ضروريا لفهم الظواهر الاجتماعية الثقافية .

وتعني هذه المسلمة أن ذلك النظام الثقافي العام يتبلور في شكل أنساق محددة Limited Systems ، ولتصبح الأفعال الاجتماعية للناس .. وللفاعلين متكاملة داخل أنساق منتظمة على أساس معياري حيث تتبادل تلك الأفعال الاعتماد الوظيفي كل منها على الآخر .

وهكذا يكون للقطاع الثقافي – عند زنانيكي – معنى مزدوجا فهو تارة نظاما للامتثال « طبقا لما تحدده المعايير الاجتماعية » ، بينما نجده تارة أخرى « نظاما للاعتماد الوظيفي المتبادل » .

- **توضيح بعض مفهومات زنانيكي :**

أضاف زنانيكي عدة تعريفات دقيقة قصد منها المساعدة على فهم مسلمته الخاصة بالنظام الثقافي العام ، ومن هذه التعريفات ، تعريفه للثقافة على أنها مفهوم شامل يتضمن الدين واللغة والآداب والفن والعادات والسنن والقوانين والتنظيم الاجتماعي والإنتاج الفني والتبادل الاقتصادي والفلسفة والعلم .

كما اعتبر زنانيكي « المجتمعات » كليات مستقلة ذات انتشار إقليمي محدد تتضمن كلا من الكائنات البشرية والثقافات المتكاملة .

فلوريان زنانيكي

- مسلمة النظام الثقافي الشامل عند زنانيكي
- توضيح بعض مفهومات زنانيكي
- الفعل وحدة التحليل عند زنانيكي
- أهتمامات علم الاجتماع كما يراها زنانيكي

- **الفعل وحدة التحليل عند زنانيكي :**

يعتبر زنانيكي « الفعل » وحدة التحليل السوسيولوجي ، ويعرف الفعل بأنه « سلوك واعي » ، كما يرى أن الفعل الاجتماعي يجب أن يوجه إليه علم الاجتماع اهتماما أساسيا ، ويعرفه بأنه سلوك يؤثر في الكائنات البشرية أو المجتمعات الواعية ، كما يصنف الأفعال الاجتماعية إلى أنماط .. خلاقة ، وهدامة ، وتكرارية .

ويرى تيماشيف أن تصنيف زنانيكي هذا معتمد على أفكار تارد القديمة .

- اهتمامات علم الاجتماع كما يراها زنانيكي :

أكد زنانيكي على أن علم الاجتماع يهتم في المحل الأول بالعلاقات الاجتماعية والإنسانية ، كما يهتم كذلك بالجماعات التي تقوم بينها أو بداخلها مثل تلك العلاقات الاجتماعية أو الإنسانية .

كما يرى زنانيكي أن علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي فرعان وثيقا الصلة والارتباط بالضرورة ، هذا إن لم يكونا يتبادلان الاعتماد على بعضهما .

٤- روبرت ماكيفر Robert M. Maciver :

تتجلى إسهامات ماكيفر في النظرية السوسيولوجية من خلال مجموعة الكتب الشهيرة التي أصدرها خصوصا في مجال علم الاجتماع والعلوم الاجتماعات التطبيقية ، ومن أبرز ما كتبه في هذين المجالين :

- المجتمع المحلى Communityعام ١٩١٧ .

- المجتمع Society بالاشتراك مع تشارلز بيدج عام ١٩٣١ ، وأعيد طبع هذا الكتاب مرتين فيما بعد عامي ١٩٣٧ - ١٩٤٩ ، كما ترجم إلى عدة لغات من بينها العربية .

- العليّة الاجتماعية Social Causation عام ١٩٤٢ .

- **سمات مؤلفات ماكيفر السوسيولوجية :**

يقول تيماشيف أنه من الأحكام الممتازة التي قيمت مؤلفات ماكيفر في علم الاجتماع ، تلك التي تصف إسهاماته بأنها ذات أربعة جوانب .

أ- أولها : أنه - أي ماكيفر - وضع خلالها مجموعة هائلة من مفاهيم علم الاجتماع الأساسية على أساس منهجي ، ولم يكتف ماكيفر بوضع تلك المفاهيم بل قدم لها تفسيرات مثمرة .

ب- ثانيها : أن ماكيفر قد ساعد في صد طوفان النزعة الوضعية المتطرفة والامبيريقية الفجة .

ج- وثالثها : أن ماكيفر أعاد - خلال مؤلفاته العديدة - تأكيد الفكرة التي ترى الإنسان ككائن مبدع له آمال وأحاسيس وطموح ودوافع وقيم ذاتية .

د- ورابعا وأخيرا ، فإن ماكيفر قد أوضح بجلاء أن الكتابة في علم الاجتماع يمكن أن تكون جميلة وواضحة وفنية .. بل وأدبية أيضا .

- **الاهتمامات الأساسية لماكيفر :**

أنصب اهتمام ماكيفر الأول على ثلاثة ظواهر رئيسية هي :

أ- التوليف ، بما له من قدرة خاصة على تفسير وإدماج المواد المتنوعة المأخوذة عن التراث الضخم للعلوم الاجتماعية .

ب- إقامة نسق واضح للنظرية السوسيولوجية .

ج- إصرار ماكيفر على أن علم الاجتماع الناضج يتطلب استيعابا كاملا للمفاهيم المنظمة التي تواجه الجهود الخاصة بعلم الاجتماع .

- **المفاهيم السوسيولوجية كما حددها ماكيفر :**

حدد ماكيفر بدقة عددا من المفاهيم السوسيولوجية ولم يكن ذلك التحديد هدفا في حد ذاته بقدر ما كان وسيلة لغاية هي أن تكون هذه التحديدات في النهاية هي الإطار الرئيسي لنظريته في البناء والتغير الاجتماعيين .

هذا ومن المفاهيم التي حددها ماكيفر كلا من :

- المجتمع Society
- المجتمع المحلي Community
- الرابطة Association
- النظام Institution
- الاتجاهات Attitudes
- المصالح Interests
- السنن الاجتماعية Social Godes
- الطبقة الاجتماعية Social Class
- الحشد Social Aggregate
- الثقافة Culture
- الحضارة Civilisation

- وإذا ما استعرضنا بعض هذه التحديدات لتبين لنا أن :

١- المجتمع المحلي ، هو جماعة إجتماعية محددة ذات عدد من المصالح الخاصة .

٢- الرابطة ، هي منظمة تستهدف خدمة عدد من المصالح الخاصة .

٣- المجتمع ، هو عبارة عن نسيج من العلاقات الاجتماعية .

٤- الثقافة ، هي المنتجات البشرية التي تخدم قيما معينة في النهاية .

بعض الاتجاهات النظرية في

علم الاجتماع وعلاقتها بالاتجاه البنائي الوظيفي

أ- الاتجاه الأيكولوجي :

في محاولة لشرح التعريف الأيكولوجي للظواهر الاجتماعية على أسس ظروف خارجية مفروضة عليها ، في ضوء الخصائص البيئية للمشاركين وهي خصائص تتميز بأنها غير برية في الغالب ، حيث يذهب هاولي Hawley ، إلى أن المجتمع المحلي يعتمد على الاستجابة الجماعية التي تعبر عن التوافق في الكائنات العضوية مع البيئة ، والثقافة . وبالتالي لا تعدو إلا أن تكون طريقة لتطوير أساليب فنية تساعد السكان على الاستمرار في البيئة .

كذلك عرف كوين J.A. Quinn ، الأيكولوجيا البشرية بأنها دراسة العلاقات بين بني البشرية التي تتأثر بالموارد المحدودة للبيئة ، وليست هناك دراسة السوسيولوجية توصف بأنها أيكولوجية دون أن تستخدم جوانب معينة من المؤثرات البيئية بوصفها مبادئ أو أسس يعتمد عليها التفسير .

ومن خلال الاتجاه الأيكولوجي أكد بارك أن النظم الاجتماعية لا تستمر على ما هي عليه دائما ، ولكنها تتعدل وتتغير باستمرار لكي تتوافق مع الظروف البيئية . بل أن هذا التعديل ذاته إما أن يرجع إلى تغير في البيئة أو إلى نمو أو تطور تكنولوجي .

والمتابع لتسلسل هذه الأحداث بنظرة علمية ، يلاحظ أن علماء الأيكولوجيا يضيفون مجموعة عوامل أخرى لها مكانة نظرية ثانوية بالطبع ، وأمامنا ، ما ذهب إليه بارك Park .

حيث أنه يرى أن النظم الأيكولوجية والاقتصادية ، والسياسية ، والاخلاقية ، تبدو وكأنها مرتبطة فيما بينها على شكل تسلسل أو تدرج هرمي ، قاعدته النظام الأيكولوجي ، وقمته النظام الأخلاقي .

وإننا بهذا نخلص لتلافي الوثيق الذي يؤسس العلاقة بين الاتجاه الأيكولوجي والاتجاه البنائي الوظيفي .

الاتجاه الديموجرافي :

فرق هاوزر Hauser ، ودنكن Duncan ، بين استخدامين بمصطلح الديموجرافيا فيما ذهبا إلى أن "التحليل الديموجرافي يقتصر على دراسة مكونات التباين السكاني والتغير .

ولا تهتم الدراسات السكانية بمتغيرات تتعلق بالسكان فحسب ، ولكنها تعني أيضا بالعلاقات بين تغيرات السكان ومتغيرات أخرى .

هكذا يمكن إدراك الديموجرافيا من منظور ضيق ، على أنها مرادفة للتحليل الديموجرافي ، ودراسات السكان .

ونحن هنا نهتم بالتعريف الواسع الديموجرافيا ، وهو الذي يشير إلى ما نقصد إليه من الاتجاه الديموجرافي . ويحاول هذا الاتجاه من زاوية التحليل النظري ، أن يقدم تغيرين متميزين للظواهر الاجتماعية باعتبارها تتأثر بعدد المواليد أو الوفيات ، أو الهجرة .

ومن المسلم به أن فكرة تأثير حجم السكان على طبيعة الظواهر الاجتماعية فكرة في علم الاجتماع ، فقد أشار إليها كل من مالتيس ، وزيمل ، ودوركايم .

ومن خلال هذا التناول يتسنى لنا القول بأن الاتجاه الديمودرافي يقدم تغيرات ترتكز على الخصائص البيئية للمشاركين ، باعتبارها البيئة التي تنطوي على أعداد للسكان ، فضلا عن أن معظم هذه الدراسات تسعى إلى كشف العلاقات الموضوعية التي تظهر في عمليات :

- التحضر ، والإنتاج الاقتصادي ، والأنساق السياسية ، والأنساق التربوية .

ومع ذلك ، فإن بعض هذه الدراسات يهتم بالطبع بالأنماط الذاتية للسلوك مثل القيم الثقافية .

وهذا بدوره يخلق أمامنا المساحة للتفكير بأن الاتجاه الديموجرافي مرتبط بعلاقة مع الاتجاه الوظيفي في المجتمع ، ومن هذا المنطلق نجد أن الدور الطليعي لهذا الإتجاه يخدم العلوم الاجتماعية .

ج- **الاتجاه المادي :**

كسابقاته من الاتجاهات النظرية نجد أن الاتجاه المادي قد أسهم إسهاما بارزا في ربط العلاقة بينه وبين الاتجاه البنائي الوظيفي .

وقد حدد أصحاب هذا الاتجاه ، جوهر التفسير المادي بقولهم : "أن الحقيقة التاريخية الأولى هي إنتاج وسائل إشباع الحاجات الأساسية ، أي إنتاج الحياة المادية ذاتها" .

وعلى الرغم من أن الإتجاهات الأيكولوجية ، والديموجرافية ، والمادية تحدد مقولة "الإجتماعي" في ضوء علاقات موضوعية ، إلا أن القضايا التي قدمها كل من ماركس وإنجلز تؤكد الطبيعة السيكولوجية وحاجات الإنسان في تفسيرها للظواهر الاجتماعية .

- بينما يميل الإتجاه الأيكولوجي إلى تأكيد البيئة اللاإنسانية ، ويحاول الاتجاه الديموجرافي إثبات أثر البيئة الإنسانية .

وفي محاولة تجديدية نجد أن إنجلز لمجاراة الإتجاه البنائي الوظيفي ، والحركات المعاصرة ، نجده قد عدل في السنوات الأخيرة هذا التصور السير ذو الجانب الواحد حينما قال :

"أن الموقف الإقتصادي يمثل الأساس لكن العناصر المختلفة للبناء الفوقي ، والصور السياسية للصراع الطبقي ونتائجه ... تمارس أيضا دورها في مجرى الصراع التاريخي في كثير من الحالات .

وهناك تفاعل بين كل هذه العناصر ... حيث تؤكد الحركة الاقتصادية في نهاية الأمر ذاتها بوصفها ضرورية .

وهناك وجهة نظر موازية لذلك طورها هومانز حينما قرر : "إذا افترضنا أنه يوجد بين أعضاء الجماعة مجموعة من العلاقات تشجع حاجة الجماعة إلى البقاء خلال الزمن في بيئتها الخاصة ، الفيزيقية والاجتماعية .

وسوف نرى أنه على أساس هذه العلاقات ، تطور الجماعة علاقات جديدة ، بحيث تعم الأخيرة على تطوير علاقات من النوع الذي افترضنا وجوده .

وأخيراً سنجد أن سلوك الجماعة فضلاً عن أنه تحدد من خلال البيئـــة ، سوف يغير هو ذاته من البيئة نفسها" .

د- **الاتجاه السيكولوجي :**

تواصل الاتجاهات ترابطها الوثيق في دعم العلوم الاجتماعية وذلك عـن طريق ربط العلاقة بين الاتجاهات النظرية فـــي علـم الاجتمــاع مــع الاتجاهات البنائية الوظيفية .

وها هو "جورج هومانز" ، يتناول في كتاباته إظهار التأكيد على أهميـــة المتغيرات السيكولوجية في تفسير مقولة : "الاجتماعي" واضحاً .

وفي رؤيـــاه ، هذه يرى الجماعة تحتاج إلى تدعيم التعاون ، ومجموعـة من الأنشطة ، وإطار محدد للتفاعل بين الأعضاء لكي يتحقق استمراره .

ونحن حينما ندرس الجماعات التي تمثل جزءً من مجتمع معقد ، نجد أن هناك عواطفاً تظهر داخل هذه الجماعة ، تكونت لديها من خلال تفاعلـها مع النسق الخارجي .

وقد أكد "هو مانز" في كتابه عن السلوك الاجتماعي أهمية الدوافع النفسية المفروضة على الجماعات في تفسير بناء الجماعة ، بل وكافة المتغيرات الأخرى التي تنطوي عليها الأنساق الداخلية والخارجية .

ويتضمن ذلك النشاط ، والتفاعل ، والمعايير ، والعواطف التي تنشأ عما هو اجتماعي وكذا دائما تأتي بعض الانعكاســات النفســية بمثــل هــذه المردودات .

ومن المؤكد أن هذه الإنعكاسات لها تأثيرها الفاعل على النمط الحيـاتي للفرد والجماعة .

ونجد أنفسنا نسير مع هذا الاتجاه السيكولوجي دونما أن نشعر بالتغيرات التي تحدث ، نسبة لارتباط العلاقة الوثيقـــة مــع النظــم والاتجاهــات المحورية في علم الاجتماع .

وهو نفس ما يدور في خلد "هومانز" ، بحيث نجده يمركز جل اهتمامـــه حول أشكال السلوك الاجتماعي ، التي تختلـــف بـــاختلاف المجتمعـــات والثقافات .

على أن هذه الخصائص النفسية لا تفسر فقط نشأة الظواهر الاجتماعية المركبة ، إذ لا يوجد أي نظام دون أن يرجع في أصله إلى سلوك اجتماعي أولي ، بل أنها تدعم الظواهر الاجتماعية تشكيلها .

وهذه الاجتهادات المتواصلة تفسر في إطار علمي متين ، مؤكدة على إمكانية التوصل لنتائج إيجابية تخدم العلوم الاجتماعية في جوانب العلوم السيكولوجية .

هـ-الاتجاه التكنولوجي (التطوري) :

إن حاجة الإنسان للتطور مربوطة بوجوده في الحياة ، إذاً لا غنى للإنسان عن التجديد والتطور في أداء رسالته عبر الأزمنة والأمكنة ، وإيقاع الحياة متنامي في مد دائم للوقوف على الإتجاه التكنولوجي وعلاقته بالاتجاه البنائي الوظيفي .

وهنالك مؤلفان يمثلان هذا الاتجاه بوضوح :

أولهم (وليم أوجبرن) Ogburn ، صاحب نظرية التخلف الثقافي ، حينما تبنى وجهة نظر تركز أساساً على التكنولوجيا ، أو الثقافة المادية يسير بمعدلات أسرع بكثير من تفسير الجوانب اللامادية للثقافة ، مما ينشأ عنه التخلف الثقافي .

ويجب علينا أن نميز في رأي "أوجبرن" بين الثقافة المادية الاجتماعية ، وبين الظروف المادية الطبيعية للحياة التي تشغل اهتمام علماء الأيكولوجيا .

وأكد "أوجبرن" في مقال لاحق له أن افتراض "التخلف" لا يقتصر فقط على العلاقة بين جانبي الثقافة المادية ، واللامادية . ولكنه يمتد لكي يغطي العلاقة بين جوانب الحياة الاجتماعية بصفة عامة .

وفي المثال الثاني على الاتجاه التكنولوجي في نظرية علم الاجتماع في كتابات "كوترل" Cottrell ، حينما ذهب إلى أن التكنولوجيا مسئولة عن تحديد الطاقة المتاحة لدى الإنسان ، وهذه الطاقة تحدد ما يستطيع ، وما يريد أن يحققه في المستقبل .

وقد أهتم كوترل Cottrell ، أيضا في مؤلفه : الطاقة والمجتمع عام ١٩٥٥م ، وقد وصف النتائج الاجتماعية والثقافية لاكتشاف الطاقة خلال التاريخ الإنساني .

وما ترتب على ذلك البناء من وحدات إنتاجية كبرى ، وما صاحبها من حاجة إلى مركزية المراقبة ، والتخصص والتقسيم الدقيق للأعمال .

وهكذا يبدو أن الاتجاه التكنولوجي عند "أوجبرن" ، و"أوجبرن" ، و"وكوترل" ، يشترك في خصائص عامة ، فكلاهما يعرف مقولة الاجتماعي" ، على أساس الاتجاهين المادي ، والسيكولوجي .

لكن الاتجاه التكنولوجي يفسر "الاجتماعي" من خلال الرجوع إلى الظواهر غير الإنسانية "كالآلات" ، لأنها تؤثر في البيئة الخارجية لمشاركين . وفي خطوات سرمدية تظل التكنولوجية مصاحبة للاتجاهات الوظيفية .

و- الاتجاه الإحصائي :

أن حياتنا اليومية لا تخلو من العمليات الإحصائية التي نتعاطاها ، كما إننا لا نستغني بأي حال من الأحوال عن الإحصاء .

وفي ممارسة أشبه بالتلقائية ، نجدنا نعد الأشياء ونحسب المجموع ونستخرج النسب المئوية والمتوسطات ويقارن ويصف ، ذلك لأنه يرى أن هذه العمليات تقود إلى الإدراك الواضح لمحتويات البيئة وإلى الأساليب الصحيحة في الوصف والمقارنة .

وفي مجال المعرفة والعلوم – يعتبر العلماء أن العلوم مرتبة ترتيبا زمنيا من حيث تقدمها وتأخرها بحسب أخذها بلغة الكم في مجال بحثها ، ويعتبرون أن الرياضة هي أرقى العلوم لأنها تستخدم لغة الكم دائما .

ولهذا يعتبر المنهج الإحصائي أكثر المناهج انتشارا بين العلوم ، والدليل على ذلك أن كل العلوم التي تقوم على الملاحظة لا غنى عنها لاستخدام الإحصاء في إقامة القوانين التي تعتمد على تلك العلوم .

وفي محاولة لكثير من المفكرين أن يجعلوا من الإحصاء علما له قواعده وقوانينه ، وحاول البعض الآخر أن يجعله علما تابعا للعلوم التجريبية . أما التفكير الحديث فقد جعل الإحصاء أداة للقياس ومنهجا للبحث .

كما نجد أن المنهج الإحصائي يعوض القصور في هذه العلوم ، ويحول دون استخدام المنهج التجريبي .

فالإحصاء – كما يقول :"كيتلييه" .

هو الوسيلة الوحيدة التي تستخدم في دراسة الظواهر التي لا تستطيع أن تجري عليها تجارب وهو كما يقول "كورنو" : Gorno ، ويساعد على تجميع وتنسيق عدة وقائع ذات نوعيات مختلفة . ويمكن من الحصول على بيانات ندركها بطريقة الحس .

ويواجه المنهج الإحصائي صعوبة استخدام المنهج المقارن ، إذا افترضنا المقارنة ، توف تطابق في ظواهر معينة واختلافات في ظواهر أخرى .

والإحصاء هي تطبيق الوسائل الرياضية على الظواهر الاجتماعية ، وهو بذلك يعكس نتائج البحث العلمي في صورة رياضية بالأرقام أو الرسوم البيانية – أي في صورة كمية – ومن ثم تسهل المقارنة .

وكلمة "إحصاء" أول من أطلقها هو العالم الألماني "جونفرد اختفال" على هذا النوع من الدراسة .

كما أعطى "أوجست كونت" أهمية وضرورة لاستخدام هذا المنهج . وشارك في استخدامه "أميل دوركايم" .

إختص علم الإحصاء في العلم الاجتماعي والعلوم الاجتماعية بميزات عديدة ، نذكر منها :

١. يجعل الباحث يتجرد من عواطفه ومشاعره ، ويحكم على الظواهر حكما موضوعيا ، فالأرقام هي التي تتكلم وتبين طبيعة الظاهرة .
٢. الإحصاء معناه أنه إذا وجدت وقائع معينة وقام بقياسها عدد من الباحثين الاجتماعيين مستخدمين منهجا مشتركا واحدا ، فإن النتائج التي يصلون إليها تكون واحدة .
٣. يضع الباحث قوانينه في صورة كمية ، مما يجعل نتائجه أقرب إلى الدقة العلمية بعيدة عن مرونة الألفاظ والتعبيرات اللغوية ، وعن الغموض والإيهام .

فنظرة واحدة لرسم بياني تكفي لإعطاء الفرد فكرة واضحة عن تطور ظاهرة من الظواهر الاجتماعية أو الارتباط بين ظاهرتين مختلفتين أو المقارنة بينهما .

٤. كلما كانت النتائج دقيقة ساعد ذلك التنبؤ الدقيق في ميدان هذه الظاهرة .

٥. ونجد من ضمن هذه المزايا التي ينفرد بها الإتجاه الإحصائي أنه يساعد في حل كثير من المشاكل الاجتماعية .

وهنالك مزايا أخرى للإتجاه الإحصائي .

ز – اتجاه بحث الحالة :

عندما ساءت ظروف العمل ، ظهرت الآثار الاجتماعية السيئة نتيجة التوسع الصناعي في ظروف الحياة العمالية . انتشر استخدام منهج دراسة الحالة في مجال البحث الاجتماعي .

وقد أجريت هذه البحوث على الأسرة وفي ميادين العمل المختلفة ، وعلى أساس مؤسسة أو هيئة اجتماعية أو كتاب القرية . وقد يكون مجتمعا صغيرا أو كبيرا ، أو جماعة من الجماعات . وقد تتركز الدراسة حول أشخاص معينين .

ويقوم عالم الاجتماع المتابع لهذا النهج بأخذ عينات تمثل الطبقة التي يقوم بدراستها ، ثم يجري البحث على هذه الحالات المختارة . وأخيرا يطبق ما وصل إليه من نتائج على المجموعة كلها .

وتشير العينة الاحتمالية ، إلى الطريقة التي يتم بها اختيار مجموعة فرعية من وحدات أكثر اتساعا ، وبحيث يكون لكل وحدة ، ووحدة فرعية فرصة الاختيار ، ضمن العينة التي تطبق عليها عمليا هذه الدراسة .

وبالتالي نربط بينهما وبين العلاقة الوظيفية في الاتجاه البنائي ، ومن ثم نخلص إلى دراسة علمية اجتماعية متطورة في اتجاه أو منهج بحث الحالة .

ولكي نختار مجموعة فرعية من الوحدات الأكثر اتساعا فعليا ، دراسة هذين النموذجين الآتيين :

أ) العينة العشوائية البسيطة :

وهي لا تختار على أساس مقصود ، إلا بهذا المعنى الأخير تكون العينة مقصودة أو مخططة ، وإنما تختار بحيث يكون لكل فرد من أفراد البحث فرصة الإختيار في العينة .

وهذا ما يعرف بتكافؤ الفرص أو تساوي الاحتمالات وذلك كأن أضع أسماء أفراد البحث في قبعة ، ثم أجري سحب العدد

المطلوب إجراء البحث عليه وهو يمثل المجموعة ، ويخلط الورق عند كل سحب ، كالقرعة تماما .

ب) **العينة الاحتمالية الطبقية :**

وهي عينة احتمالية تختار على أساس تقسيم السكان إلى طبقات تدريجية ، وتختار عينة عشوائية بسيطة تمثل كل طبقة من هذه الطبقات .

وهنالك طريقتان تستخدمان في دراسة الحالة :

- تاريخ الحالة .
- التاريخ الشخصي للحالة .

ويشتمل تاريخ الحالة قصة تطورها فيحصل الباحث على البيانات من مصادر متعددة مثل الأسرة والمدرسة ويستعين بكل الوثائق والسجلات المتاحة التي يمكن أن تتضمن بيانات من هذا النوع .

أما التاريخ الشخصي للحالة فهي صورة من صور التاريخ للحالة يعرض فيها الباحث حالة المبحوث .

ما يميز الاتجاه البنائي الوظيفي عن باقي الاتجاهات النظرية في علم الاجتماع

من خلال دراستنا السابقة للاتجاه البنائي الوظيفي نجد أنه ينفرد بعدة مزايا عن الاتجاهات الأخرى في علم الاجتماع . وهذه الامتيازات تتمثل في كونه إضافة متطورة في علم الاجتماع اكتسبها خلال الربع الأول من القرن العشرين .

أن أول هذه المزايا ، تأثر هذا الاتجاه بالانثربولوجيا الثقافية . كما نجد أنه أي الاتجاه الوظيفي قد حقق نجاحا كبيرا خلال سنوات قليلة مضت ، حتى نجده قد دخل منافسا قويا للوضعية المحدثة ، بل قد فرض نفسه مسيطرا على علم الاجتماع الحديث .

وإذا جاز لنا تحديد موقفنا تقديرا ، نجد أن علم الاجتماع في ظل الاتجاه البنائي الوظيفي ، تدور حول تحقيق الغرض الذي يؤدي أجزاءه وظائف أساسية لتأكيد الكل وتثبيته . وأحيانا اتساع نطاقه وتقويته .

ومن ثم تصبح هذه الأجزاء مساندة ومتكاملة على نحو ما . هذا وهنالك عدة ميزات للإتجاه الوظيفي ، ساعد كثيراً في خدمة علم الاجتماع .

الفصل الثالث

الاستخدام المنهجي للنظرية الاجتماعية

في الاتجاه الوظيفي البنائي

أولا : أهمية الاستخدام المنهجي للإطار التصوري .

ثانيا : أهداف التحليل النسقي .

ثالثا : استخدام الأنساق المنطقية في تحليل الواقع .

رابعا : كيف يقود النموذج التصوري البحث الاجتماعي .

خامسا : مستويات تطبيق منهج التحليل النسقي .



الاستخدام المنهجي للنظرية الاجتماعية

تشكل فكرة وجود إطار تصوري بإجماع علماء المنهج فائدة عظيمة للباحث ، فالإطار الذي ينبني على معايير واضحة يمكن من تحديد الخصائص الجوهرية للمشكلات والتحديات ، فضلا عن انه يمثل عملا جوهريا وضروريا لصياغة النظرية .

وإذا كانت العلوم الاجتماعية ما زالت تفتقد وجود النظرية العامة المفسرة للوجود بالاجتماعي ، فإن علماء المنهج يعتبرون أن مشروعات الأطر التصويرية تعد في مرتبة معادلة للنظرية وان كان يعتقد البعض أننا إذا كنا قد اعتبرنا المفاهيم وتعريفاتها جزءا ضروريا من النظرية فان هذا لا يعني أنها كافية في ذاتها لتشييد نظرية مكتملة .. ذلك أن المفاهيم هي مسميات تطلق على وقائع في العالم الخارجي ، بينما اكتمال النظرية مشروط بوجود بالقضايا التي تقرر العلاقات الاجتماعية العامة . فالنظرية نسق استنباطي بمعنى أن القضية هي الوحدة الأساسية في هذا النسق ، ولا يكفي أن تتم الاستنباطات من المفاهيم وحدها .

ولما كانت النظرية تخدم عددا من الوظائف لا يمكن الاستغناء عنها بالنسبة لأي علم ، فهي تفسر تحت الملاحظة ، وتوجه الاهتمام إلى ما يجب ملاحظته وتسمح بالتنبؤ فيما يتعلق بما سوف يلاحظ ، لذلك يمكن القول أن هناك ثلاث محددات أساسية تعتبر معايير للكفاية الإمبيريقية للأطر التصورية .

* ينبغي أن تكون قادرة على تفسير السببية في الظواهر المدروسة أو أن تقترح طرقا معينة للتفسير .
* ينبغي أن تحتوي على القضايا اللازمة لتحليل الواقع الاجتماعي والعمليات الاجتماعية المعقدة .
* ينبغي أن تساعد على إقامة نماذج خاصة بالبناءات والأنساق الاجتماعية .

وغني عن البيان أن هذه المعايير الثلاثة مترابطة ومتشابكة ومتكاملة تفيد في التحليلات النسقية ويمكن اعتبارها ركائز أساسية للبحث التربوي فيمكن الوثوق في صدقها الإمبيريقي وتساندها في الأداء الوظيفي مع المشاهدات التجريبية الواقعية في المجال التربوي . وعلى هذا الأساس نستعرض في الورقات التالية مخطط مشروع النظرية النسقية كبناءات عقلية تشتق معطياتها من الواقع الاجتماعي ونسترشد بقضاياها الفكرية والمنهجية في مشروعاتنا .

وهذه الأفكار يمكن تطويرها على المدى البعيد حتى تكتمل وبتحقق لها اللياقة المنهجية بالمناقشات الجدلية النقدية والبحوث التجريبية .

ولعل اكثر ما يدخل في موضع اهتمامنا في هذا المجال أن نهتم في هذا المقام بتحليل الحقائق التالية :-

أولا : أهمية الاستخدام المنهجي للإطار التصوري .

ثانيا : أهداف التحليل النسقي .

ثالثا : استخدام الأنساق المنطقية في تحليل الواقع .

رابعا : كيف يقود النموذج التصوري البحث الاجتماعي .

خامسا : مستويات تطبيق منهج التحليل النسقي .

وعلى هذا الأساس نحاول تحقيق الرابطة المنهجية بين نظرية التحليلات النسقية وبين المستلزمات الضرورية للبحث العلمي .

وأننا نقرر بادئ ذي بدء قبل أن نعرض لهذه الأبعاد المشار إليها إنها خطوط للتفكير وليست التزاما فكريا أو منطوقا نظريا جامدا وإنما نستطيع من خلالها أن نتصدى لمعوقات ومشكلات البحث الاجتماعي لأنها تؤلف المحددات والمتضمنات المنهجية لأدوات تساعد على تحليل الواقع الاجتماعي بمفهومه الواسع .

أولا : <u>أهمية الاستخدام المنهجي للإطار التصوري .</u>

يعتبر الإطار التصوري بإجماع علماء المنهج ذو فائدة ، فالإطار الذي ينبني على معايير واضحة يمكن الباحث من تحديد الخصائص الجوهرية للظواهر ، فضلا عن انه يمثل عملا جوهريا وضروريا لصياغة النظرية .

وتستخدم النماذج التصورية كأسلوب منهجي لإيضاح تصورنا للنسق الاجتماعي ومجموعة المتغيرات المتساندة التي يحتويها ، حيث يوضح نظام العلاقات القائمة بين الأجزاء المكونة للنسق ، باعتباره نقطة مرجعية حددها ، ليقيم على أساسها الأنساق الفرعية والميكانيزمات الضابطة ، والانحراف والضغوط الخارجية والتوازن والعناصر المعوقة وظيفيا . وكلها أشكال من التنظيم التصوري للواقع الاجتماعي ، انتهى العلماء إلى إقامتها في صورة عقلية شمولية متناسقة ، تحتوي على وحدات للدراسة والتحليل .

ويكشف الاستخدام المنهجي للإطار التصوري عن مجموعة من الوظائف حيث يعمل على :

* تحديد الإبعاد الأساسية للنماذج المختلفة "للنسق" وذلك كوظيفة تنظيمية تكون مجموعة من الأبعاد في وحدة تصوريه ، وهذا يعني تبسيطا للواقع الاجتماعي وتجريدا لبعض العناصر الجوهرية فيه .

* وقع نماذج تصورية يتم على أساسها صوغ الأنماط التصورية باعتبارها مفهومات النموذج ، بحيث يمكن أن تكون معيارا تستند إليه المقارنة والتصنيفة .

* يحقق الإطار التصوري التعميم والتجريد وهو الهدف النهائي من أهداف البحوث الاجتماعية – إيجاد نظرية عامة شاملة تفسر الوجود الاجتماعي من خلال النسق النظري .

وقد جاهد بارسونز بالنسبة لصوغ النظرية المنهجية التي يحدد فيها الصور المنطقية بين العوامل المحددة ، والنتائج المترتبة على هذه العوامل تحديدا دقيقا ، وهي صور العلاقات التبادلية ، والعلاقات المتساندة ، وعلاقات التوافق وعلاقات التكيف ، والعلاقات الاحتمالية .

والواقع أن التفرقة بين صور العلاقات هذه ذات دلالة منهجية في استخدام النظرية في عملية البحث التجريبي ، وكذلك في عملية التفسير للمفهمات .

ذلك أن "المفهومات" حدود تشتمل على المقولات والنماذج التصورية وغير ذلك من البناءات التصورية التي تحدد موضوع النظرية أي أنها تحدد الظواهر التي تتناولها النظرية ، ويسير هذا التحديد الذي تقوم به المفهومات في اتجاهين :

* اتجاه تقوم به المفهومات بتحديد وحدات الملاحظة بالنسبة للظواهر التي تناولتها النظرية .

* اتجاه تقوم فيه المفهومات بتحديد نظام تصنيفي يصور الخصائص الرئيسية لوحدة الملاحظة .

وهنا نجد أن المفهومات البارسونزية تتفق منطقيا مع تصنيفاته ، وتحتوي في ذات الوقت على مضمون قضاياه المنطقية ، فنجده في نظرية النسق الاجتماعي يشير إلى وحدات تنظيمية مصنفة طبقا لنموذجه التصوري . مثل النسق العام ، والأنساق الفرعية ، فالنسق متغير يقوم بتصنيع الخصائص طبقا لمجموعة من الفئات

الكيفية ، فيمكن تصنيفه في صور عديدة ويحتوي على مجموعة متسلسلة من فئات الأنساق ، مرتبة بنسبة ما تحمله كل فئة من مقدار هذه الخصائص والعلاقات القائمة بينها .

ذلك القدر من الفهم يوضح لنا القواعد المنهجية لصوغ النظرية النسقية ويصور الإجراءات المنهجية التي حصرها بارسونز نفسه من أن نظريته نسقية Systematic .

وهنا نستوضح منهجية هامة من ابرز النقاط في هذا العرض ، ذلك أن المفهومات وتعريفاتها جزءا ضروريا من النظرية ، ولكن هذا لا يعني أنها كافية في ذاتها لتشييد نظرية مكتملة ، ذلك أن المفهومات هي مسميات تطلق على وقائع في العالم الخارجي بينما اكتمال النظرية مشروط بوجود القضايا التي تقرر العلاقات الاجتماعية العامة ، فالنظرية هي نسق استنباطي ، بمعنى أن القضية هي الوحدة الأساسية في هذا النسق ، ولا يكفي أن تتم الاستنباطات من المفهومات وحدها .

أما فيما يتعلق بالتساند المنطقي بين مفهومات النظرية ، فالمقصود منها أن القضايا الدنيا في النظرية يمكن أن تستنبط بقوة قواعد المنطق وحده من القضايا العليا ، وهذا هو المعنى الدقيق للتساند المنطقي للمفهومات ، وأنها مسميات تشمل فئات كثيرة من الملاحظات .

ثانيا : أهداف التحليل النسقي

يهدف اتجاه التحليل النسقي في البحث الاجتماعي إلى تحقيق هدفين مترابطين :-

* التنظيم المنطقي للواقع الملموس موضوع التحليل .
* التفسير المنطقي لعناصر موضوع الدراسة .

ولقد تحدد مسلك التحليل النسقي في ضوء هذا الاتجاه على هدى هذين الهدفين وتحقيقا لها ، فاستخدم الباحثون من أنصار هذا الاتجاه مجموعة من الأدوات التصورية والمعالجات المنطقية التي تستهدف كلها تنظيم الواقع المعاش وتفسير ظواهره ذلك أن الهدف المثالي للعلم ليس مجرد تجميع الحقائق أو الوصول إلى القضايا المنعزلة عن بعضها ، بل هدف العلم أن يصل إلى تنظيم مجال التحليل الذي يتناوله العلم بالدراسة وان يصل إلى مجموعة منظمة – مترابطة متشابكة – بين الأحكام تفسر الظواهر التي يتخذها العلم موضوعا لدراسته ، فالعلم ليس معرفة مجزأة متفرقة ، بل هو معرفة منظمة

متكاملة ، والحقائق الجزئية – التي يصل إليها الباحثون في حاجة إلى أن تندرج تحت مقولات عامة تدخل بدورها في إطارا تصوريا اكثر شمولا بحيث يمكن أن يكون للمشاهدات التجريبية معنى يمكن إدراكه وتحديده وتقدير أهميته في ضوء نظرية عامة .

ولقد أحس الباحثون بالحاجة لأهمية تبني هذا المدخل "التحليل النسقي Systems analysis أو تحليل النظم" وقد يرجع ذلك بصورة أساسية إلى الطبيعة المعقدة للمشكلات الاجتماعية التي تتأثر بمجموعات متفاعلة من المتغيرات المختلفة . ذلك أن البحوث الذرية أو تلك التي تبنى على الفلسفة الآلية ، لاتكون في الغالب كافية سواء لفهم المشكلات التربوية أو لتقديم حلول لها . وعلى النقيض من ذلك فان مدخل تحليل النظم يقدم نظرة شاملة لمثل هذه المشكلات ، مما يسمح بصورة كبيرة بالتوصل إلى الحلول المثلى ، الأكثر من ذلك أن هذا المدخل يجعل من الممكن الإفادة من إنجازات العلوم الأخرى والتكنولوجيا في البحث الاجتماعي وذلك في إطار وحدة المعرفة الإنسانية .

وغني عن البيان أن وحدة المعرفة العلمية كهيكل متماسك لا يمكن أن تقوم دون وجود التنظيم المنطقي والتصوري ودون قيام التفسير العقلي ، لما لهما من أهمية قصوى في خلق نسق للعلم ، ولقد اهتم هؤلاء الباحثون تحت تأثير المعايير المعرفية التي يمليها عليهم اتجاههم اهتماما بالغا بالعنصر الرمزي في كل حقيقة وبالعنصر التصوري في كل مدرك حسي وبالدور التنظيمي والتفسيري الذي تقوم به المعالجات المنطقية ، والأدوات التصورية في مجال .

ويطبق مدخل تحليل النظم بطرق مختلفة ، وعلى مستويات مختلفة من التعقيد وذلك بالرغم من أن تطبيقاته تعد مشتركة مع كثير من العلوم الحديثة من حيث التفكير المنظومي ، بالرغم من انه توجد بعض المشكلات النظرية والتطبيقية في الأخذ بتحليل النظم ، ولكن يبدو أن النظرية العامة للنظم تتطور بصورة سريعة للغاية وتتخذ طريقها للتغلب على كثير من تلك المشكلات .

ثالثا : استخدام الأنساق المنطقية في تحليل الواقع

يتخذ الواقع الاجتماعي في صورته الكلية وبكل ما يحويه من إعداد هائلة لا حصر لها من الأشياء والوقائع والعمليات والجزئيات ، عددا لا ينحصر من الصور ، والخواص والعلاقات حتى يمكننا أن نقول عن الواقع المدروس ما يقال عن العالم كله ، انه غير محدود ، بالغ التعقيد ، بحيث لا يمكن أن يعرف أو يفهم بكل تعقيداته التي لا حدود

لها عن طريق الإدراك الحسي المباشر . إذ يبدو الواقع بالنسبة للإدراك الحسي مؤلفا من أجزاء متفرقة منوعة لا رابطة بينها .

ولهذا يتطلب دراسة هذا الواقع نوعا من التنظيم العقلي المنطقي حتى يستطيع الباحث في مجال الدراسة أن ينظم بواسطته هذا الواقع وعلل ما فيه من انعدام النظام (سوء التنظيم Disorganization) ليبدو له من الناحية النظرية ، مؤلفا من انساق تتألف من أجزاء يرتبط بعضها بالبعض الآخر ارتباط منطقيا .

المجال الاجتماعي إذن – متعدد الأبعاد والعناصر والعلاقات بصورة تدعو إلى أن تكون علوم التربية في حاجة ماسة إلى وضع إطار منطقي ييسر تنظيم هذا المجال .

ولقد وجد الباحثون ضالتهم في مفهوم النسق System إذ تضمن هذا المفهوم إيجاد النظام والوحدة بين مجموعة مختلفة منوعة من الأجزاء – ولكنها رغم اختلافها وتنوعها – مترابطة فيما بينها . وتتحرك هذه الأجزاء وفق شكل أو آخر من المبادئ الموجهة . ويتم صوغ هذه المبادئ في لغة تصورية ، وفي ضوء منطق القوانين الكلية والتعميمات .

ويمثل هذا المخطط خلفية تشيد ثلاثة انساق تخطيطية هي : النسق الاجتماعي Social System ، نسق الشخصية Personslity system والنسق الثقافي .

وهذه الأنساق الثلاثة تمثل تجريدا للسلوك الاجتماعي الملموس ، وهي الأنساق الثلاثة الرئيسية "الفعل الاجتماعي" Social action .

وينطوي الإطار المرجعي "للفعل" على: فاعل ، وموقف ، وتوجيه للفاعل actors's orientations أزاء الموقف ، وينقسم التوجيه إلى نوعين :-

١- توجيهات الدافعية Motivational orientations :

وتتصف بأنها تمدنا بالطاقة التي ستبذل في الفعل ولها ثلاثة جوانب :

أ- ادراكية : تقابل ما يدركه الفاعل في موقف معين ، بالنظر إلى نسق استعداد الحاجات need dispositions – ويتداخل مع الاتجاهات .

ب- انفعالية : Cathetic وتتضمن العملية التي عن طريقها يخلط الفاعل أهمية عاطفية أو انفعالية على شيء معين .

ج- تقويمية وعن طريقها يوزع الفاعل طاقته على الاهتمامات المختلفة التي يجب عليه أن يختار بينها .

٢- توجيهات قيمية Value orientations وتشير إلى مراعاة بعض المعايير والمستويات الاجتماعية ولها ثلاثة جوانب (ادراكية - تقديرية - أخلاقية) .

ويحتوي النسوق الاجتماعي على شبكة من العلاقات القائمة بين الفاعلين (شبكة من العلاقات التفاعلية) . وتحدد هذه العلاقات طبقا لنسق الثقافة (الأنماط المركبة والمشتركة ثقافيا) ويظهر مفهوم القيمة في أثناء التحليل بافتراض أن الأنماط تحتوي على قيم .

ويمكننا النظر إلى النسق الثقافي "كنتاج من ناحية ، وكعامل من ناحية أخرى" لانساق التفاعل الاجتماعي الإنساني فالثقافة تتفاعل وتتعلم وتصبح مشتركة بين الناس طبقا لأساليب التوجيه الدافعي الثلاثة المعروفة من قبل ويمكن أن نميز ثلاثة أنواع رئيسية من الأنماط الحضارية :

١- انساق الأفكار والمعتقدات وتتميز بأفضلية الميول الادراكية .

٢- انساق الأفكار والرموز التعبيرية كالأشكال الفنية ، وتتميز بأفضلية الميول العاطفية (الميل للأشياء أو بعضها) .

٣- انساق للتوجيهات القيمية أو الأنماط التكاملية .

وتتجه الأنماط الثقافية إلى الانتظام في انساق على أساس الاتساق المنطقي لانساق المعتقدات أو الانسجام الأسلوبي للأشكال الفنية ، الملائمة العقلية لكيان القواعد الأخلاقية .

والموضوع الأساسي الذي تدور حوله نظرية التحليل النفسي هنا كما تبدى لنا هو أداء الأبنية لوظيفتها ، ويتطلب التحليل الوظيفي معالجة منهجية لمكانات وادوار كل نسق من هذه الأنساق أو كل بناء من هذه الأبنية وكذلك للأنماط التنظيمية Institutional Patterns .

وفي سياق التحليل السوسيولوجي تعرف النظم بأنها مجموعة مركبة من الأنماط التنظيمية "الملائمة" للتحليل كوحدة بنائية في النسق الاجتماعي ومن شأن هذه الصياغة أن تنقل مفهوم النظام من مستوى الرمز الذي يمثل الواقع الاجتماعي إلى مستوى دراسة الواقع الاجتماعي .

ويوصف النظام بأنه ذو أهمية استراتيجية في أي نسق اجتماعي موضوع للدراسة . وتعني هذه العبارة أن أداء النظم لوظيفتها بقدر

من الكفاءة ، يمثل شرطا أوليا لهذا الاستقرار الذي يمـيز البنـاء أو النسق الاجتماعي المستقر عن النسق الاجتماعي بصفة عامة .

وإذا كانت "النظم" هي النقطة البؤرية في مجـال التحليـل النسـقي فتعرف نظرية التحليل النسقي للنظم الاجتماعية (تميزا لها عن تحليل النظم الاقتصادية أو الثقافية ... الخ) بأنها ذلك الجـانب من نظرية الأنساق الاجتمـاعية الذي يختص بتكـون النظـام المجتمعـي Societal Institutionalization .

ونؤكد هنا أن تكون النظام System يعتبر الميكانيزم الأساس في خلق التكامل في الأنساق الاجتماعية . ذلك أن تكون النظام ينطوي علـى كل بناء أو نمط لتوجيهات القيم في النسق الاجتماعي ويعمل علـى "استدماج" الأنساق القيمية في الشخصية الإنسانية . فتكون النظام إذن هو العملية التي تخلق التكامل والاستقرار فهو همزة وصل وطيـدة بين المجتمع والثقافة من ناحية والشخصية من ناحية أخرى .

– رابعا : كيف يقود النموذج التصوري البحث الامبيريقي :

ومن هنا نشأت الحاجة إلى وجود النموذج التصوري المناسب الـذي يستطيع قيادة عمليات البحث بأبعادها المختلفة .

وإذا ما نظرنا إلى هذا الأمر نظرة منهجية يبدو لنا مجموعة النقـاط المرجعية التي يمكن أن تقيم عليها مسلكا بنائيا وظيفيـا ، ونصـوغ أفكارنا ورؤيتنا العلمية المستمدة من الواقع الاجتماعي على أسـاس النموذج التصوري في البحث المزمع وهي تشكل تفهم افتراضـات البنائية الوظيفية التي استند إليها كثير من الباحثين في إقامة نمـوذج تصوري للمجتمع وذلك على النحو التالي :

الافتراضات البنائية الوظيفية للتحليل النسقي :

واستنادا إلى كل ما سبق نستخلص افتراضات ومقـولات النظريـة العامة للتحليل النسق التي يمكن أن تكون منـهجا يقـود النمـوذج السوسيولوجي المناسب للبحث الإمبيريقي على النحو التالي :–

١– النظر إلى المجتمع نظرة كلية باعتباره نسقا يحتـوي علـى مجموعة من الأنساق النوعية المترابطة . ويترتب على ذلـك أن تستند عملية الحث إلى تبادل الأنساق النوعية بعضها علـى البعض الآخر .

٢– أن الأنساق النوعية تخضع دائما لحالة من التوازن الدينـامي ، وهو قيام الاستجابة التلاؤمية بينها .

من الكفاءة ، يمثل شرطا أوليا لهذا الاستقرار الذي يميز البناء أو النسق الاجتماعي المستقر عن النسق الاجتماعي بصفة عامة .

وإذا كانت "النظم" هي النقطة البؤرية في مجال التحليل النسقي فتعرف نظرية التحليل النسقي للنظم الاجتماعية (تميزا لها عن تحليل النظم الاقتصادية أو الثقافية ... الخ) بأنها ذلك الجانب من نظرية الأنساق الاجتماعية الذي يختص بتكون النظام المجتمعي Societal Institutionalization .

ونؤكد هنا أن تكون النظام System يعتبر الميكانيزم الأساس في خلق التكامل في الأنساق الاجتماعية . ذلك أن تكون النظام ينطوي على كل بناء أو نمط لتوجيهات القيم في النسق الاجتماعي ويعمل على "استدماج" الأنساق القيمية في الشخصية الإنسانية . فتكون النظام إذن هو العملية التي تخلق التكامل والاستقرار فهو همزة وصل وطيدة بين المجتمع والثقافة من ناحية والشخصية من ناحية أخرى .

رابعا : **كيف يقود النموذج التصوري البحث الإمبيريقي :**

ومن هنا نشأت الحاجة إلى وجود النموذج التصوري المناسب الذي يستطيع قيادة عمليات البحث بأبعادها المختلفة .

وإذا ما نظرنا إلى هذا الأمر نظرة منهجية يبدو لنا مجموعة النقاط المرجعية التي يمكن أن تقيم عليها مسلكا بنائيا وظيفيا ، ونصوغ أفكارنا ورؤيتنا العلمية المستمدة من الواقع الاجتماعي على أساس النموذج التصوري في البحث المزمع وهي تشكل تفهم افتراضات البنائية الوظيفية التي استند إليها كثير من الباحثين في إقامة نموذج تصوري للمجتمع وذلك على النحو التالي :

الافتراضات البنائية الوظيفية للتحليل النسقي :

واستنادا إلى كل ما سبق نستخلص افتراضات ومقولات النظرية العامة للتحليل النسق التي يمكن أن تكون منهجا يقود النموذج السوسيولوجي المناسب للبحث الإمبيريقي على النحو التالي :-

١- النظر إلى المجتمع نظرة كلية باعتباره نسقا يحتوي على مجموعة من الأنساق النوعية المترابطة . ويترتب على ذلك أن تستند عملية الحث إلى تبادل الأنساق النوعية بعضها على البعض الآخر .

٢- أن الأنساق النوعية تخضع دائما لحالة من التوازن الدينامي ، وهو قيام الاستجابة التلازمية بينها .

٣- نسق الضبط يتلازم مع نسق القيم المحوري في مجموعة التوجيهات القيمة والتوجيهات الدافعية يعززهم آليات التلازم والضبط الاجتماعي والأنماط التنظيمية .. في قيادة عمليات النسق الاجتماعي والبناءات الاجتماعية على كافة المستويات .

٤- أن التربية كنسق اجتماعي لها مستلزمات ووسائل وعمليات ذات دلالات نظرية وامبيريقية ترجع إلى وجوده وتمتد وتصبح محافظة على المدى البعيد لتندمج مع انساق اكثر اتساعا وتشمل في النهاية التغير في بنائها العام .

٥- نسق الثقافة ينبغي أن يحلل من خلال ثلاثة حدود منطقية تعتمد بعضها على بعض متقاطعة ومتعامدة داخليا وتكون أسسا ومحاور من المتغيرات .

- نسق الشخصية .
- نسق الثقافة .
- نسق اجتماعي .

وهذه المرتكزات الخمسة التي تنطوي على فهمنا للنموذج التصوري للتحليل النسق البنائي الوظيفي يمكننا أن نردها في مقولات رئيسية ذات دلالة ومعنى :

١- أن فهمنا للتحليل النسقي يتضمن إشارات واضحة للمتغيرات السوسيولوجية (الفعل – النسق – الأنساق الثقافة) ووضع هذه المتغيرات في السياق العام للمفهوم النسقي يمثل (مدخلات Input ومخرجات Out put كل منها) أي الأسباب والنتائج المترتبة على علاقة كل منها بعضها بالبعض .

٢- يؤدي التركيز في النقاط الخمس إلى التأكيد على مركزية نسق الثقافة ليكون محورا للتحليل والمناقشة .

٣- التربية كعملية للتغير والتنمية ترتكز على المقومات البنائية والوظيفية داخل النسق الاجتماعي العام – وترد من ميكانزماتها إلى الإنجاز والإمكانيات الكامنة .

٣- نسق الضبط يتلازم مع نسق القيم المحوري في مجموعة التوجيهات القيمة والتوجيهات الدافعية يعززهم آليات التلاؤم والضبط الاجتماعي والأنماط التنظيمية .. في قيادة عمليات النسق الاجتماعي والبناءات الاجتماعية على كافة المستويات .

٤- أن التربية كنسق اجتماعي لها مستلزمات ووسائل وعمليات ذات دلالات نظرية وامبيريقية ترجع إلى وجوده وتمتد وتصبح محافظة على المدى البعيد لتندمج مع انساق اكثر اتساعا وتشمل في النهاية التغير في بنائها العام .

٥- نسق الثقافة ينبغي أن يحلل من خلال ثلاثة حدود منطقية تعتمد بعضها على بعض متقاطعة ومتعامدة داخليا وتكون أسسا ومحاور من المتغيرات .

- نسق الشخصية .
- نسق الثقافة .
- نسق اجتماعي .

وهذه المرتكزات الخمسة التي تنطوي على فهمنا للنموذج التصوري للتحليل النسق البنائي الوظيفي يمكننا أن نردها في مقولات رئيسية ذات دلالة ومعنى :

١- أن فهمنا للتحليل النسقي يتضمن إشارات واضحة للمتغيرات السوسيولوجية (الفعل – النسق – الأنساق الثقافة) ووضع هذه المتغيرات في السياق العام للمفهوم النسقي يمثل (مدخلات Input ومخرجات Out put كل منها) أي الأسباب والنتائج المترتبة على علاقة كل منها بعضها بالبعض .

٢- يؤدي التركيز في النقاط الخمس إلى التأكيد على مركزية نسق الثقافة ليكون محورا للتحليل والمناقشة .

٣- التربية كعملية للتغير والتنمية ترتكز على المقومات البنائية والوظيفية داخل النسق الاجتماعي العام – وترد من ميكانزماتها إلى الإنجاز والإمكانيات الكامنة .

خامسا : مستويات تطبيق منهج التحليل النسقي

يمكن لنا أن نصوغ تصورا للنموذج التحليلي للنسق الاجتماعي على النحو التالي :-

١-نسق القيم وهو نسق محوري يحتوي على عدة انساق فرعية Microsystems متبادلة ومتداخلة تتبادل معطياتها مع الأنساق الأخرى (نسق الضبط – نسق الثقافة . نسق السياسة . نسق الاقتصاد ... الخ) .

٢-نسق الثقافة باعتباره نسقا محوريا له مدخلات ومخرجات تصنف إلى مجموعتين الأولى عمومية وتشترك مع الأنساق الاجتماعية العالمية والثانية ذات خصوصية وتتبادل مدخلاتها ومخرجاتها مع الأنساق المحلية الداخلية فقط .

٣-نسق التربية نسق محوري يحتوي على انساق داخلية Microsystems (نسق التعليم ويحتوي على انساق فرعية "نسق التعليم الأساسي ونسق التعليم المهني – نسق التعليم الفني ... الخ) .

<u>وتوصف بأن :-</u>

أ- كل نسق من هذه الأنساق الفرعية له إطاره المرجعي الذي يحتوي أهدافه واستراتيجيته وإمكاناته الذاتية ومستلزماته البنائية والوظيفية ومتطلبات متكاملة مع الأنساق الأعلى منه والأنساق الأدنى منه وكافة قوى الإنجاز .

ب- كل نسق من هذه الأنساق النوعية يتوازن ويتكامل مع النسق العام عن طريق مدخلاته ومخرجاته النوعية الداخلية بحيث يتواءم ويتلاءم مع النسق الاجتماعي من خلال عمليات التقويم المستمرة وتخطط للأهداف والغايات والوسائل التي تحقق التوازن التكامل بين منهج كل نسق فرعي ومناهج الأنساق الأخرى .

وتأسيسا على ما سبق يمكن القول أن منهج التحليل النسقي يفيد في تحديد المشكلات الأساسية في النسق التربوي على النحو التالي :-

١-حل المشكلات البنائية الوظيفية :

ويمكن الوقوف على أبعادها وأسبابها وامتدادها وآثارها من خلال تحليل العلاقات الداخلية من اصغر نسق إلى اكبر نسق بطريقة تدريجية .

"فإذا أردنا الوقوف على أسباب انخفاض المستوى التعليمي وارتباطه بقضية مجانية التعليم ومسألة انخفاض المستوى الاقتصادي والاجتماعي للمعلم وارتباط ذلك أيضا بتخلف مفاهيم التعليم عن مواكبة التقدم العالمي والتطور العلمي ... الخ . نجد أن هناك نوع من التداخل والترابط والتساند بين هذه القضايا والمشكلات والمعوقات ... الخ . ويتحدد مسلك البحث فيها على هدى الأدوات التصورية والمعالجات المنطقية التي تستهدف تحليل الواقع الاجتماعي وتفسير ظواهره .

٢-حل المشكلات الإمبيريقي :

مما لا شك فيه أن منهج التحليل النسقي يعطي للباحث مجالا اكبر واشمل من تكتيكات البحوث التقليدية فمن خلال عمليات التحليل والربط للعلاقات المشار إليه تتضح "الحقيقة" فلا يرتكن الباحث إلى قضايا أو مسلمات قبلية قد تستغرقه أحكامها المسبق وتبعده عن الحقيقة الواقعة .

٣-يحتوي منهج التحليل النسقي على إمكانات هائلة في الوقوف على المشكلات استنادا إلى أطر مرجعه نابعة من نظرية منهجية للنسق والفعل الاجتماعي يمكنه من صوغ العلاقات ومحتوى المشكلة المدروسة بصورة منسقة Systematic

٤- تخلو من عنصر التحيز او التسعف في معالجة مشكلة ما .

٥-يسير منهج التحليل النسقي في البحث التجريبي سيرا متصلا من العنصر التصوري إلى العنصر التجريبي ، فإذا كان الإطار التصوري يصور وحدة الدراسة من جماعة أو بناء اجتماعيا أو نظاما ، أو غير ذلك من الأنماط التصورية ، فان مسلك البحث التربوي التجريبي يتجه إلى انتقاء فعلى وانتقاء عملي لهذه الأنماط التصورية كما تتجسد في الواقع . أو كما تعكسها واقعيا مجموعة من المظاهر السلوكية أو الجماعات ، أو المؤسسات أو غير ذلك من الوحدات الاجتماعية أو الثقافية التي تعكس العناصر السلوكية أو المادية .

٦-يساعد في تحديد الأبعاد المتعددة التي يحتويها العنصر التجريبي بعد أن يقوم الباحث بتحديد إطاره التصوري ، وأهداف بحثه

يقوم باختبار واحد أو اكثر من الأبعاد المتعددة التـــي يحتويـــها العنصر التجريبي وهي :- مستوى الدراسة ، عدد الحـــالات ، البعد المكاني والزماني ، البعد الاستقراري أو الديناميكي ، مـــدى التحكم في وحدة الدراسة ، مصادر المعطيـــات فـــي البحـــث التجريبي .